الدكتور أمين توفيق الطيبي

دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية

دار إقرأ للطباعة والترجمة والنشر والخدمات الإعلامية

الدكتور أمين توفيق الطيبي

دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية

الطبعة الأولى
جمادى الآخرة 1400 من وفاة الرسول ﷺ
الكانون «ديسمبر» 1990م

مكتب الجماهيرية - ص.ب: 2682 - برقيًا: الإسلامية - مبرق: 20407 - هاتف: 31021
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
مكتب ايطاليا - هاتف: 5894674 - 5895029 (06) تلكس: I ISLAM 622518 روما - ايطاليا

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الإهداء

إلى والدتي العزيزة

ترحّماً وعرفاناً بالفضل والجميل

المحتويات

الإهداء 5
المقدِّمة 9

القسم الأول

أحوال المسلمين في صقلية النورمانية 15
السياسة العربية للإمبراطور فردريك الثاني 41
العلاقات بين جزيرتيْ صقلية وجربة في أواخر القرون الوسطى 67
جزيرة قَوْصرة (بنطلارية) العربية 97
دَوْر صقلية في انتقال العلوم والمعارف العربية إلى أوروبا 115
مدينة بلرمُ حاضرة صقلية العربية 143
الطري (الرُباعي) الصقلِّي وأثره في جنوب أوروبا 151
أبو العباس أحمد الصقلِّي ـ سيرة قائدٍ بحري مسلم 159
مقاومة بطولية لفتاة عربية من بني عبس في صقلية 167

القسم الثاني

صقلية العربية النورمانية 181
أ ـ صقلية في فترة السيادة العربية 183
ب ـ الفتح النورماني لجزيرة صقلية 197
ج ـ المملكة النورمانية 213
د ـ تفسُّخ مملكة صقلية النورمانية 230
الامبراطور فردريك الثاني «أعجوبة الدنيا» 249

المقدمة

يسرُّنا أن نقدِّم للقارىء العربي هذه الدراساتِ في تاريخ صقلية الإسلامية من تاريخ افتتاح العرب للجزيرة سنة 827 م إلى نهاية حكم الامبراطور فردريك الثاني سنة 1250 م ـ أي على مدى أربعة قرون ـ، وهي تتناول الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والمعمارية من تاريخ صقلية الإسلامية في فترة السيادة العربية (827-1091 م)، وفترة السيادة النورمانية (1091-1194 م)، ثم فترة حكم فردريك الثاني من أسرة هوهنشتاوفن السوابية الألمانية. وقد ظلَّ للمسلمين في فترة السيادة النورمانية تأثير كبير على نظُم البلاط النورماني والاقتصاد والادارة والحياة العامة، كما يشهد بذلك الرحالةُ العربيُّ الأندلسيُّ ابنُ جبير الذي زار الجزيرة في أواخر أيام حكم النورمان لها، وكذلك في فترة حكم الامبراطور فردريك الثاني الذي أبدى تعلقاً كبيراً بمختلف أوجه الثقافة العربية الإسلامية. وعلى ذلك، فإن التأثيرَ الإسلاميَّ استمر نحو قرنين من الزمن بعد انتهاء فترة السيادة العربية على الجزيرة. ومن صقلية ـ عن طريق ايطاليا وفرنسا ـ انتقل التراثُ الفكريُّ العربيُّ إلى أوروبا مما ساهم ـ وعجَّل ـ في بزوغ عصر النهضة الأوروبية في أواخر القرون الوسطى.

وقد جعلْنا هذه الدراساتِ في قسمين. أما القسم الأول فيشتمل على

خمسة بحوث وأربع مقالات لنا، ومن بينها بحثٌ عن تاريخ جزيرة قَوْصره (بنطلارية) العربية التي تُعتبر ـ على حد قول الأندلسيين ـ من بنات جزيرة صقلية، وبحثٌ تناولنا فيه العلاقاتِ بين جزيرتيْ صقلية وجربة في أواخر القرون الوسطى. والدراساتُ التسعُ هي:

1 ـ أحوال المسلمين في صقلية النورمانية.

2 ـ السياسة العربية للامبراطور فردريك الثاني صاحب صقلية. وقد قُدِّم هذا البحثُ في الندوة العلمية التي نظَّمها في رومه مركزُ دراسات الجهاد الليبي، بالتعاون مع المعهد الايطالي الافريقي، في الأسبوع الأخير من شهر يناير 1981.

3 ـ العلاقات بين جزيرتيْ صقلية وجربة في أواخر القرون الوسطى. وقد قُدِّم هذا البحثُ في المؤتمر الدولي حول تاريخ جزيرة جربة في الأسبوع الأول من شهر ابريل 1982.

4 ـ جزيرة قَوْصره (بنطلارية) العربية.

5 ـ دَوْر صقلية في انتقال العلوم والمعارف العربية إلى أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. وقد قُدِّم هذا البحثُ في الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب، التي نظَّمها معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في الأسبوع الأخير من شهر ابريل 1987.

6 ـ مدينة بلرم حاضرة صقلية العربية.

7 ـ الطري (الرُباعي) الصقلِّي وأثره في جنوب أوروبا.

8 ـ أبو العباس أحمد الصقلِّي ـ سيرةُ قائدٍ بحريٍ مسلم.

9 ـ مقاومة بطولية لفتاة عربية من بني عبس في صقلية.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

وأما القسم الثاني من هذه الدراسات، فيشتمل على فصلَيْن من كتاب: صقلية في العصر الوسيط *Medieval Sicily*, London 1969 للأستاذ د. ماك سميث D. Mack Smith ـ الأستاذ بكلية All Souls College بجامعة اكسفورد ـ المتخصِّص في تاريخ صقلية، وبخاصة تاريخ الجزيرة الحديث، بعد موافقته ـ مشكوراً ـ على أن نقوم بنقل الفصلَيْن إلى العربية. والفصلان هما: صقلية في فترة السيادة العربية النورمانية، والامبراطور فردريك الثاني «أعجوبة الدنيا». وقد نقلْنا الفصلين من الإنجليزية إلى العربية بكل دقة وأمانة، وقُمْنا في بعض المواضع بإضافة عبارات ـ بين قوسين مربعين ـ وهوامش زيادةً في الشرح والفائدة. وقد اعتمد الأستاذ ماك سميث على المصادر اللاتينية المسيحية المعاصرة ـ فضلاً عن المصادر العربية ـ وركَّز على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ـ بما في ذلك نظامُ الإقطاع الذي أدخله النورمان معهم إلى جزيرة صقلية ـ والعلاقاتِ بالبابوية، وبالدولة البيزنطية، وبقية الممالك الأوروبية القائمة آنذاك. وللأستاذ ماك سميث آراءٌ طيبةٌ عن أثر العرب الإيجابي في الجزيرة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والمعمارية والادارية التنظيمية، في فترتيْ السيادة العربية والسيادة النورمانية على الجزيرة. إذ شهدت صقلية ـ بحقٍ ـ أزهى عصورها وأكثرَها ازدهاراً ورخاءً في عهد السيادة العربية والسيادة النورمانية التي تلتْها وتأثرتْ بها. وبالنسبة لرسم أسماء الأماكن في صقلية وجنوب ايطاليا ـ والكثيرُ منها مشتقٌ من تسميات عربية ـ فقد اعتمدنا في المقام الأول ما أورده منها الشريفُ الإدريسيُّ في مصنَّفه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). فهو العُمدة في ذلك، إذ إنه عاش في الجزيرة على عهد الملك النورماني رجار الثاني، ووَصفَ معالمَها في مصنَّفه الشهير.

ولنا وطيدُ الأمل في أن تكون هذه الدراساتُ حافزاً للباحثين العرب لتوجيه المزيد من العناية والاهتمام إلى مختلف جوانب تاريخ صقلية الإسلامية

وحضارتها، فهي ميدانٌ ثريٌ وخصبٌ من ميادين تراثنا العربي الإسلامي لم يظفْر من الباحثين العرب حتى الآن بما هو جدير به من بحثٍ ودراسةٍ وتنقيب.

ونود في الختام أن نتقدَّم ببالغ الشكر والامتنان لجمعية الدعوة الاسلامية العالمية لتوليها نشر هذه الدراسات ضمن منشوراتها العلمية، حرصاً منها على تشجيع الباحثين في تاريخنا وتراثنا الاسلاميِّين، والله وليُّ التوفيق.

أمين توفيق الطيبي

القسم الأول

أحوال المسلمين
في
صقلّية النورمانية

صقلِّيَّـةٌ كـاد الـزمـان بـأهـلهـا ... وكـانت على أهل الـزمان محـارسـا
فكم أعينٍ بـالخوف أمستْ سـواهرا ... وكـانت بـطيب الأمن منهـا نـواعسـا
أرى بلدي قـد سـامـه الـرومُ ذلـةً ... وكـان بقـومي عـزُّه متقـاعسـا
وكـانت بـلادُ الكفـرِ تلبس خـوفـه ... فأضحى لـذاك الخـوف منهن لابسـا

(ابن حَمديس)[1]

العربُ في صقلية:

بـدأ فتح العـرب لجزيـرة صقلية في عهـد الأميـر الأغلبي زيـادة الله الأول بحملة قامت من سوسـة في صيف عام 212هـ/ 827م بقيـادة القاضي الشهيـر أسد بن الفرات، وسُـرعان مـا استولى العـرب على معظم الجـزيرة من أيـدي الروم البيزنطيين واتخذوا بلرمُ (Palermo) عاصمةً لهم، ولـو أن بعض معاقـل الـروم في شرق الجـزيرة لم تسقط في أيـدي المسلمين إلا بعد فتـرة طويلة. وقد ظلَّتْ جزيـرة صقلية تحت السيـادة العربيـة أكثر من قـرنين ونصف القرن (212-484هـ/ 827/1091م).

(1) ابن حمـديس، عبد الجبـار: ديوان ابن حمـديس، تحقيق احسان عبـاس، القاهـرة 1960، ص 275.

ومما يُذكر أن سكان صقلية ـ بعد الفتح العربي ـ تحسَّنتْ أحوالهم وأصبحت خيراً من أحوال إخوانهم في جنوب إيطاليا، ولم يُفرضْ عليهم كذمِّيين سوى دفع الجزية. وقد ازداد عدد المسلمين في الجزيرة بعد الفتح نتيجة لتدفق المستوطنين من افريقية[9] وكذلك نتيجة لاعتناق الكثيرين من سكان الجزيرة الدين الإسلامي. ولما زار الجزيرةَ الرحالة المشرقيُّ ابنُ حَوْقل في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ـ أي بعد قرن ونصف القرن من بدء الفتح ـ ذكر بأن بلرمُ وحدها كانت تضم نيِّفاً وثلاثمائة مسجد، مما يدل على مدى التغلغل الإسلامي في الجزيرة[1].

كانت صقلية بادىء الأمر ولايةً تابعةً للأغالبة في القيروان، وبعد زوال تلك الإمارة أصبحت الجزيرةُ تابعةً للعُبْيديين الفاطميين في إفريقية أولاً ثم في مصر. ومن أشهر ولاة الجزيرة على عهد الفاطميين بنو أبي الحسين الكلبيون (يدعوهم ابن خلدون بالملوك[2] وابن حوقل بالسلاطين)[3]. وكانوا من أخلص أعوان الفاطميين فولُوا أمر الجزيرة بالتوارث قرناً من الزمن (336-431هـ/ 947-1040م)، وفي عهدهم بلغتْ الجزيرة أوجَها الحضاري. وإجمالاً، فإن فترةَ سيادة المسلمين على جزيرة صقلية تميَّزتْ بالتسامح الديني والارتقاء الحضاري كما تميّزتْ بالازدهار الزراعي والنشاط التجاري خاصة مع إفريقية ومصر. وطالما اعتُبرتْ صقلية، شأنها في ذلك شأن الأندلس، ثغراً من ثغور المسلمين على حدود الروم والفرنجة، وكثيراً ما يُشير أكبرُ شعراء صقلية ابن حَمديس (ت 527هـ/ 1133م) في قصائده إلى مواطنيه ببني الثغر[4].

---

(1) ابن حوقل، أبو القاسم: صورة الأرض، بيروت، بدون تاريخ، ص 115، Lewis, B. *The Arabs in History*, London 1950, p. 118.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، القاهرة، بدون تاريخ، ص 254.

(3) صورة الأرض، ص 114.

(4) ديوان ابن حمديس، ص 413, 416.

(2) Lombard, M., *The Golden Age of Islam*, Amsterdam 1975, p. 144.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

قدوم النورمان

مرّتْ صقلية الإسلامية في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بفترة من الفتن والمنازعات الداخلية أشبه ما تكون بفترة ملوك الطوائف المتزامنة معها في الأندلس. بَيْدَ أنه في حين قيَّض الله للأندلسيين قيامَ دولة المرابطين الفتية المجاهدة في المغرب فهبَّتْ لإنقاذهم من السقوط في أيدي النصارى، فإن صقلية لم تجدْ لنفسها نصيراً. فقد كانت الدولة الفاطمية التي تتبعها الجزيرة تمر في مرحلة ضعف شديد، كما أن أمراء بني زيري في إفريقية شُغلوا بحروبهم ضد أبناء عمومتهم بني حماد في القلعة وبجاية، وضد قبائل بني هلال وبني سُلَيْم. لذلك، ونتيجةً للانقسامات الداخلية، فإن صقلية وقعت فريسة في أيدي المغيرين النورمان من جنوب إيطاليا.

والنورمان هؤلاء، كما يُستدلُّ من اسمهم (Northmen, Vikings) هم أصلاً من أهل **شمال** أوروبا ـ أي اسكندناوة ـ وكانوا منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي قد دأبوا على شن غارات بحرية سريعة ومفاجئة على سواحل أوروبا الغربية بما فيها الأندلس (حيث عُرفوا باسم المجوس) واستقر بعضُهم في **شمال** فرنسا حيث استقلوا بإمارةٍ عُرفتْ إلى الآن باسمهم وهي نورماندي التي غزا منها أميرها وليام الفاتح انجلترا واستأثر بمُلْكها بعد انتصاره على ملكها هارولد السكسوني في معركة هاستنجز (Hastings) سنة 1066م، وذلك في نفس الوقت الذي بدأ فيه إخوانهم في **جنوب** إيطاليا بالغارة على صقلية الإسلامية. ونورمان **جنوب** ايطاليا قدموا من نورماندي بشمال فرنسا وعملوا بادىء الأمر فرساناً مرتزقةً في صفوف الجماعات المتحاربة في **جنوب** ايطاليا، وقد برزوا في ميدان التنظيم العسكري، كما اشتهر فرسانهم بالجرأة والإقدام، وإن لم يكونوا على حظ من الحضارة. وفي **جنوب** ايطاليا كانت مقاطعتا بولية (Apulia) وقلّوريّة (Calabria) تابعتيْن

للبيزنيطيين، وكانت نابولي ومَلْف (Amafli) جمهوريتيْن، وكانت بنفنتُ (Benevento) وسالرنه (Salerno) إمارتيْن لمبارديتين. وقد عمل الوافدون المغامرون النورمان أولاً جنوداً مرتزقة في خدمة أمير سالرنه ضد الروم البيزنطيين ونجحوا في توطيد أقدامهم في جنوب ايطاليا على حساب هؤلاء في بولية وقلّوريّة، وانتزع زعيمهم روبرت جيسكارد عام 1060م من أيدي البيزنيطيين طارنت (Taranto) وريّو (Reggio) بوَّابة صقلية. وفي الوقت الذي شُغل فيه روبرت بمحاربة البيزنطيين، وجَّه أخوه رجار، الذي التحق به فيما بعد، كلَّ اهتمامه إلى صقلية التي اجتذبته لثرائها وخصب أراضيها، ثم لأن أحد القادة المسلمين ـ ابن الثُمْنة صاحب سرقوسة ـ استنجد به على خصومه مؤمِّلاً ـ في وهمه ـ في أن يعزِّز بذلك مركزه، ولكن قدوم النورمان منذ استيلائهم على مسينة عام 1061م كان بغرض الفتح والاستقرار وانتزاع السيادة على الجزيرة من أيدي المسلمين. وقد كان النورمان طوال تاريخهم انتهازيين جشعين يتطلعون دائماً إلى الاستيلاء على أراض يتخذونها إمارات لهم على النمط الاقطاعي السائد آنذاك في غرب أوروبا. على أن استيلاء النورمان على صقلية لم يكن مع ذلك بالأمر الهيِّن، فقد صمد العديد من المعاقل والمدن الاسلامية في وجههم نحو ثلاثين عاماً إلى أن تمَّ لهم آخر الأمر فرض سيادتهم على الجزيرة عام 484هـ/ 1091م.

حَكَم النورمان صقلية قرناً من الزمن (1091-1194م)، ونظراً لقلة أعدادهم وكثرة الأعداء من حولهم ـ وبخاصة في جنوب ايطاليا ـ فإنهم إجمالاً انتهجوا سياسة تسامح عرقي وديني، في فترة كانت فيها الحروب الصليبية ـ تحت شعار الدين ـ على أشدِّها، ومع ذلك فإن ملوك النورمان أحسنوا معاملةَ المسلمين في الجزيرة لاستمالتهم إليهم، كما اعتمدوا عليهم في جيوشهم وأفادوا من مهارة المسلمين في الجزيرة في فنون الحرب، كبناء المجانيق وأبراج الحصار المتحركة، في حروبهم المستمرة في جنوب ايطاليا ضد الروم البيزنطيين تارة، وضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة تارة، وضد قوات

البابوات وحلفائهم تارة أخرى. لذلك، فإن ملوك النورمان ـ في بادىء الأمر على الأقل ـ قاوموا المحاولاتِ التي بذلتْها الكنيسة لتنصير المسلمين وحَمَوْهم ما استطاعوا من اضطهاد الإقطاعيين من الفرسان، وضد المستوطنين الجدد من اللُمبارد. ولما كان النورمان حديثي عهد بالحضارة، فإنهم اعتمدوا على المسلمين في الإدارة وفي الدواوين والبلاط الملكي، وفي أعمال البناء والتشييد. والزائر لصقلية اليوم يلاحظ أن الكاتدرائيات والقصور من عهد النورمان في الجزيرة هي ذات طابع معماري وزخرفي إسلامي، تماماً كما هو الحال في إسبانيا المسيحية التي اعتمدت على مَهرة الصُنَّاع من مدجَّني المسلمين في كثير من أعمال بناء الكنائس والقصور. وكان لرجار الثاني عباءة ملكية صُنعتْ بدار الطراز في بلرم على حاشيتها كتابة عربية بالخط الكوفي والتاريخ الهجري 528. كما أحاط رجار هذا نفسه ـ على غرار ما درج عليه ملوك المسلمين ـ بالمُدَّاح من الشعراء. وله وتحت رعايته صنَّف الشريف الإدريسي كتابَ (نزهة المشتاق) المعروف بكتاب رجار/ لجار في الجغرافيا. وظلت العُملة العربية ـ وهي المعروفة بالرُباعي/ الطريّ ـ هي العُملة المتداولةُ في صقلية وجنوب إيطاليا، تماماً كما كانت الدنانير/ المثاقيل المرابطية والموحدية هي المتداولة في ممالك اسبانيا المسيحية حتى بعد تقلُّص نفوذ المسلمين وأراضيهم في الأندلس. وطوال فترة حكم النورمان لجزيرة صقلية ظلّت عُملاتهم تُضرب وعليها كتابة عربية بالخط الكوفي، وبعضها يحمل التاريخ الهجري وعبارة (محمد رسول الله)[1].

رجار الأول (1091-1101م):

اقتسم الأخوان روبرت جيسكارد ورجار صقلية بينهما، وسمَّى روبرت أخاه رجار كونت (قمط) صقلية، ثم لم يلبثْ أن تعزّز مركز رجار في الجزيرة بعد

(1) Smith, D.M., *Medieval Sicily,* London 1969, p. 17.

وفاة أخيه (1085م)، وكوَّنَ جيشاً جُلّه من المسلمين أعانه على توطيد الأمن والاستقرار في الجزيرة. ويقول الإدريسي عن الكونت رجار: «ولما صار أمرها إليه... نشر سيرةَ العدل في أهلها، وأقرَّهم على أديانهم وشرائعهم، وأمَّنهم في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم، ثم أقام على ذلك مدةَ حياته...»[2]. ويؤيد ذلك من الجانب المسيحي ما ذكره وليام/ غليام الأبولي ومالاتِرّا (Malaterra) من أن رجار لما فتح بلرم (يناير 1072م) وعد المسلمين بأن لا يؤذيهم بشيء، وأن لا يُكرِه أحداً على تبديل دينه[3]. وكان من مصلحة رجار أن يستميلَ المسلمين ليساندوه ضد النبلاء النورمان إذا هم حاولوا الخروج على طاعته، كما كان يحدث كثيراً للملوك في بعض ممالك أوروبا التي تفشّى فيها نظام الإقطاع آنذاك. وكان أفراد البيت النورماني الحاكم انتهازيين إلى أبعد حد، فقد أحسنوا معاملة المسلمين طالما كان ذلك في مصلحتهم الشخصية[1].

إن سنوات حكم الكونت رجار الأول تميَّزتْ بالتسامح الديني، ولم تحدث ثورات داخلية ضده. وقد رفض ضغوط الكنيسة الكاثوليكية عليه لتنصير المسلمين لأسباب تتعلق بكيان دولته الفتية وأمنها. فقد كان المسلمون يشكِّلون أكثريةَ السكان، كما كان العنصر الإسلامي بارزاً في جيشه. ويحدِّثنا صاحبُ سيرة القديس أنسيلم (St. Anselm) بأن رجار منع رجال الدين الكاثوليك من تنصير جنود المسلمين[2]. ومع ذلك، فإن الكونت رجار يادر إثر دخول بلرم إلى تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، وكذلك فعل ببعض مساجد المدينة مما حدا بمؤرخ أوروبي إلى التعليق على ذلك بقوله: «وهذا

---

(2) اماري، م: المكتبة العربية الصقلية، ليبسك 1875، ص 26.

(3) مورينو، مارتينو ماريو: المسلمون في صقلية، بيروت 1968، ص 19.

(1) Daniel, N., *The Arabs and Mediaeval Europe*, London, 1975, p. 153.

(2) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب وتعليق أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1980، ص 78.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

موجز للرحمة التي كانت أوروبا تقدِّمها دائماً للعرب، فهي مشروطة بالقضاء على دينهم، وفي عزلهم ليكونوا جماعة ذات كيان منفصل»[3].

ومن الناحية الاقتصادية، كان الفتح النورماني ذا أثر سيّء على أوضاع المسلمين الاقتصادية والمعيشية في صقلية. ففي أثناء القتال دُمّرتْ القرى على نطاق واسع، وكان على المسلمين ـ كاليهود ـ دفع إتاوة أو جزية مرتين في العام، مما أدى إلى هجرة أعداد منهم إلى إفريقية. وبدخول النورمان إلى الجزيرة دخلها النظام الاقطاعي (Feudal System)، إذ أقطع رجال أقرباءه وأصحابه أراضي واسعة كانت للمسلمين، واتخذ هؤلاء المُقطَعون المسلمين في الأرياف عبيداً أو أقناناً في أراضيهم (serfs) ـ وهم المشار إليهم في السجلات النورمانية التي احتفظتْ باسمها العربي الدفاتر /defetari) (deptari ـ باسم رجال الجرائد (villeins). أما أهل المدن، فقد كانوا أحسن حالاً نسبياً إذ كان تسليمُ مدنهم ـ كما حدث في بلرم ـ بموجب اتفاقيات حفظت لهم، ولو إلى حين، حقوقهم المدنية والدينية، في حين أن أهل الضياع والقرى فقدوا معظمَ أراضيهم للفرسان النورمان والكنيسة، وأصبح الكثيرون منهم عبيدَ أرض للسادة الجُدد. ولعلَّ ذلك يفسِّرُ قولَ ابن الأثير «ومَلَك رجار جميع الجزيرة وأسكنها الرومَ والفرنجَ مع المسلمين، ولم يترك لأحد من أهلها حماماً ولا دكاناً ولا طاحوناً ولا فرناً»[1].

كان المسلمون عند استيلاء النورمان على صقلية يشكِّلون أكثريةَ السكان في غرب الجزيرة (ولاية مازر (Val di Mazara))، وكانوا يكوِّنون نسبةً كبيرةً من السكان في جنوبها الشرقي (ولاية نوطُس (Val di Noto))، أما في الركن الشمالي الشرقي من الجزيرة فقد كان المسلمون أقلية متناثرة في ولاية دَمَنْش

---

(3) Daniel, p. 148.

(1) ابن الأثير، علي: الكامل في التاريخ، بيروت 1980، ج 8، ص 159.

(Val Demone). إلا أن خريطة الجزيرة السكانيّة لم تلبثْ أن أخذت في التبدل على حساب المسلمين، لتوالي هجرة المسلمين من الجزيرة إلى إفريقية والأندلس والمشرق، ولوفود جماعات من النورمان من شمال فرنسا، ثم لتوالي هجرة اللمبارد من جنوب إيطاليا. وكان هؤلاء اللمبارد شديدي التعصب ضد المسلمين، وقد ارتكبوا ضدهم ألواناً من الاضطهاد طوال العهد النورماني. وهم في ذلك شبيهون بالوافدين الجدد من الصليبيين إلى الأراضي المقدسة في فلسطين الذين يتحدث أسامة بن منقذ عن شدة تعصبهم الديني نحو المسلمين كما لمس ذلك بنفسه في بيت المقدس[2].

ويمثِّل شعورَ المثقفين العرب واستياءهم لما آل إليه وضعُ مسلمي صقلية بعد وصول النورمان قولُ الشاعر عبد الحليم بن عبد الواحد[3] (وهو إفريقي المنشأ صقليُّ الموطن):

عشقتُ صقلِّيةً يافعا ... وكانت كبعض جنان الخلود
فما قُدِّر الوصلُ حتى اكتهَلتُ ... وصارت جهنمَ ذات الوقود

رجار الثاني (1111-1154م):

بعد فترة من الوصاية لأمه أدليد، تولَّى رجار أمر صقلية. ورجار الثاني أشهر ملوك النورمان، وهو الذي وحَّد ممتلكات النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية، وانتزع لنفسه من البابا ـ لقاء تأييده له ضد خصومه ـ لقبَ «ملك صقلية» عام 1130م، بعد أن كان أبوه يحمل لقب «كونت» (قمط) ـ يقول الإدريسي: «أقام الدولةَ، وزيَّن المملكةَ، وشرَّف السلطنة، وأعطى الأمور

---

(2) ابن منقذ، أسامة: كتاب الاعتبار، حرره فليب حتي، مطبعة جامعة برنستون 1930، ص 140.

(3) الأصفهاني، العماد الكاتب: خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق محمد المرزوقي وزميله، تونس 1966، ص 22.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

أقساطَها من النظر الجلي والعقل المرضي، مع نشور العدل وإقامة الأمان»[1].

ونظراً لما لقيه من معاداة البيزنطيين وأباطرة الأمبراطورية الرومانية المقدسة الطامعين في مملكته، فإن رجار سار على سياسة أبيه في تجنيد المسلمين والاعتماد عليهم في مواجهة أعدائه. يقول ابن الأثير إن رجار «أكرمَ المسلمين وقرَّبهم، ومنع عنهم الفرنجَ فأحبُّوه»[2]. والحقُّ أن رجار وجد من مصلحته إزاء الأخطار المُحدقة به أن ينتهج سياسة توازن الطوائف والملل والعناصر بين رعاياه.

ومما يُذكر أن الملك رجار الثاني حقَّقَ فتوحاتٍ في **شمال إفريقية** (استولى على جزيرة جربة سنة 529هـ/ 1135م، وعلى طرابلس الغرب سنة 541هـ/ 1146م، وعلى المهدية سنة 543هـ/ 1147م، وعلى معظم مدن الساحل التونسي سنة 543هـ/ 1148م، وعلى بونه/ عنابه سنة 548هـ/ 1154م) وأضاف إلى ألقابه لقبَ «ملك افريقية». وقد سهَّل عليه أمرَ الاستيلاء على موانىء إفريقية حالةُ الضعف والتفكك السائدة هناك بسبب الفرقة والمنازعات، وسوء الأحوال الاقتصادية بسبب توالي أعوام الجفاف والقحط. ومما حفزه على الاستيلاء على موانىء الساحل الأفريقي أن المسلمين كانوا لا يفتأون يغيرون منها على مراكب النصارى وعلى سواحل صقلية، إذ لم ينسَوْا ضياع صقلية من أيدي المسلمين، تماماً كما حدث بعد ذلك بأربعة قرون بالنسبة لمراكب الإسبان وسواحل الأندلس على أيدي النازحين من الأندلسيين، فكما أن الاسبان سعَوْا في أوائل القرن السادس عشر إلى الاستيلاء على عدد من موانىء الشمال الأفريقي أملاً في وقف غارات النازحين الأندلسيين، كذلك فعل النورمان في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بالنسبة لموانىء إفريقية. ولا شك في أن مما

(1) المكتبة العربية الصقلية، ص 27.

(2) الكامل في التاريخ، ج 8، ص 159.

يسَّر الأمرَ بالنسبة للنورمان انشغالُ المرابطين في تلك الفترة بقيام الموحدين الذين قَضَوْا نهائياً على دولة المرابطين (541هـ/ 1146م) ولم يتفرّغ الموحدون للنورمان إلا بعد ذلك ببضعَ عشرةَ سنة.

لقد عرف رجار الثاني قِيَمة الحضارة العربية واستفاد منها، وقلَّد العربَ مناصبَ ساميةً في دولته. وله وتحت رعايته ألَّف الإدريسي كتابَه (نزهة المشتاق)، وسمّاه كتابَ رجار، وفي مقدمة الكتاب وصف الملك «بالملك المعظم المعتز بالله المقتدر بقدرته». ولا شك في أن وجود الإدريسي ـ العالم الجغرافي الكبير والشريفي المحتد ـ رفع من مكانة رجار في أعين رعاياه من المسلمين. وليس من الغريب أن يتناقل الناس إسلامه. لقد وصفه أماري بأنه (سلطان عربي يحمل تاجاً كملوك الفرنج)، واتهمه النصارى بأنه كافر (pagan)[1]. ودفعاً للظن عن نفسه، فإن رجار أقبل على تشييد الكنائس، كما أنه شجَّع في أواخر أيامه حركة التنصير بين المسلمين واليهود. وقُبَيْل وفاته، غضب رجار على قائد أسطوله فليب المهدوي، لأنه أغضى عن جماعة من صلحاء المسلمين وعلمائهم عند استيلائه على بونة (عنابة) سنة 548هـ/ 1154م حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى المجاورة. فلما عاد إلى صقلية أمر رجار بالقبض عليه. وعن ذلك يقول ابن الأثير: «وكان فليب يقال إنه وجميع فتيانه مسلمون ويكتمونه، وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك وأنه مسلم. فجمع رجار الأساقفةَ والقسوسَ والفرسان، فحكموا بأن يُحرق فأحرق في رمضان. وهذا أول وَهَن دخل على المسلمين بصقلية»[1]. وقد يكون من أسباب تغير سياسة رجار في أواخر أيامه ظهورُ دولة الموحدين كقوة كبيرة في المغرب، مما هدَّد مواقعَ النورمان على الساحل الأفريقي، بل ووجودهم في صقلية ذاتها.

---

(1) مؤنس، حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد 1967، ص 182. مورينو: المسلمون في صقلية، ص 22. Lewis, p. 119.

(1) الكامل في التاريخ، ج 9، ص 42.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

وليام/ غليالم الأول (1154-1166م):

في السنوات الأولى من حكمه زاد نفوذ كبير وزرائه مايو/ مايون/ Maio (Majone) زعيم حزب القصر الذي ناصره كثير من المسلمين لاعتمادهم، وبخاصة فتيان البلاد وحجّابه، على الملك لحمايتهم من بطش حزب النبلاء المعادي والذي كان يمثله المؤرخ النورماني فلقنده (Falcandus). وهو الذي أضفى على الملك وليام/ غليالم الأول صفة «السيِّء (The Bad)». وهي صفة لم يكن الملك في الحقيقة جديراً بها، وإنما نعته فلقنده بذلك لا لشيء إلا لأنه أبدى تسامحاً نحو المسلمين.

ومع أن المسلمين ظلوا مخلصين للملك الذي كان حاميهم الوحيد في جو مشحون بالعداء نحوهم من جانب النبلاء واللمبارد ورجال الدين النصارى، إلا أنهم دفعوا ثمن انتصار الموحدين على النورمان في المهدية (555هـ/ 1160م) إذ انتعشتْ آمالهم بظهور قوة الموحدين، وبعد إخراج النورمان من مدن الساحل الأفريقي ما بين عامي 1156 و1160م. لذلك، وتحوُّطاً، فقد جُرِّد المسلمون في بلرم من السلاح، مما جعلهم لقمة سائغة للبارونات والوافدين من اللمبارد في الثورة التي قام بها هؤلاء ضد الملك ووزيره وفتيانه (1160-1161م). وفي تلك الثورة الدامية اغتيل الوزير مايو/ مايون، وقُتل العديد من فتيان القصر وموظفيه المسلمين، كما قُتل كثير من المسلمين في أحياء بلرم وسلبت أموالهم «وقَتل الفرسانُ كثيرين في متاجرهم وفي الدواوين، ومن وجدوه يتجول خارج منزله في شوارع المدينة»[2]. وعلى أثر هذه الثورة الدامية، بل المذابح، لم يعد العرب يستشعرون الأمن في وسط مدينة بلرم، فتجمَّعوا في حي من المدينة يسهل عليهم منه الدفاع عن أنفسهم[1]. وكان من بين ضحايا هذه الثورة الدموية ـ وهي الأولى من نوعها

---

(2) Daniel, p. 149.

(1) المرجع السابق، ص 149, 150.

في العهد النورماني ـ الشاعر القفصي يحيى بن التيفاشي، ولعل الإدريسي كان من بين ضحاياها أيضاً[2].

وكانت أحوالُ المسلمين في الأرياف أسوأ من ذلك، إذ تعرَّضوا لفتك نبلاء النورمان وأتباعهم، ونجا بعضهم متزيياً بزي النصارى، وقد انتابهم رعب شديد في المناطق التي كان يسكنها اللمبارد حتى إنهم لأجيال ظلوا يتحاشون المرور بتلك المناطق ما أمكنهم ذلك[3]. ولما استردّ الملك زمام الموقف وقمع الثورة، بادر باتخاذ اجراءات صارمة ضد الثائرين مستعيناً بجيشه الذي كان يضم عدداً وافراً من الجنود المسلمين.

إن العداء ضد المسلمين من جانب الإقطاعيين من البارونات ومن جانب الأعداد المتزايدة من اللمبارد الذين وفدوا من إيطاليا للاستقرار في الجزيرة كان مبعثه التعصب الديني، ثم الغَيْرة لما كان للمسلمين من مناصب ونفوذ في القصر ونشاط في مجال التجارة. كذلك، فإن الإقطاعيين ما فتئوا يحاولون توسيع ممتلكاتهم بانتزاع المزيد من الأراضي من أيدي المسلمين بحجة أنها كانت في الأصل للنصارى[4]. أضف إلى ذلك ظهورَ قوة الموحدين وخشية النصارى من تواطؤ مسلمي صقلية معهم لإعادة السيادة الإسلامية على الجزيرة. ولم يكن شعور مسلمي صقلية هذا بالأمر المستغرب، فقد كانوا دائماً يتلقطون ـ عن طريق الحجاج والتجار المسلمين المارين بالجزيرة ـ أخبارَ المسلمين في المشرق والمغرب، كما يتبيَّن مما ذكره الرحالة الأندلسي ابن جبير في رحلته.

ويقول الهروي إنه اجتمع في صقلية بالقائد أبي القاسم بن حمود زعيم مسلميها فسلَّمه كتاباً إلى السلطان الموحدي يحثُّه فيه على الاستيلاء على

---

(2) عباس، احسان: العرب في صقلية، القاهرة، 1959، ص 149. خريدة القصر، حص 127.

(3) Daniel, p. 151.

(4) مورينو: المسلمون في صقلية، ص 22.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الجزيرة[1]. وعند مرور ابن جبير بصقلية (581هـ/ 84-1185م)، كان أبو القاسم بن حمود مغضوباً عليه من الملك النورماني إذ - كما يقول ابن جبيْر - «ألزمه داره بمطالبةٍ توجّهتْ عليه من أعدائه افتَرَوْا عليه فيها أحاديثَ مزوَّرةً نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين، أيّدَهم الله، فكادت تقضي عليه لولا حارس المدة، وتوالت عليه مصادراتٌ أغرمتْه نيِّفاً على الثلاثين ألف دينار مؤْمنية، ولم يزلْ يتخلّى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي دون مال»[2]. ومما يُذكر بأن الشاعر المصري ابن قلاقس كان قد حلّ ضيفاً على ابن حمود (563هـ/ 1168م). قبل أن ينتكبه الملك النورماني، ومدحه بعدة قصائد وألّف له كتاب (الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم)[3].

لقد كان القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فترة اندلاع الحروب الصليبية في المشرق، وكذلك فترةَ بزوغ الدولة الموحدية في المغرب والأندلس، فليس من الغريب أن نجد العامل الديني ذا أثر كبير في أوضاع المسلمين في صقلية الذين شعروا بالانقطاع عن دار الاسلام، وبأنهم رهائن تحت رحمة النصارى. فهذا ابن الأثير ينقل لنا ما قاله صاحب صقلية وليام/غليالم الأول وقت استيلاء السلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي على المهدية (555هـ/ 1160م): «إن قتَلَ عبد المؤمن أصحابَنا بالمهدية، قتلْنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حُرمَهم وأموالهم»[4] مما يبيِّن بأن مسلمي صقلية أصبحوا كالرهائن في يد الملك النصراني يتصرف بها حسبما تُمليه عليه الظروف وعلاقاته بالدول الإسلامية خارج الجزيرة.

ومما يبيِّن اشتدادَ روح الاضطهاد الديني في الفترة التي أعقبت إخراجَ

---

(1) احسان عباس: العرب في صقلية، ص 290.
(2) ابن جبير، أبو الحسين محمد: رحلة ابن جبير، بيروت 1968، ص 279-280.
(3) احسان عباس: العرب في صقلية، ص 290.
(4) الكامل في التاريخ، ج 9، ص 64.

النورمان من شمال افريقيا ما حدث لروبرت كالاتابيانو (Robert Calatabiano) الذي أُتهم ـ كما حدث من قبل لفليب المهدوي في نهاية حكم رجار الثاني (548هـ/ 1154م) ـ بإظهار النصرانية وحسن معاملة المسلمين، فاضطهد وزج به في السجن حيث مات مسجوناً[1]. «وبالتأكيد فقد كان أمراً خطراً بالنسبة لمسيحي ـ حتى، أو بالأخص، إذا كان ثرياً ـ أن يكون له أصدقاء من العرب، حتى، أو بالأخص، إذا كان هؤلاء من رجال البلاط»[2].

ومع ذلك، فإن المسلمين في صقلية رأوا في الملك حاميَهم الوحيدَ ضد الفرسان واللُمبارد وغلاةِ النصارى المتربِّصين بهم، فآزروه عليهم لردعهم وخضد شوكتهم. ويقول فلقنده: إن نساءَ بلرمُ المسلمات شيَّعن نعشَه (وليام/ غليالم الأول) يوم مات بدموعٍ صادقةٍ لا تشبه الدموع الرسمية التي كانت تسيل من عيون سائر النُدَّاب[3].

وليام/ غليالم الثاني (1166-1189م):

وبعد وفاة وليام/ غليالم الأول وتولي أرملته الوصاية على ابنها، قُدِّمتْ عام 1167م شكاوٍ من النصارى ـ وبخاصة اللُمبارد ـ في بلرم ضد مسلمين يشغلون مناصب هامة كانوا قد تنصَّروا، ولكن خصومهم اتهموهم بكتمان إسلامهم. لذلك، فقد رأى بعض المسلمين، بما فيهم رئيسُ حجاب القصر، أن الوقت قد حان للنزوح إلى ديار الإسلام في المغرب ببعض مالهم[4].

كان وليام/ غليالم الثاني في الثالثةَ عشرةَ من عمره عند وفاة أبيه، ولم

---

(1) Daniel, pp. 150-151.

(2) المرجع السابق، ص 151.

(3) مورينو: المسلمون في صقلية، ص 22.

(4) Daniel, p. 152.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

يباشر الحكم بنفسه إلا في عام 1171م. وبخلاف أبيه، فقد كان محبوباً من رعاياه النصارى، ولذلك أطلقوا عليه لقب، «الطيِّب» (The Good)، ولعل رضاهم يرجع إلى موقف هذا الملك من رعاياه المسلمين، وإلى نشاطه في محاربة المسلمين في المغرب والمشرق. فقد جهَّز حملاتٍ عبر البحر المتوسط بدافع ديني في المقام الأول، وكذلك لحماية تجارة صقلية الخارجية، ولتأمين المواصلات البحرية بين أوروبا والأراضي المقدسة أثناء الحملات الصليبية. وفي الفترة ما بين 1174م و1178م شنَّ أسطولُه عدةَ غارات على سواحل مصر دون جدوى، بفضل ما كان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد أعدَّه من قوة عسكرية مصرية. وفي عام 1180-1181م أرسل وليام الثاني أسطولاً لمهاجمة الجزائر الشرقية (جزر البليار) التي كانت آنذاك تحت سيطرة بني غانية المرابطين، ولكن الحملة باءت بالفشل، إذ إن الجنويّين حلفاء وليام الثاني عقدوا صلحاً منفرداً مع بني غانية. وأبرم وليام الثاني في هذه الفترة اتفاقيةً مع السلطان الموحدي أبي يوسف، يعقوب المنصور لأسباب تجارية، فضلاً عن عداء الجانبين لبني غانية.

وكان وليام الثاني من بين أول من حمل الصليب من ملوك أوروبا في بداية الحملة الصليبية الثالثة (1189-1191م) التي قامت إثْرَ انتصار السلطان صلاح الدين الأيوبي في معركة حطِّين (583هـ/ 1187م) واستردادِه بيت المقدس من أيدي الصليبيين. ومع أن وليام الثاني لم يشاركْ شخصياً في الحملة الصليبية الثالثة، إلا أن أسطوله لعب دوراً مهماً في العمليات الحربية قرب ميناء اللاذقية. ويعلِّق على ذلك مؤرخ حديث بقوله: «لم يكن البلاط النورماني شديدَ الحماس للفكرة الصليبية، إلا أنه كان دائماً على استعداد لاستغلال ولاء النصارى لهذا الغرض»[1].

---

(1) المرجع السابق، ص 152.

كان وليام ـ كأبيه وجده من قبله ـ ملمّاً بالعربية، كما كان يولي اهتماماً كبيراً للعلوم والمعارف العربية، وبخاصة في مجال الطب والفلك. وقد كانت فترة حكمه فترةَ هدوء وسلام في الداخل. إن أوضاع المسلمين في صقلية في عهد وليام الثاني واضحة بفضل ما تركه لنا الرحالةُ الأندلسيُّ ابن جبيْر في رحلته الشهيرة.

ابن جُبيْر في صقلية (580هـ/ 84-1185م):

مرَّ الرحالة الأندلسي ابن جبير بصقلية في طريق عودته إلى بلاده بحراً بعد تأدية فريضة الحج، وكان ملكها آنذاك وليام/ غليالم الثاني. أمضى ابن جبير في الجزيرة قرابة أربعة شهور، وترك لنا في رحلته انطباعات تُلقي ضوءاً ساطعاً على وضع المسلمين في الجزيرة بعد قرن من انتهاء السيادة الإسلامية عليها. وما ذكره هذا الفقيه والأديب الأندلسي يُعدُّ بحقٍ وثيقةً تاريخيةً صادقة وبالغة الأهمية عن أوضاع المسلمين في الجزيرة لذلك العهد. وقد دوَّن ابنُ جبير انطباعاتِه على شكل يوميّات أورد فيها ما رآه بنفسه وما سمعه من المسلمين الذين اجتمع بهم.

وصلَ ابنُ جبير إلى ميناءِ مَسِّينة قادماً على ظهر مركب جَنوي أقلَّه ورفاقَه الحجاج من عكا بفلسطين. وعن المسلمين في مَسِّينة يقول ابن جبير إنه ليس فيها من المسلمين إلا نفر يسير من ذوي المهن، ولذلك يستوحش بها المسلمُ الغريب[1]. وهو بذلك يؤكد ما هو معروف من أن أعداد المسلمين في الركن الشمالي الشرقي من الجزيرة كانت قليلة، بخلاف الحال في الأجزاء الجنوبية والغربية منها.

ويحدِّثنا ابنُ جبير عن الملك النورماني وليام/ غليالم الثاني فيقول:

---

(1) رحلة ابن جبير، ص 266.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

«وشأن هذا الملك عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الإسلام... وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم. ووزراؤه وحُجَّابه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة، هم أهل الدولة... ومن عجيب شأن المتحدَّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته، على ما أعلَمنا به أحدُ خدمَته المختصين به: الحمدُ لله حَقَّ حمدُه. وكانت علامة أبيه: الحمد لله شكراً لأنعمه»[2].

ويُثني ابن جبير على أولئك الفتيان المسلمين في خدمة الملك لصيامهم وتصدّقهم وافتكاكهم الأسرى من المسلمين. ومع ذلك فإنهم كانوا يكتمون ايمانهم، ويُبدون التحفظ والحذر، من ذلك أن ابن جبير لقي منهم بمسّينة «فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم وكبرائهم... فاحتفل في كرامتنا وبرّنا، وباح لنا بسره المكنون بعد مراقبةٍ منه مجلسَه أزال له كلَّ من كان حوله ممَّن يتهمه من خدامه محافظةً على نفسه... وقال لنا: أنتم مدلُّون بإظهار الإسلام... ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً، مُعتَقلون في مملكة كافر بالله، قد وضع في أعناقنا رِبْقةَ الرق، فغايتُنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج...»[1]. ويضيف ابنُ جبير أن «من عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذاً من مجلسه فيقضون صلاتهم...»[2]. وعلم ابن جبير أنه كانت قد وقعتْ في صقلية زلازل فكان «هذا المُشرك [وليام الثاني] يتطلَّع في قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه،

---

(2) المصدر السابق، ص 267-268.

(1) المصدر السابق، ص 268.

(2) المصدر السابق، ص 269.

وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم: ليذكرْ كلُّ أحدٍ منكم معبودَه ومن يدين به، تسكيناً لهم»[3].

وبعد أن أمضى ابنُ جبير تسعةَ أيام في مسّينة، توجَّه بحراً قاصداً العاصمة بلرمُ التي يقول إن المسلمين يَعْرفونها بالمدينة أو بمدينة صقلية، بينما يعرفها النصارى باسم «بلارمة»، فمرّ بمدينة شفلودي (Cefalu) على ساحل صقلية الشمالي، ولاحظ أن المدينة تسكنها طائفة من المسلمين، ثم مر ببلدة ثِرْمة (Termini) «وللمسلمين فيها ربَضٌ كبير لهم فيه المساجد». ومن ثرمة توجَّه ورفاقه براً إلى بلرم.

أقام ابنُ جبير في العاصمة بلرم أسبوعاً وترك لنا وصفاً حياً شيقاً لأحوال المسلمين فيها: «وللمسلمين بهذه المدينة رسمٌ باقٍ من الإيمان، يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم. ويصلّون الأعيادَ بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي. ولهم بها قاضي يرتفعون إليه في أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه... وأما المساجد فكثيرة لا تحصى، وأكثرها محاضرٌ لمعلمي القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، ولا أمْنَ لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم»[1].

من هذا يتبيَّن أن مسلمي بلرم كانوا يعيشون في حالة فزع مستمر من الاضطهاد والبطش. كما يلاحظ بأن الخطبة في العيديْن تكون الدعوةُ فيها للخليفة العباسي في بغداد، وكان ضعيفاً نائياً في بغداد، وليس للخليفة الموحدي القوي الأقرب إليهم في المغرب، وذلك للعداء المستمر بين

---

(3) المصدر السابق، ص 268.

(1) المصدر السابق، ص 273.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الموحدين والروم سواء في الأندلس أو في صقلية النورمانية.

ويتحدث ابنُ جبير عن الجزية التي فرضها النورمان على مسلمي الجزيرة، فضلاً عن القيود الأخرى، فيقول إنهم «ضربوا عليهم إتاوةً في فصلَيْن من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعةٍ في الأرض كانوا يجدونها»[2].

ومن بلرم قصد ابن جبير ميناء أطرابنش (Trapani) في غرب الجزيرة، وهو الميناء الذي كان يُبحر منه الحجاج والتجار المسلمون المتوجهون إلى الأندلس والمغرب، ومرَّ في الطريق ببلدة علقمة (Alcamo)، ولاحظ أن سكانها وسكانَ الضياع في الطريق كلهم مسلمون، مما يدلُّ على أنه حتى بعد قرن من زوال السيادة الاسلامية على الجزيرة، بقيتْ الأجزاءُ الغربيةُ منها ـ وبخاصة الأرياف ـ مأهولةً بالمسلمين.

طال مقام ابن جبير في اطرابنش مضطراً، وذلك لتعذر الإبحار منها بسبب الأنواء والأحوال الجوية، وقد مكَّنه ذلك ـ لحسن الحظ ـ من المزيد من التعرف على أحوال مسلمي البلدة ومسلمي صقلية عامة، فترك لنا معلوماتٍ بالغةَ الأهمية عن حالة القلق التي كان يشعر بها مسلمو الجزيرة وخوفهم مما يخبِّئه لهم المستقبل: فهو يقول: «وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرَّفْنا ما يؤلم النفوسَ تعرّفُه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عبَّاد الصليب بها، دمَّرهم الله، وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهد الذمة وغلظة الملك... فمنها قصةٌ اتفقتْ في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم [يعني بلرْمُ]... ويُعرف بابن زرعة، ضغطتْه العمالُ بالمطالبة حتى أظهر فراقَ دين الإسلام...»[1]. ثم يحدثنا ابن جبير عن اجتماعه بزعيم مسلمي صقلية القائد أبي القاسم بن حمود، المعروف بابن الحجر، وقد قدم

(2) المصدر السابق، ص 266.

(1) المصدر السابق، ص 279.

اطرابنش أثناء مقام ابن جبير فيها، فيقول: «وكان هذه المدة تحت هجرانٍ من هذا الطاغية [وليام الثاني] ألزمه دارَه بمطالبةٍ توجّهتْ عليه من أعدائه افترَوْا عليه فيها أحاديثَ مزوَّرةً نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين... وتوالتْ عليه مصادرات أغرمتْه نيِّفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنية [نسبة لعبد المؤمن بن علي أول سلاطين الموحدين]... فاتفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه، وأمره بالنفوذ لمهم أشغاله السلطانية، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله. وصدرتْ عنه عند وصوله إلى هذه البلدة [يعني اطرابنش] رغبةٌ في الاجتماع بنا، فاجتمعْنا به، فأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يُبكي العيونَ دماً، ويذيب القلوب ألماً، فمن ذلك أنه قال: كنتُ أودُّ لو أُباع أنا وأهلُ بيتي، فلعلَّ البيعَ يخلِّصنا مما نحن فيه، ويؤدي بنا إلى الحصول في بلاد المسلمين... ومن عِظَمِ هذا الرجل الحمودي في نفوس النصارى ـ أبادهم الله ـ أنهم يزعمون أنه لو تنصَّر لما بقي في الجزيرة مسلمٌ إلا وفعل فعله اتباعاً له واقتداءً به...»[2].

ونتيجةً للضغوط التي كان يتعرَّض لها المسلمون في صقلية، فإن روابط الأُسَر قد تفكَّكت، ولم يعُدْ للأب سلطةٌ على أبنائه، وعن ذلك يحدِّثنا ابن جبير فيقول: «ومن أعظم ما مُني به أهلُ هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوبَ عليه أنفةٌ تؤديه إلى التطارحِ في الكنيسة فيتنصَّر ويتعمَّد، فلا يجد الأبُ للابن سبيلاً، ولا الأم للبنت سبيلاً. فتخيَّلْ حالَ من يُمْنَى بمثل هذا في أهله وولده، ويقطعُ عمرَه متوقعاً لوقوع هذه الفتنة فيهم. فهم الدهر في مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال»[1]. كل ذلك جعل بعيدي النظر من المسلمين في الجزيرة يخشَوْن أن يحلَّ بهم ما حلَّ بمسلمي جزيرة إقريطش (كريت)

---

(2) المصدر السابق، ص 279-280.

(1) المصدر السابق، ص 280.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

بعد استيلاء الروم البيزنطيين عليها من أيدي المسلمين عام 961م «فإنه لم تزلْ بهم المَلكةُ الطاغيةُ من النصارى والاستدراج الشيءَ بعد الشيء حالاً بعد حال حتى اضطُرُّوا إلى التنصُّر عن آخرهم، وفرَّ منهم من قضى الله بنجاته»[2].

مما ذكره ابنُ جبير يستخلص القارئُ أن المسلمين في جزيرة صقلية بعد قرنٍ من زوال السيادة الإسلامية على الجزيرة، كانوا معرَّضين للقيود والاضطهاد: فبعضهم تنصَّر مُكَرهاً ولكنه كان يكتمُ ايمانَه، وصلاة الجمعة كانت محظورةً عليهم، وكان عليهم دفع إتاوة تقابل الجزية التي كان أهل الذمة يدفعونها للمسلمين، وكانت عملية التنصير قائمة وتَلْقى التشجيعَ من جانب الكنيسة، وأخيراً فإن زعماء المسلمين ـ كأبي القاسم بن حمود ـ كانوا دائماً عرضة للاتهام بالتواطؤ مع الموحدين. كان الموحدون آنذاك في أوج قوتهم في المغرب والأندلس، فليس من الغريب أن يتطلَّع مسلمو صقلية إلى عونهم ونجدتهم ـ كما تطلَّع مسلمو الأندلس إلى نجدة المرابطين قبل ذلك بقرن من الزمن ـ وأن ينظر النورمان بالتالي بعين الريبة إلى رعاياهم المسلمين. كل ذلك كان يشجع على الهجرة إلى أرض الإسلام، وهذه الرغبة كثيراً ما عبَّر عنها لابن جبير زعماءُ المسلمين في الجزيرة في أحاديثهم الخاصة معه. وكما يقول مورينو «الحاصل كان التوازن بين اتباع الديانتين عادمَ القرار، رغماً عن مجهودات الحُكَّام، فما كان للمسلمين أن يرضَوْا بالخضوع بعد أن كانوا أسياداً وأن لا يرنوا إلى إعادة الأمور إلى نصابها، خصوصاً وأن راياتِ الموحدين الخفاقةَ في سماء المغرب كانت تُنعشُ عزائمهم»[1].

---

(2) المصدر السابق، ص 280.

(1) مورينو: المسلمون في صقلية، ص 24.

تانكريد (1190-1194م):

لم يخلِّف وليام/ غليالم عَقِباً، فأوصى بأن تخلفه على عرش صقلية عمَّتُه كونستانس ابنةُ رجار الثاني التي كانت متزوجة من الامبراطور الألماني هنري السادس. إلا أن النبلاء الإقطاعيين في صقلية اختلفوا فيما بينهم، وأتى فريق مناهض للألمان منهم في عام 1190م بتانكريد (Tancred) إلى العرش، وكان تانكريد هذا حفيداً غير شرعي لرجار الثاني. وحتى قبل أن يتولى تانكريد المُلك، حدثتْ مذبحة للمسلمين في بلرم عام 1189م. وكان تانكريد شديد التعصب ضد المسلمين، وكان قد قاد عام 1160م غاراتِ استئصالٍ ضدَّهم في بثيرة (Butera) في جنوب شرقي الجزيرة، فليس من الغريب لذلك أن يتشاءموا عند توليه المُلك، بتأييدٍ من أعدائهم، وأن يقوموا بثورة عارمة أشغلته طوال السنة الأولى من حكمه (استمرت هذه الثورة من نهاية عام 1189 إلى اكتوبر عام 1190م). وإذْ تعرَّض مسلمو بلرمُ للمذابح ـ كما حدث لهم من قبل في عام 1160-1161م ـ فرَّ معظمُهم معتصماً بالمناطق الجبلية في وسط الجزيرة وغربيها، حيث احتلوا عدداً من المعاقل المنيعة. وانضم إليهم فيها عبيدُ الأرض المسلمون الكادحون في إقطاعات نبلاء النورمان. وقُدِّر عدد هؤلاء المسلمين الثائرين في غرب الجزيرة بنحو مائة ألف، بما فيهم النساء. «وقد كانت هذه الثورة وقمعها بداية النهاية للوجود الإسلامي في جزيرة صقلية»[2]. وانتهت الآن فترة التعايش جنباً إلى جنب بين الطائفتين. ولعل الأخطار الخارجية المحدقة بتانكريد من ناحية الألمان من جهة، ومن ناحية الموحدين من جهة أخرى، زادت من تعسُّف تانكريد وغلوِّه في سياسته نحو المسلمين تحوُّطاً وكسباً للرأي العام النصراني في الجزيرة وخارجها.

إن وضع المسلمين في صقلية أصبح حرجاً للغاية في فترة الفوضى التي

---

(2) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الاسلامية، ص 72.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

سادت الجزيرة بعد وفاة وليام الثاني (أي بعد خمس سنوات فقط من مرور ابن جبير بالجزيرة) إذ إن أمنهم كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوجود سلطة مركزية قوية، أما الآن وقد ضعُفَتْ سلطة الملك في أواخر الفترة النورمانية، فقد أصبح وضع المسلمين صعباً، لأن طبقة النبلاء الإقطاعيين تحالفتْ مع الكنيسة الكاثوليكية التي رأتْ في تنصير المسلمين عملاً دينياً صالحاً[1]. أما أولئك المسلمون الذين رفضوا التنصُّر، فقد لجأوا إلى الهجرة. وكانت هجرةُ المسلمين من صقلية إلى شمال افريقية والأندلس والمشرق قد بدأتْ في الحقيقة منذ أن وطئتْ أقدامُ النورمان أرض الجزيرة (نزح أشهر شعراء صقلية ابن حمديس عن مسقط رأسه سرقوسة بعد كفاحٍ ضد المغيرين النورمان سنة 471هـ/ 1078م) واستمرّتْ الهجرةُ طوال فترة حكم النورمان للجزيرة. ومن الطبيعي أن هذه الهجرة كانت تزداد في فترة الاضطهاد وعدم الاستقرار كما حدث عام 1153م، وأثناء مذابح عام 1160-1161م، وأصبحت الهجرةُ على نطاق أوسع بسبب المذابح والثورة عام 1189-1190م.

وبعد وفاة تانكريد عام 1194م، خلفه ابنه الصبي وليام الثالث تحت وصاية والدته. وفي هذه الأثناء زحف الامبراطور الألماني هنري السادس جنوباً، واستولى على مملكة صقلية باسم زوجته كونستانس مُنْهياً بذلك الفصلَ النورمانيَّ من تاريخ الجزيرة (1194م).

ولعلَّ من المناسب ختاماً لهذا البحث اقتباسَ ما قاله المؤرخ اللاتيني النورماني المعاصر لتلك الأحداث والمتحمِّسُ لاستقلال الجزيرة أوغو فلقندُه (Hugo Falcandus) عن الفترة العصيبة التي مرَّت بها صقلية بعيد وفاة الملك وليام الثاني. فقد أهاب المؤرخ ـ عبثاً ـ بأهالي صقلية على اختلاف أجناسهم ودياناتهم توحيدَ الكلمة وجمعَ الصفوف لمواجهة الأخطار المحدقة بالجزيرة

---

(1) المرجع السابق، ص 86.

قائلاً: «لـو تَوَّج أهـالي صقلية رجـلاً مُقَرَّاً لـه بالمقـدرة، ولو زال التنـازع بين المسيحيين والعرب، لتمكَّن الملك الذي يختارونه من رد حمـلات الأجانب، ومن إصـلاح أمـر الـدولـة البـاديـة عـلائم انحـلالهـا. ولكنْ بعـد أن سـادت الفوضى، وعاد الناس لا يخافـون سلطة الملك، فقد أصبح ـ وللأسف ـ من المتعسر أن يكف النصارى عن التعـدي على العرب، وأن يكفَّ هؤلاء ـ وهم مسيئـو الظن بهم ونـاقمون ظلمهم ـ عن التمـرد وعن كبس حصنٍ على البحـر تـارةً وقلعةٍ في الجبـال طوراً. فـإذا وقـع ذلـك، فكيف يتمكن الصقليـون من مقـاومـة غـزوات العـرب بيـد (يقصـدُ المـوحِّـدين) ومحـاربـةِ الألمـان... بالأخرى؟»[1].

(1) مورينو، المسلمون في صقلية، ص 24-25.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

السياسة العربية للأمبراطور فردريك الثاني
صاحب صقلية (1198-1250م)

العرب في جزيرة صقلية إلى تولِّي فردريك الثاني المُلْك (827-1198م):

بـدأ افتتاحُ العـرب لجزيـرة صقلية في عهـد ثالث أمـراء الأغالبـة زيادة الله الأول، بحملة قـامت من سوسـة في صيف عـام 827/212م، بقيـادة القـاضي الشهير أسد بن الفرات، وسُرعان ما استـولى العرب على معـظم الجزيـرة من أيدي الروم البيزنطيين، واتخذوا بلرم عاصمـةً لهم. وقد ظلَّت الجـزيرةُ تحت السيـادة العربيـة أكثـرَ من قـرنين ونصف القـرن (212-484-827-1091م). وفي هذه الفترة، بلغت الجزيرة أوجَها الحضاري، كما تميَّزت فترةُ السيادة العـربية بالتسامح الديني، وبالازدهار الزراعي والنشاط التجاري.

وفي منتصف القـرن الخامس الهجـري/ الحادي عشـر الميـلادي، مـرَّت صقلية بفترة من الفتن والمنازعات الداخلية أشبه ما تكون بفترة ملوك الطوائف المعاصرةِ لها في الأندلس، مما أغرى النـورمان في جنـوب ايطاليـا بغزوهـا. على أن استيـلاءَ النورمـان على صقلية لم يكنْ مـع ذلك بـالأمـر الهيِّن، فقـد صمد العديدُ من المعاقل والمدن الإسلامية في صقلية في وجههم نحو ثلاثين عاماً، إلى أن تمَّ للنورمان آخرَ الأمر فرضُ سيادتهم على الجزيرة.

حكَمَ النورمان صقلية قرناً من الزمن (1091-1194م)، ونـظراً لقلة أعدادهم

وكثرة الأعداء من حولهم، فإنهم إجمالاً انتهجوا سياسةَ تسامحٍ في الجزيرة، في فترة كانت فيها الحروبُ الصليبية على أشدِّها. ومع ذلك، فإن ملوكَ النورمان إجمالاً أحسنوا معاملةَ المسلمين في الجزيرة، لاستمالتهم إليهم، كما اعتمدوا عليهم في جيوشهم وأفادوا من مهارة عرب الجزيرة في فنون الحرب، في حرب النورمان المستمرة في جنوب ايطاليا ضد البيزنطيين تارة، وضد الامبراطورية الرومانية المقدسة تارة، وضد قوات الباباوات وحلفائهم تارة أخرى. لذلك فإن النورمان، في بادىء الأمر على الأقل، قاوموا المحاولاتِ التي بذلتْها الكنيسةُ لتنصير المسلمين، وحمَوْهم ما استطاعوا من اضطهاد الإقطاعيين النورمان والمستوطنين الجُددِ من اللمبارد. ولما كان النورمان حديثي عهد بالحضارة، فإنهم اعتمدوا على العرب في الادارة، وفي أعمال البناء والتشييد. وللملك رجار الثاني وتحت رعايته، صنَّف الشريفُ الإدريسي كتابَ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). وظلَّت العُمْلة العربيةُ المعروفةُ بالرُباعي/ الطري (Tari) العُملةَ المتداولةَ في صقلية وجنوب ايطاليا زمناً طويلاً.

ومع أن المسلمين ظلُّوا مخلصين للملوك النورمان، الذين كانوا حماتَهم الوحيدين في جوٍ مشحون بالعداء نحوهم، إلا أنهم دفعوا ثمنَ انتصارِ الموحدين على النورمان في المهدية سنة 555هـ/ 1160م، إذ انتعشت آمالُهم بظهور قوة الموحدين. وعلى الأثر، جُرِّد العربُ في بلرم من السلاح، مما جعلهم تحت رحمة البارونات والوافدين من اللمبارد، لمَّا قام هؤلاء بالثورة على الملك وليام (غليالم) الأول سنة 1161/1160م. وفي تلك الثورة، قُتل العديد من فتيان البلاط وموظفيه المسلمين، كما هلك كثيرٌ من المسلمين في أحياء بلرم وسُلبتْ أموالهم. وكانت أحوالُ المسلمين في الأرياف أسوأ من ذلك، إذ تعرضوا لفتك نبلاء النورمان وأتباعهم.

إن العداءَ للمسلمين من جانب الإقطاعيين النورمان ومن جانب الأعداد

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

المتزايدة من اللمبارد الذين وفدوا من ايطاليا للاستقرار في الجزيرة كان مبعثه التعصبُ الدينيُّ ثم الغَيْرة لِمَا كان للمسلمين من حُظوةٍ ونفوذٍ في البلاط النورماني، ومن نشاط في مجال التجارة.

وقد مرَّ بصقلية في سنة 580هـ/ 4-1185م الرحالةُ الأندلسي ابنُ جبير، وكان الملكُ آنذاك وليام (غليالم) الثاني. ويتبيَّن مما ذكره ابنُ جبير أن المسلمين في الجزيرة كانوا يعيشون في حالة فزعٍ مستمر من الاضطهاد والبطش، وأن «أهلَ النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة إقريطش [كريت] من المسلمين في المدة السالفة»[1]. وكانت طبقةُ المثقفين المسلمين في صقلية ترى أن الحلَّ الوحيدَ لمشاكلها هو الهجرةُ إلى بلاد المسلمين.

نبذة عن سيرة الامبراطور فردريك الثاني وتعلقه بالثقافة العربية الاسلامية

بافتتاح الامبراطور الألماني هنري السادس لصقلية في سنة 1194م، انتهت الحِقبةُ النورمانية في تاريخ الجزيرة. وفي سنة 1198م، تمَّ في بلرم تتويجُ أرملة هنري السادس الملكة كونستانس وارثةِ عرش صقلية وابنهما فردريك الذي كان يناهز السنةَ الثالثةَ من العمر. وبعد وفاة الملكة في أواخر ذلك العامُ تولَّى البابا إنوسنت الثالث الوصايةَ على فردريك. وقد تأثر فردريك في مرحلة طفولته وصباهُ بعضَ الشيء باللغة العربية والثقافة الاسلامية. واستمرت الفوضى والحربُ الأهلية في صقلية أثناء فترة طفولة فردريك. وكان الحزبان الرئيسيان هما الحزبُ الألماني والحزبُ النورماني الصقلِّي. وكان الحزبُ الألماني يلقى مساندةَ مسلمي صقلية، وأما الحزب النورماني الذي كان يمثِّل الإقطاعيين فكان يسانده البابا. وفي تلك المرحلة من العمر، كانت حياة الصبي فردريك حياةَ فاقةٍ وفقر، إلا أنه أبدى منذ حداثة سنِّه تفتحاً واهتماماً

(1) ابن جبير، محمد: رحلة ابن جبير، بيروت 1968، ص 280.

بالمسائل الفكرية، ويُعزَى ذلك إلى احتكاكه بمسلمي بلرم.

وبعد أن تُوِّج فردريك امبراطوراً على رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة، قَطَع على نفسه عهداً بالمشاركة في حملة صليبية، وهو وعدٌ قطَعه مرضاةً للبابا الذي كان يلحُّ على ضرورة الاستعجال بالحملة، بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة في مصر. واعتذر فردريك بادىء الأمر بانشغاله في قمع ثورة العرب في غرب صقلية. وكان عربُ صقلية، بعد كل ما عانَوْه من اضطهادٍ وفقدانٍ للممتلكات، يَروْن أن خضوعهم لفردريك لن يجلب لهم سوى المزيد من الفقر والتَبعيةِ الاقطاعية، ولذلك فإنهم واصلوا ثورتَهم بزعامة محمد بن عباد العبسي، لعدة سنوات. ولما قضى فردريك على حركة الثائرين بكل عنف سنة 1225م، عمد إلى ترحيل مسلمي صقلية وإسكانهم في مستوطنة لوشيرة (Lucera) بجنوب ايطاليا.

وفي سنة 1225م، تزوَّج فردريك من يولندة وارثةِ المملكة اللاتينية ببيت المقدس، واتخذ لنفسه لقبَ (ملكِ بيت المقدس) بالاضافة إلى ألقابه الامبراطورية. وفي سنة 1226م، وصل إلى بلاد فردريك الأمير فخرُ الدين ابن الشيخ مبعوثاً من قِبل سلطانِ مصرَ الأيوبي الكامل، للاستعانة بالامبراطور ضد أخيه المعظَّم سلطان دمشق. وقد نجحت المفاوضاتُ في الحصول على موافقة السلطان الكامل على التنازل عن بيت المقدس للامبراطور، إذا أمكن انتزاعُها من يد سلطان دمشق.

وفي هذه الأثناء، كان البابا قد أصدر قرارَ الحرمان (excommunication ضد فردريك، بحجة مماطلته في البِرِّ بوعده بالقيام بحملة صليبية إلى فلسطين. وأخيراً قرر فردريك الشروعَ في حملته الصليبية، يحدوه في ذلك هدفٌ سياسيٌ في المقام الأول، وهو أن يحظى بالاحترام والهيبة في العالم المسيحي، بالرغم من صدور قرار البابا بحرمانه. وقد نجحت الحملةُ في أهدافها دون حرب أو إراقة دماء، وهو ما فشلت الحملاتُ التي سبقتْها في

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

تحقيقه. فبعد مفاوضات دبلوماسية، تنازل السلطان الكامل للامبراطور فردريك عن بيت المقدس والناصرة، مع بقاء المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرَّفة في بيت المقدس في أيدي المسلمين (1229م).

وفي سنة 1231م، عقد فردريك الثاني اتفاقيةً مع السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى نصَّتْ على أن يحكمَ جزيرةَ قَوْصرة (Pantellaria) والٍ مسلمٌ من صقلية يسمِّيه الامبراطور. «وفي حين أن السياسةَ الداخليةَ لفردريك المتفتح ظلَّتْ قائمةً على الكبت والقمع تجاهَ المسلمين في صقلية، فإنَّه ظلَّ يتبادل السفاراتِ الثقافيةَ مع السلاطين المسلمين، في منطقة البحر المتوسط»[2].

وفي سنة 1244م، استردَّ المسلمون بيتَ المقدس. وعرضَ فردريك الثاني أن يقودَ حملةً صليبيةً أخرى، إلا أن مجمعَ ليون الكنَسي رفضَ هذا الاقتراح. ولقد اتُّهم فردريك من قِبَل معاصريه النصارى بمعاشرة المسلمين أكثرَ من معاشرته النصارى، وهي تهمة غير صحيحة، إذ كان فردريك مولعاً ببحث الأمور الفكرية والدينية ويفضِّل بحثَها «مع علماء المسلمين، لأنه اعتبرهم أكثرَ علماً واطلاعاً من غيرهم»[3].

إن السببَ الحقيقيَّ للنزاع بين فردريك الثاني والباباوات كان على السلطة: ففردريك لم يكنْ على استعداد لقبول ادعاء الباباوات بالاستئثار بالسلطتيْن الدينيةِ والدنيوية، كما أن الباباواتِ كانوا يعارضون بشدة توحيدَ صقلية مع المانيا، لِمَا قد يترتَّبُ على ذلك من تهديد للممتلكات الباباوية في وسط ايطاليا. هذا ولم يُبْدِ الباباواتُ أيةَ معارضةٍ للعلاقات التجارية الوثيقة آنذاك بين المدن الايطالية كالبندقية وجنوة وبيزا، وبين سلاطين مصرَ وتونس،

---

(2) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الاسلامية، تعريب وتعليق أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس 1980، ص 98.

(3) Smith, D.M., *Medieval Sicily*, London 1969, p. 61.

في حين أنهم وجَّهوا مختلفَ التُهَمِ إلى فردريك لاحتفاظه بمثل هذه العلاقات.

إن فردريك الثاني كان يؤْثر صقلية على باقي ممتلكاته، وكان يستهدفُ أن يكون حكمُه للجزيرة حكماً أوتوقراطياً. لذلك، فإنه طوال حكمه، عمل جاهداً للحدِّ من سلطات الإقطاعيين من نبلاء النورمان، ومن سلطات الكنيسة ورجال الدين في صقلية، كما أنه قمعَ بكل عنفٍ ثوراتِ المسلمين المتواصلةَ في الجزيرة.

إن الحضارةَ العربيةَ في صقلية كان لها كلُّ الأثر على اهتمام فردريك الثاني منذ حداثة سنِّه بالعلوم، وعلى نزعته المتفتحة، وحبه للاستطلاع والتقصِّي. وكما يقول هاسكينز (Haskins) فإنه «لم يحدُثْ في أي مكانٍ آخر، أنْ قامت الحضاراتُ العربيةُ واليونانيةُ واللاتينيةُ جنباً إلى جنب في سلمٍ وتسامح» كما كان الحالُ في صقلية[4]. وكان البلاطُ النورمانيُّ في بلرم الوارثَ المباشرَ للحضارة العربية في صقلية[5]. وقد كان التأثيرُ العربيُّ في بلاط فردريك أقوى من التأثير اليوناني، وازداد التأثيرُ العربيُّ إثْرَ زيارته إلى المشرق، ونموِّ العلاقات مع سلاطين المسلمين. وكانت مكتبةُ فردريك تزخرُ بالكتب العربية، كما كان على اتصالٍ شخصي أو بالمكاتبة بالعلماءِ العرب المبرِّزين في العلوم العربية الاسلامية. ومن هؤلاء العلماء عَلَمُ الدين الحنفي ـ علم الدين قيصر الأسفوني المعروف بتعاسيف ـ وهو رياضي مرموق أوفده السلطانُ الكامل إلى بلاط فردريك. وكان فردريك قد وجَّه إلى السلطان الكامل خطاباً تضمَّن سبعةَ أسئلةٍ تناولتْ ثلاثةٌ منها علمَ البصريات أو المناظر (Optics).

وكان فردريك يولي اهتماماً خاصاً بالرياضيات، والطب، والفلسفة، وعلم

(4) Haskins, C.H., *The Normans in European History*, U.S.A. 1966, p. 235.

(5) نفسه، ص 238.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الفلك، والتاريخ الطبيعي. وحظي الايطالي ليناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci)، وكان من أبرز علماء الرياضيات، برعاية فردريك، وإلى هذا العالم، الذي دَرَس في الأندلس وبجاية والمشرق، يعود الفضلُ في إدخال الأرقام العربية وعلم الجبر العربي إلى أوروبا. وأصبح بلاط فردريك، مع جامعتيْ أكسفورد وباريس، أحدَ المراكز الرئيسية لدراسة العلوم الرياضية في أوروبا اللاتينية[6]. ويصف المقريزي فريدريك بأنه «كان متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات»[7].

وكان يُكثر من الاستحمام، حتى إن خصومَه نَدَّدوا به لذلك، وبخاصة لاستحمامه أيام الأحد. إن عادةَ الاستحمام أخذها فردريك عن العرب، وكانت بلرم كثيرةَ الحمامات العامة. إن حرصَ فردريك على صحته جعله يولي عنايةً خاصةً للجراحة والطب. وهو الذي أحيى مدرسةَ الطب العريقةَ في سالرنُه، وأنشأ فيها أولَ قسمٍ للتشريح في أوروبا. كما أسَّس جامعةَ نابولي في سنة 1224م، وأودع فيها مجموعةً من المخطوطات العربية، واستُعملتْ في مناهج التدريس فيها مؤلفاتُ ارسطوطاليس وابنِ رشد التي أمر فردريك بترجمتها من العربية، كما أرسلت نسخٌ منها إلى جامعتيْ باريس وبولونية بشمالي ايطاليا[8].

وكان لفردريك اهتمامٌ شخصيٌ كبيرٌ بالفلسفة العربية. وقد ترجم له مايكل سكوت العديدَ من شروح ابن رشد وتعليقاته على مؤلفات ارسطو، كما ترجم له أجزاء من مؤلفات ابن سينا. وإلى مايكل سكوت يرجع الفضلُ في المقام الأول في تعريف الغرب بمؤلفات ابن رشد[9].

---

(6) Smith, pp. 61-62.

(7) أماري، م: المكتبة العربية الصقلية، ليبسك 1857، ص 522.

(8) Hitti, P.K., *History of the Arabs,* London 1943, p. 612.

(9) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الاسلامية، ص 104.

وقام فيلسوف عربي صقليٌ هو ابن الجوزي بمرافقة فردريك في حملته إلى فلسطين، وألقى عليه دروساً في علميْ الكلام والمنطق[10].

وكان فردريك قد وجَّه مجموعةً من الأسئلة الفلسفية تُعرف بالمسائل الصقلِّية إلى مصرَ والشام دون الحصول على إجابات مُقنعة عليها، ثم أرسل بها إلى السلطان الموحدي الرشيد الذي أحالها على الفيلسوف والصوفي الأندلسي عبدِ الحق بن سبَعْين، وكان مقيماً في سبتة، فكتب ابنُ سبعين رسالَته الشهيرة (الأجوبة عن المسائل الصقلِّية) رداً على أسئلة الامبراطور. وكانت الأسئلة تدور حول مواضيعَ فلسفيةٍ وفقهيةٍ منها الاستفسارُ عن قول أرسطو بأزليَّة العالَم، وعن خلودِ الروح بعد الموت، كما استفسر فردريك في أحد الأسئلة عن معنى الحديث الشريف القائل بأن قلبَ المؤمن بين إصبعيْن من أصابع الرحمان[11].

إن إهتمام فردريك بالتاريخ الطبيعي جعله يحرصُ على تربية الحيوانات والطيور الغريبة. فقد هجَّن الخيولَ المحليةَ بخيولٍ عربية، وكانت حديقةُ حيواناته تضمُّ الإبلَ، وزرافةً وفيلاً أهداهما إليه سلطانُ مصر الكامل. أما الرياضة المحبَّبة إليه فكانت الصيدَ بَالبيزان. وقد وضع له مدرِّب صقوره (مؤمن؟ Maomin) كتاباً في هذا الموضوع، تُرجم إلى اللغة اللاتينية، وكان مصدراً اعتمد عليه فردريك في رسالته التي وضعها عن الصيد بالبيزان (De arte venandi cum avibus)[12]. وأخذ فردريك عن العرب استعمالَ غطاءِ الرأس للصقور أثناءَ حملته إلى فلسطين. وحرصاً منه على الاستفادة من منهج العرب التجريبي، فإنه اصطحب معه من بلاد الشام خبراءَ أخذَ يراقبهم وهم يدرِّبون البيزان، ويحاول التأكد من أن البيزان تستطيع، بعد ستر عيونها،

---

(10) مورينو، مارتينو ماريو: المسلمون في صقلية، ص 26.

(11) أحمد، عزيز: ص 104-105.

(12) نفسه، ص 106.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الاهتداءَ إلى الطعام بحاسةِ الشم[13]. كما أنه في أثناء حملته الصليبية، حاول أن يعرف من العلماء العرب السببَ في كون الأجسام المغطَّسة جزئياً في الماء تبدو للناظر منحنيةً[14].

إن الكتبَ النادرةَ والأدواتِ العلميةَ كانت الهدايا التي يرحِّب بها فردريك كلَّ الترحيب، وكانت الهديةُ الأثيرةُ لديه تلك التي بعثَ بها إليه سلطانُ دمشق الأشرف، وهي عبارة عن جهازٍ في خيمة يمثِّل حركاتِ الكواكب (planetarium)، كانت تتحرك فيه الأجرامُ المصنوعةُ من الفضة في مداراتها بفعل آلةٍ خفيَّة[15].

السياسة العربية لفردريك الثاني

أ ـ تجاه عرب جزيرة صقلّية

في فترة الفوضى التي تلتْ وفاةَ الامبراطور هنري السادس سنة 1197م، وقعت حوادث شغَبٍ ضد المسلمين كتلك التي وقعت في سنة 1161م وسنة 1189، مما اضطرهم إلى الثورة، ولمدة طويلة هذه المرة، إلى سنة 1225م. إن هذه الثورةَ جاءت نتيجةً لسوء أحوالهم الاقتصادية، وما كانوا يتعرضون له من اضطهاد وأخطار من جانب أعدائهم من البارونات والإقطاعيين النصارى في الجزيرة. كما أن ضريبةَ العشر (tithe) ـ عُشرِ الغلَّات ـ التي نادى بها البابا انوسنت الثالث لتجهيز الحملات الصليبية أحدثتْ بالخصوص استياءً كبيراً بين المسلمين في صقلية، وكانوا يتابعون باهتمامٍ أخبارَ الحروب الصليبية في المشرق. ولا بد أيضاً أن روحهم المعنوية ارتفعت وانتعشتْ

---

(13) Hitti, p. 610.

(14) Smith, p. 61.

(15) نفس المرجع السابق والصفحة.
أحمد، عزيز: ص 98.

آمالُهم في هذه الآونة للإنتصارات التي أحرزها الموحدون في الأندلس في عهد السلطان أبي يعقوب المنصور، وانتصار السلطان صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين واسترداده بيت المقدس من أيدي الصليبيين (583هـ/ 1187م).

وفي الظروف المضطربة التي تلتْ موت هنري السادس، جابتْ جماعاتٌ من المسلمين انحاءَ الجزيرة الوسطى والغربية، لاسترداد ممتلكاتها المغتصبة، وتمكَّنتْ من الاستيلاء على عدد من المعاقل والضياع. كما استولى الثائرون على جرجنت على ساحل الجزيرة الجنوبي، لحاجتهم لميناء للاحتفاظ بمواصلاتهم مع افريقية، ووقع أسقف المدينة في الأسر لمدة عام. كما أن رئيسَ دَيْرِ مونريال قُرْبَ بلرم فقدَ السيطرةَ على جانب كبير من ممتلكات دَيْرِه، وهاجمت جماعةٌ من الثائرين مستشفىً للبُرْص في ظاهر بلرم ذاتها.

وقد استمرت الاضطراباتُ في صقلية طيلةَ فترة طفولة فردريك وصباه، وكان من الطبيعي أن ينحاز العربُ إلى الحزب الألماني المناصر للامبراطور أتو الرابع ضد الحزب النورماني الصقلّي والكنيسة وكانا يناصران فردريك. إلا أن مجلسَ الأمراء في ألمانيا قرَّر في سنة 1211م عزلَ أتو، وانتخبَ المجلسُ فردريك امبراطوراً بدلاً منه.

وكان على فردريك أن يبارحَ صقلية سنة 1212م، ولم يعُدْ إلا سنة 1220م بعد أن تُوِّج امبراطوراً على رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة. ولدى عودته، بادر إلى شنِّ حرب واسعة النطاق للسيطرة على «منطقة الحرام» في داخل الجزيرة، وكان يُشار إليها أحياناً باسم «ثغر المسلمين» (March of the Saracans)[16].

---

(16) Smith, p. 52.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

وقد قُدِّر عددُ الثائرين في سنة 1220م بما يتراوح بين خمسة وعشرين ألف وثلاثين ألفَ رجل. ونظراً لانصراف فردريك إلى قمع ثورة المسلمين، التي كان قد مضى عليها قرابةُ عشرين عاماً، فإنه حصل في سنة 1222م على موافقة الباب، بإرجاء الحملة الصليبية التي كان قد وعد بالقيام بها، إلى أن يفرغ من معالجة أمر الثائرين العرب في صقلية.

وكان على رأس الثائرين العرب رجلٌ تُشير إليه المصادرُ المسيحيةُ باسم Mirabetto/ Morabit، وتبيَّن الآن من المصادر العربية أنه محمدُ بنُ عبادٍ العبسي، الذي كان بمثابة سلطانٍ مستقل في الجزيرة. وفي كتاب (الروض المعطار (للحميري نصٌّ قيِّمٌ عن امتناع محمد بن عباد في قلعة إنطالَّة (Rocca d'Entella)، إلى الغرب قليلاً من قرلّيون (Corleone)، إلى الجنوب الغربي من بلرم، على رأس ثورة عرب صقلية. «فلما كانت سنةُ ستَ عشرة وستمائة [1220م]، عقد الصلحَ مع الانبرور. . . على أن يأخذَ [ابنُ عباد] جميعَ أمواله وذخائره، ويجهِّزَه في قطائعَ إلى ساحل افريقية، ولا يقتله، وأبتْ ابنتُه أن تدخلَ في هذا الصلح، وامتنعتْ في هذه القلعة. . .». وفي الطريق إلى افريقية، قال الموكَّلون بابن عباد له «الذي صنعتَ في هذه الجزيرة مثلُه لا يُنسَى» وبادروا إلى إغراقه، وعادوا بجميع أمواله إلى الانبرور. ولما علمت ابنتُه بما حدث لأبيها، امتنعتْ في معقل إنطالَّة، وواصلت شنَّ الغاراتِ منه. ثم لجأتْ إلى حيلةٍ بارعةٍ أوقعتْ فيها بثلاثمائةٍ من أبطال فردريك، وصمدتْ ببطولةٍ في الحصن مما اضطر فردريك إلى أن يبنيَ حصناً قبالَته واصل رجالُه منه التضييقَ على حصن إنطالَّة. ويبدو أنها صمدتْ فيه نحواً من عامَيْن بعد مقتل والدها، ولجأت آخرَ الأمر إلى تناول السُمِّ مؤْثرةً الموتَ على الاستسلام (1222/619م)[17]. ويبدو أن محمدَ بن عبادٍ

(17) الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار، بيروت 1975، ص 40-41.

العبسي كان قد وفد إلى صقلّية من جزيرة شَريك (شبه جزيرة رأس بون) بافريقية، التي تُنسب إلى شَريكٍ العبسي الذي كان عاملاً عليها[18].

وفي الفترة ما بين عامَيْ 1222م و 1224م، لجأ فردريك إلى تدابيرَ عسكريةٍ عنيفةٍ ضد الثائرين المسلمين، منها إحراقُ المحاصيل كليةً لإجاعة الثائرين وإهلاكهم أو حملهم على الاستسلام. وفي كتابٍ لفردريك عام 1223م، يقول إنه تمكّن أخيراً من استنزال عرب صقلية من «قمم الجبال والمعاقل المنيعة» إلى البسائط إثرَ حملةٍ مُضْنية[19]. ولعلَّ الهزيمةَ الكبرى التي لحقتْ بالموحدين في وقعة العِقاب (Les Navas de Tolosa) سنة 1213/609م، وما تلاها من انهيار لسلطانهم في المغرب، كان أحدَ العوامل التي فتّتْ في عضدِ المقاومة العربية في صقلية، وأفقدتْها الأملَ في الظفر بتلقّي العون منهم.

وبعد أن قضى فردريك على ثورة العرب في صقلية، اتخذ الخطوةَ الحاسمةَ والمصيريةَ لتصفية الوجود الاسلامي في الجزيرة، بانتهاج سياسة ترحيلهم منها جملةً وإسكانهم في لوشيرة/ لوجارة (Lucera) بمقاطعة بولية (Apulia) إلى الشمال الشرقي من نابولي سنة 1225م.

وكما تقدَّم، فإن فردريك كان يريد لحكمه لجزيرة صقلية أن يكونَ أُتوقراطياً مطلقاً، ولذلك فإنه بعد عودته من المانيا أمر بتدمير كافة القلاع الخاصة التي كان الاقطاعيون قد شيَّدوها منذ سنة 1189م، كما حدَّ من سلطات النبلاء ورجال الكنيسة في صقلية، وأخضع المدنَ لسلطانه المباشر. كما أنه اعتمدَ سياسةَ الترحيل في معالجة كافة الثائرين، كما فعل بالنسبة لمدينة شنتوريبي (Centuripe) التي دمَّرها بعد ثورة سكانها، وأمر بترحيلهم إلى مدينة جديدة سمَّاها أُوجستة (Augusta)، إذ كان يرى أن العصيانَ إثمٌ

---

(18) نفسه، ص 165.

(19) Daniel, N., *The Arabs and Mediaeval Europe,* Beirut 1975, p. 154.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

يستحق أقصى العقوبات[20]. وأعاد إسكانَ جزيرة مالطة، وجلبَ جماعاتٍ من اليونان واللمبارد للاستيطان في الجهات قليلة السكان من صقلية، كما أزال قرىً عقاباً لأهلها، وبنى أخرى. إلا أن أقسى إجراءاته إطلاقاً ما قام به من اجتثاث عدة آلاف من المسلمين من صقلية، وترحيلِهم إلى البر الايطالي، حيث أسكنهم في مستوطنةٍ عسكريةٍ قرب فوجيا (Foggia)[21].

ولما كان مسلمو صقلية قد تلقَّوْا مساعداتٍ من إخوانهم في افريقية، فإن أسطول فردريك عاث بجزيرة جربة، ونقل الكثيرين من سكانها إلى لوشيرة. كما أقام مستوطنتيْن أصغرَ من لوشيرة في ايطاليا أسكنهما المسلمين، وهما نصيرة (Nocera) وجيروفالكو (Girofalco)[22].

وبعد القضاء على ثورة المسلمين سنة 1225م، وترحيلِ معظمهم إلى لوشيرة، بقي في صقلية بعضُ المسلمين يعانون الفقر والشقاء، وكان بعضُهم رعاةً لقطعان أغنام فردريك نفسه. إلا أنهم كانوا مضطَّهدين، مما يفسِّر قيامَهم بثورة أخرى عام 1243م، استمرت ثلاثَ سنوات، ولما أُجبروا على الاستسلام، رُحِّل الباقون منهم على قيد الحياة للالتحاق «بفيلق أنكشارية» فردريك في لوشيرة. ولا شك في أن النزرَ الباقيَ منهم ظلَّ يحيا حياة أهل الكهوف في دواخل الجزيرة النائية[23]. وتفيد الحولياتُ الصقلِّية (Annales Siculi) أنه في سنة 1245م «قام الكونت رتشارد صاحبُ كاسينتا (Casenta)، بأمرِ الامبراطور، بطرد كافة العرب من صقلية» وبعثَ بهم إلى لوشيرة[24]. «وإنه لمن سخرية التاريخ أن يتمَّ ذلك على يد امبراطور كان شديدَ الاعجاب

---

(20) Smith, pp. 53, 55.

(21) نفسه، ص 58, 59.

(22) أحمد، عزيز: ص 96.

(23) Smith, p. 59.

(24) Daniel, p. 154.

بالثقافة العربية الإسلامية الفكرية والمادية»[25].

بقي المسلمون في لوشيرة حتى نهايةِ القرن الثالثَ عشر في عزلةٍ وانقطاعٍ شبهِ تامَّيْن عن إخوانهم في العالم الاسلامي. وقد مارسَ بعضُهم الزراعةَ كسباً لقوته، ثم لم يلبثْ أن أخذ فردريك في تجنيدهم في قواته، وقد رافقتْه في حملته الصليبية (8-1229م) فرقةٌ من مسلمي لوشيرة. وعمل المسلمون من لوشيرة رماةً في جيشه، وزوَّده صُنَّاعهم بأسلحةٍ وسهامٍ مسمومة من صنعهم، ليستعملها جنودُه في حروبهم في البلاد المسيحية[26]. وبفضل نشاط عمال الفولاذ والنسيج العرب في لوشيرة، ازدهرت المدينةُ ونعمتْ بالرخاء. وأبدى هؤلاء النازحون ولاءً ثابتاً للملك فردريك، الذي كان كثيراً ما يزور المدينةَ ويسرُّه أن يحيا حياةَ رعاياه الشرقيين. وقد حماهم فردريك لنشاطهم الصناعي والتجاري، ولكونهم محاربين بواسل، كانوا دوْماً على استعدادٍ لخوض غمار حروبه في ايطاليا، دون أي اكتراث لقرار الحرمان الذي أصدره البابا ضده، كما أن أسلحتَهم كانت رادعاً للارستقراطية النورمانية التي تحالفتْ مع الباباوات لتقويض السلطة المركزية والاستبداد المطلق اللذيْن سعى فردريك لإقامتهما في صقلية[27]. وقد قاوم فردريك كلَّ الضغوط الصادرةِ عن الكنيسة لتنصير مسلمي لوشيرة عَنْوةً. وكانت لوشيرة أشبهَ ما تكون بجزيرة صغيرة ذات هوية عربية وسطَ بحرٍ من المؤثرات والضغوط الايطالية[28]. ويرى مؤرخ معاصر أنَّ سياسةَ فردريك تُجاهَ عربِ صقلية، كسياسة أسلافه النورمان، كانت قائمةً على الانتهازية، فهو «الذي قضى على عرب صقلية، ثم أجلاهم عن وطنهم لاستغلالهم في حروبه الخاصة،

---

(25) أحمد، عزيز: ص 99.

(26) نفسه، ص 121.

(27) Tout, T.F., *The Empire and the Papacy*, London 1946, p. 361.

(28) أحمد، عزيز: ص 121.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

ووطَّنهم في بيئة أجنبية في جنوب ايطاليا، حيث لم يكن أمامهم للاحتفاظ بسلامتهم سوى الاعتمادِ على فردريك، الذي أصبح في وضع يمكِّنه من استعمالهم، أرادوا أم أبَوْا، كجنودٍ مرتزقة. ثم إنه كلما زاد عداءُ الكنيسة لهم، كلما ازدادوا اتكالاً واعتماداً على الامبراطور»[29].

ويتحدث الحميري عن مسلمي لوشيرة فيقول إنهم كانوا لفردريك «جنداً وعُدةً لأعدائه يجدُ نفعَهم، فنقلَهم إلى هذه المدينة تحوطاً عليهم لحاجته إليهم، وتخوفاً منهم إذ كانوا أعداداً جمَّة، فعمَّروها ومدَّنوها... وكانوا أنجاداً. وطال مُقامُهم بها أعصاراً»[30]. وينقل المؤرخُ المشرقيُّ أبو الفداء عن ابن واصل الذي زار منفريد، الذي ورث عرشَ أبيه، موفداً من قِبَل السلطان الظاهر بيبرس، قولَه عن لوشيرة إنه «تقام فيها الجمعة، ويُعلَنُ بشعار الاسلام... ووجدتُ أكبرَ أصحاب الامبراطور منفريد مسلمين، ويُعلنُ بالأذان والصلاة في معسكره»[31].

وحتى بعد زوال حكم أسرة هوهانشتاوفن الألمانية، وقيام حكم أسرة أنجفين الفرنسية، ظلَّت لوشيرة تحتفظ بشيء من ثقافتها العربية. بَيْدَ أن سياسةَ ملوك أسرة انجفين الموالية للبابا كانت تستهدفُ تنصيرَ مسلمي لوشيرة باللجوء إلى الاقناع وشيءٍ من الضغط، ثم باللجوء إلى الإكراه آخر الأمر. وقُضي آخر الأمر على مستوطنة لوشيرة العربية، بأمرٍ من شارل الثاني صاحب أنجو في شهر اغسطس سنة 1300م، وانتهى بذلك تماماً الوجودُ الاسلاميُّ في صقلية وايطاليا[32].

ولعلَّ من المناسب أن نورد النتائجَ التي تمخَّضت عن قيام فردريك الثاني

---

(29) Daniel, pp. 153-4.

(30) الحميري، ص 514.

(31) اماري، ص 421.

(32) أحمد، عزيز: ص 122.

بترحيل العرب عن جزيرة صقلية، كما بيَّنها أحد كبارِ الباحثين المعاصرين في تاريخ صقلية. إن الحملاتِ المتواليةَ التي جرَّدها فردريك ضدَّ الثائرين العرب في صقلية لا بد وأنها ألحقتْ أضراراً كبيرةً في اقتصاد الجزيرة. فمع أن هذه الحملات أدَّتْ إلى قيام مجتمعٍ أكثرَ تجانساً في الجزيرة، إلا أنها قضتْ على طبقة من صغار التجار، وعلى عنصرٍ في الزراعة كان من المستحيل استبدالُه. ولعلَّ إنتاجَ القمح لم يستردَّ مكانَته الأولى في الجزيرة، منذ ذلك الحين. ويكاد يكون من المؤكد أن معظمَ أهل الحِرَفِ والصناعات كانوا من المسلمين. وكذلك كان أصحابُ المصانع، وعلى ذلك، فإن رحيلهم يفسِّر التدنِّيَ الذي لحق بصناعتيْ المنسوجاتِ الحريريةِ والسكَّر. إلا أنه كان لهذه الحملات آثارٌ ضارةٌ أخرى. فإن إحراق المحاصيل كان دائماً أكثرَ الطرق فعاليةً ضد الثائرين، ومن السهل أن يؤدي إلى حرائقَ كبيرةٍ في الغابات. وفيما بين عاميْ 1160 و1246م، كان من نتيجة هجرة وقتل هؤلاء المسلمين أن تُركتْ مساحاتٌ واسعةٌ بوراً وشاغرة، وقد قُدِّر أن نصفَ القرى التي كانت قائمةً في أوائل القرون الوسطى زالت من الوجود فيما بعد، ولا بد أن كثيراً منها اختفى لهذا السبب بالذات. فمن مجموع خمسين ضيعة كان يمتلكها ديرُ مونريال في منطقةٍ سكانُها من المسلمين على مقربة من بلرم، لم يبقَ اليوم سوى نحوِ اثنتيْ عشرةَ ضيعة، وكلُّها تقريباً تحمل أسماءَ تختلف عن أسمائها الأصلية، مما يُشير إلى أنها مستوطناتٌ استُحدثتْ فيما بعد. وأن الدلائلَ من شواهد القبور وأسماء الأُسَر تؤكِّد أنه بحلول القرنِ الثالثَ عشر كان من نتيجة طرد السكان العرب أو اندماجهم القضاءُ على شعبٍ كان إلى عهد قريب قبل ذلك يشكِّل أكثريةَ السكان في الجزيرة[33].

(33) Smith, pp. 59-60.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

ب ـ تجاهَ سلاطين المسلمين

بالرغم من المعاملةِ القاسيةِ التي عامل بها فردريك رعاياه المسلمين في صقلية بإبعادهم جُملةً عن موطنهم في الجزيرة، وإسكانهم في لوشيرة في جنوب ايطاليا، إلا أنه مع ذلك احتفظ بعلاقاتٍ طيبةٍ بل وديةٍ مع سلاطين المسلمين في المشرق والمغرب، شملتْ الميادينَ السياسيةَ والثقافيةَ وتبادلَ الهدايا والتبادلَ التجاري، مما جلب ضده سخط البابا ورجالِ الدين. ففي سنة 1226م، وصل إلى بلاطه الأمير فخر الدين بن الشيخ موفداً من قِبَل الكامل، سلطان مصر الأيوبي، للاستعانة به على أخيه المعظَّم وحليفِ الأخير جلال الدين الخوارزمي. وقد طال مقامُ المبعوث الأيوبي في صقلية، وأنعم عليه فردريك برتبة فارس. وأوفد فردريك سفارةً رداً على السفارة الأيوبية، على رأسها رئيسُ أساقفة بلرم، ومعها هدايا ثمينةٌ إلى السلطان الكامل. وقد نجحتْ هذه السفارةُ في الحصول على موافقة السلطان الكامل على التنازل للامبراطور عن بيت المقدس، إذا أمكن انتزاعُ المدينة المقدَّسة من يد سلطان دمشق المعظَّم، أخي السلطان الكامل[34]. إلا أن صاحب كتاب (جامع التواريخ) يقول إن الكاملَ كان قد أرسل الأميرَ فخرَ الدين بنَ الشيخ إلى فردريك طالباً منه «القدومَ إلى عكا، ووعده أن يُعطيَه الفتوحَ الصلاحيةَ بالساحل»[35]. ولدى وصول فردريك إلى عكا في خريف عام 1228م، أوفد مبعوثَيْن عنه إلى السلطان الكامل يحملان هدايا ثمينةً ورسالةً إلى السلطان، يدعوه فيها إلى البرِّ بوعده بتسليم بيت المقدس. كان الكامل قد استولى على المدينة قبيْل وصول فردريك إلى فلسطين. وأُرسل فخرُ الدين بن الشيخ مرةً ثانية في سفارة من قِبَل الكامل، الذي رفض باديءَ الأمر تسليمَ بيتِ

(34) أحمد، عزيز: ص 96, 97.

(35) اماري، ص 510.

المقدس، بحجةِ أن عملاً كهذا من شأنه أن يجلبَ سخطَ المسلمين ونقمتَهم عليه. وكان السلطانُ الكاملُ على علمٍ بقرار الحرمان الذي كان البابا قد أصدره ضد فردريك، مما أدى إلى ظهور انشقاقٍ في معسكره. كما أن اضطراباتٍ قد حدثتْ في ممتلكات الامبراطور في جنوب ايطاليا. وكانت المراكبُ التي تنقل المؤنَ إليه قد تحطَّمتْ في البحر، مما عرَّض جيشَه للموت جوعاً. كما أن السلطانَ الكامل أيضاً كانت تواجهه مشاكلُ خطيرة، وكان في حاجةٍ إلى محالفةِ الامبراطور، فقبِلَ المقترحاتِ التي أتى بها مبعوثا الامبراطور في زيارتهما الثانية له، وتنازل عن بيت المقدس والناصرة وبيتَ لحم للامبراطور، وبقي المسجدُ الأقصى وقبةُ الصخرةِ المشرَّفةِ في بيت المقدس وقرى بيت المقدس في أيدي المسلمين. وقد أثارت الاتفاقيةُ عاصفةً من السخط في أنحاء العالم الاسلامي[36]. ولعلَّ هذه الاتفاقيةَ قد أوحتْ بها الخطةُ التي كان قد فكَّر فيها الملكُ الانجليزي رتشارد الأول الملقب بقلب الأسد أيام صلاح الدين الأيوبي ولم تتحقَّقْ آنذاك خوفاً من معارضة البابا، ولأن جوانَّا (Joanna) شقيقةَ رتشارد رفضتْ الزواجَ من أميرٍ مسلم هو العادلُ شقيقُ السلطانِ صلاح الدين[37].

ويتحدث ابنُ واصل عن الصداقة الودية القائمة بين فردريك والكامل، ويبدو أن هذه الصداقةَ قد تعزَّزتْ بعد أن حذَّر الكاملُ الامبراطورَ من مؤامرةٍ دبَّرها فرسانُ الداوية (Templars) لاغتياله. كما يقول ابن واصل إن فردريك بذلَ جهدَه لثني الملك الفرنسي لويس التاسع عن مهاجمةِ مصر سنة 1249م، وإنه قام سراً بإبلاغ السلطان الصالح نجم الدين بنبأ قيام الحملة في حينه، وإن فردريك أنَّب لويسَ التاسعَ بعد هزيمة الأخير في المنصورة، لعدم

(36) أحمد، عزيز: ص 97, 98.

(37) Barbour, N., «The Emperor Frderick II... and His Relations with the Muslims,» *Orientalia Hispanica*, I/1, Leiden 1974, p. 84.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

إصغائه لنصيحته[38]. وفي سنة 1238م، حاربتْ فصيلةٌ مصريةٌ إلى جانب قوات الامبراطور عند حصار بريشا (Brescia)، كما أن فردريك قام في سنة 1241م بتجديد اتفاقية الهدنة المبرمةِ مع سلطان مصر[39].

وكان السلطانُ الكاملُ قد أوفد مبعوثاً إلى فردريك الثاني للتوسط بشأن عرب صقلية، طالباً أن يُترَكوا وشأنَهم في صقلية، أو أن يُسمَح لهم على الأقل بالهجرة إلى مصر، إلا أن هذا الطلبَ لم يُؤَدِّ إلى أية نتائجَ عملية[40].

وفي مجال العلاقات الثقافية، بعث فردريك أثناء إقامته في عكا إلى الملك الكامل «بعدة مسائلَ في الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على الشيخ علم الدين الحنفي المعروف بتعاسيف وغيره. فكتب جوابَها»[41]. وأرسل الملكُ الصالحُ إلى فردريك شيخاً عالماً هو الشريف شمس الدين الأرموي أمضى وقتاً عند فردريك، وألَّف له كتاباً في المنطق[42].

وفي أثناء اقامة فردريك القصيرة في بيت المقدس، زار المسجدَ الأقصى وقبةَ الصخرة وأبدى إعجابَه بهما. وزجر قِسِّيساً معه الانجيل قصدَ دخولَ المسجد الأقصى، وأنكر مجيئَه قائلاً «فإنما نحن مماليكُ هذا السلطانِ الملك الكامل وعبيدُه، وقد تصدَّق علينا وعليكم بهذه الكنائس، على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدَّى أحدٌ منكم طورَه»[43]. وكان قاضي نابلس شمسُ الدين قد أمر المؤذِّنين ألا يؤذِّنوا في الليلة التي باتها فردريك في بيت المقدس، وفي صباح اليوم التالي «قال الملكُ للقاضي: لِمَ لَمْ يؤذِّن المؤذِّنون على المنائر؟ فقال

---

(38) نفسه، ص 88.

(39) نفسه، ص 89, 90.

(40) أحمد، عزيز: ص 98.

(41) اماري، ص 522.

(42) Barbour, p. 88.

(43) اماري، ص 521.

لـه: منعَهم المملوكُ إعظاماً للملك، واحتراماً لـه. فقـال لـه: أخـطأتَ فيمـا فعلتَ، واللهِ إنـه كـانأكبـرَ غـرضي في المبيت بـالقـدس أن أسمـعَ أذانَ المسلمين وتسبيحَهم في الليل»[44].

ولما عاد فردريك من فلسطين، اصطحب معه عدداً من الحيوانات الغـريبة كانت ترافقه في رحلاته في أوروبا، من بينها الزرافةُ التي أهداهـا له السلطان الكامل، وكانت أول زرافةٍ يُؤْتى بها إلى أوروبا. وكـذلك الفيـلُ الذي أهـداه إياه الكامل، ونال في أوروبا شهرةَ فيلِ شارلمان.

وفي سنـة 1232م، قدمتْ إلى بـلاد فردريـك سفارةٌ أوفـدَها سلطانُ دمشق الأشرف، ومعها هديةٌ عبارة عن جهازٍ في خيمة يمثِّل حركاتِ الكواكب. وفي العام نفسه تلقَّى هديةً من شيخ الجبل زعيم فرقـة الحشيشيـة الاسمـاعيلية في بلاد الشام. وأوفد فردريك مبعوثاً إلى مقر هذه الفرقة في مصياد يحملُ هدايـا إلى رئيس الطائفة في قلعة ألاموت، الواقعةِ قـرب تبريـز، إلا أنَّ شيخَ الجبـل قام بمصادرة هذه الهدايا[45].

إن السلطان الكامل اعتمد على الدبلوماسية في علاقاتـه بفردريـك الثاني، مؤْثراً تجنبَ أعباء الحرب الباهظة، وكان من نتـائج هـذه السياسـة استئنافُ بـل وازديادُ الصـلات التجاريـة مع صقليـة والمدن الايـطاليـة، وكـذلـك مـع بـروفانس وقـطلونيا، وازدادت عـائـداتُ مصـرَ من تجـارة العبـورِ بين الشـرق ومنطقةِ البحـر المتوسط[46]. وفي سنـة 1242م، أبرم فـردريك اتفـاقيةً تجـاريةً وعامةً مع سلطان مصر، الصالح نجم الـدين أيوب، اشتملتْ على بنـودٍ بشأن حرية الملاحة، وقمع القرصنـة، وبشأن الـرسوم الجمـركية، كمـا نصَّت على

---

(44) نفسه، ص 1-522.

(45) أحمد، عزيز: ص 98.

(46) EI², I, pp. 799, 800.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

قيام سلمٍ دائمٍ بين الطرفين، وتبادل المساعدة ضد الأعداء أياً كانوا[47].

لقد كان الملك الكامل والامبراطور فردريك بثقافتهما وعقليتهما يسبقان العصرَ الذي عاشا فيه، فقد كان العصرُ عصرَ تزمُّتٍ وتعصبٍ ديني، وحروبٍ متصلة، أما هما فقد كانت تغلب عليهما شخصيةُ الحاكم الذي يُعنَى بالأصلاح وحرية الفكر، والنهوضِ بالتجارة أكثرَ من عنايته بالحروب[48].

وبالنسبةِ لشمال افريقيا، كانت علاقاتُ فردريك بالحفصيين في تونس علاقات وثيقة. ففي سنة 1231، أبرم فردريك مع السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى معاهدةً، مدَّتُها عشرُ سنوات، بشأن وضع جزيرة قَوْصرة (بنطلارية)، وهي تشتمل على بندٍ ينصُّ على أن «لا يُولَّى على مسلمي قَوْصرة نصرانيٌ بل يُولَّى عليهم مسلمٌ من أهل صقلية»[49]. ويبدو أن المعاهدةَ أبقتْ لمسلمي قَوْصرة شيئاً من الاستقلال الذاتي إدارياً وقضائياً. وتنص المعاهدةُ كذلك على أن يتقاسمَ صاحبُ صقلية وصاحبُ تونس خراجَ الجزيرة مناصفةً بينهما. وعقد السلطانُ الحفصيّ معاهداتٍ تجاريةً مع المدن الايطالية، ومع صاحب أرجون، كتلك التي عقدَها مع فردريك الثاني. ومما يُذكر أن فردريك كان أكبر مُلَّاك الأراضي في صقلية، وكان يصدِّر كمياتٍ كبيرةً من قمحه الخاص إلى شمال افريقيا[50]. إن هذه الاتفاقياتِ تقوم على امتيازاتٍ متبادلةٍ يُقصَدُ بها تيسيرُ التبادل التجاري. ففي الاتفاقية التي عقدَها فردريك مع السلطان الحفصي سنة 1231م، يوافق على تبادل الأسرى، كما يتعهد بإعادة البضائع

---

(47) Barbour, p. 90.

(48) الشيال، جمال الدين: «معابر انتقال الثقافة العربية الاسلامية»، فصل في كتاب (أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية)، القاهرة 1970 ص 380-381.

(49) Daniel, p. 162.

(50) Smith, p. 58.

التي يصادرها القراصنة النصارى، بينما يُعفي السلطانُ الحفصيُّ التجارَ اللاتين من دفع الجبايات الجمركية[51].

ومنحَ فردريك حقَّ اللجوء السياسي لعبد العزيز، شقيق السلطان أبي زكريا، وأبقاه رهينةً في الواقع في لوشيرة. إن هذا يدل على أن فردريك عاملَ جيرانَه العرب معاملةً عاديةً كما عامل جيرانَه الأوروبيين[52]. وفي سنة 1239م، أرسل فردريك قنصلاً لتمثيل مصالحه التجارية في تونس، وأوفد إلى تونس في العام التالي في مهمةٍ، لعلَّها مهمةٌ علمية، أحدَ كُتَّابه جوڤاني البلرمي، وكان مبرِّزاً في العلوم الرياضية[53].

وأقام فردريك مع سلطان الموحدين في مراكش علاقاتٍ تجاريةً وثقافية. وكما تقدَّم، فإنه بعث بأسئلته المعروفة بالمسائل الصقلية إلى السلطان الرشيد الموحدي، الذي أَحالها إلى الفيلسوف والصوفي الأندلسي ابن سبعين للردِّ عليها.

لقد كانت علاقاتُ فردريك الثاني مع سلاطين المسلمين في المشرق والمغرب علاقاتٍ وديةً في جميع المجالات السياسية والتجارية والثقافية لمصلحة الطرفيْن، في الوقت الذي أبدى فيه قسوةً بالغة تُجاه المسلمين في صقلية، بترحيله لهم عن أوطانهم واستغلالهم في موطنهم الجديد لأغراضه الخاصة، ولعلَّ هذه المعاملةَ القاسيةَ كانت «لكونهم ثائرين على حكمه، لا بسبب دينهم»[54].

وقد شكا دعاةُ البابا من أن فردريك كان يحتفظ في بلاطه بالفتيات

---

(51) Daniel, p. 162.

(52) نفسه، ص 162, 163.

(53) أحمد، عزيز: ص 103.

(54) Smith, p. 60.

والحريم، ومن انه احتفظ براقصاتٍ شرقيات للترفيه عن ضيوفه، وعلى ذلك فإن الباباوات كانوا يشيرون إليه بالسلطان المعمَّد لقد كان فردريك في شخصيته وتصرفاته دنيوياً ومتفتحاً، بحيث لم يرقْ للباباوات، كما أنه كان أخطرَ عدو سياسي لهم، إذ إن امبراطوريَته كانت تحُيط بالأراضي الباباوية في وسط ايطاليا. وقد أبى فردريك أن يسمحَ للبابا بالتدخلَ في شؤون مملكته الدنيوية، ورفض قبولَ ادعائه بأن صقلية اقطاعيةٌ بابوية، كما أصرَّ على أن يَدفعَ رجالُ الدين الضرائبَ كبقية رعاياه[55].

وفي الختام، لعلَّ من المناسب أن نقتبسَ ما قاله المؤرخُ الانجليزيُّ المعاصرُ للامبراطور، ماثيو باريس (Matthew Paris)، عند حديثه عن وفاة الامبراطور فردريك الثاني، فهو يقول «توفي الامبراطور فردريك، وقد كان أُعجوبة الدنيا، ومبدعاً مدهشاً Stupor mundi et immutator mirabilis»[56].

---

(55) نفس المرجع السابق والصفحة.

(56) Barbour, pp. 93-94.

العلاقات بين جزيرتي صقلية وجربة في أواخر القرون الوسطى

(1100-1500م)

تمهيد

في مطلع القرن السادسِ الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كان حكم النورمان في جزيرة صقلية قد توطَّد، وأما جزيرة جربة فكانت تابعةً لدولة بني زيري في المهدية التي اعتراها الوهن إثْرَ الغزوة الهلالية، ونزاعِها مع الفاطميين ومع دولة بني حمَّاد، وتعرُّضِها لهجمات الجنوبيين والبيزيين (1087م)، وما نتج عن كل ذلك من تقلُّصٍ في رقعة أراضيها التي انحصرتْ في ساحل افريقية، ثم فقدانها لجانب كبير من تجارة القوافل المُجْزية مع بلاد السودان، فضلاً عن التجارة مع صقلية. وعلى ذلك، فإن ممارسةَ أهل جربة للغزو البحري، كما يقول البكري والادريسي وابن الأثير والتجاني وابن خلدون، إنما كان نتيجةً لهذه العوامل السياسية والاقتصادية، فضلاً عن العامل الديني، وهو الجهاد ضد الروم الذين انتزعوا صقلية من أيدي المسلمين، وأخذوا يتصدَّوْن لمراكبهم في وسط البحر المتوسط. إن النورمان بعد أن سيطروا على صقلية كانوا يَرْنون إلى بسط سيطرتهم كذلك على افريقية، منتهزين فرصة ضعف دولة بني زيري، وانشغالِ المرابطين في مواجهة قيام الموحدين عليهم، وضعفِ الدولة الفاطمية في المشرق، وقيامِ

الحروب الصليبية. إن النورمان الطامعين في افريقية كانت تحدوهم إلى ذلك عواملُ اقتصاديةٌ في المقامِ الأول. فصقلية وافريقية ازدهرتا على مرِّ العصور حينما كانتا تضمهما دولة واحدة كما حدث أيام القرطاجنيين والرومان والبيزنطيين والعرب، ذلك أن صقلية كانت المصدرَ الرئيسيَّ للقمح بالنسبة لافريقية، لاسيَّما في سنوات الجفاف والقحط، كما أنها كانت تستورد من افريقية زيتَ الزيتون وذهبَ السودان الغربي. أضف إلى ذلك العاملَ الأمْنيَّ لدرء خطر المسلمين عن صقلية، كما فعل الإسبانُ فيما بعد في القرن السادس عشر ـ بعد استيلائهم على غرناطة ـ مع الممالك الإسلامية في الشمال الافريقي.

وفي عهد الملك فردريك الثاني صاحب صقلية، قامت بين صقلية وافريقية الحفصية صلاتٌ وديةٌ وعلاقاتٌ تجاريةٌ وثيقة، حتى إذا ما سيطر صاحب أراجون على صقلية، وشهدت مملكة اراجون ـ قطلونية أوجَ قوتها وازدهارِها الاقتصادي في أواخر القرن الثالث عشر والنصفِ الأولِ من القرن الرابعَ عشر الميلادي، وبخاصة في غربي البحر المتوسط وجُزُرِه، طمع صاحبُ صقلية في السيطرة من جديد على افريقية، فتعرَّضت جزيرة جربة أكثرَ من مرة لهجمات الأراجون واحتلالِهم لاتخاذ الجزيرة، بحكم موقعها في خليج قابس، موطىءَ قَدمٍ للسيطرة على ساحل افريقية. إن ضعفَ الحفصيين آنذاك سهَّل هذه المهمة للأراجون، ولكن الجرابةَ أظهروا دوْماً بسالةً ومقاومةً شديدة في الدفاع عن جزيرتهم ضد الغزاة النصارى، وإليهم يعود الفضلُ في المقام الأول في تحرير الجزيرة، التي عانتْ كثيراً في الأرواح والممتلكات من هذه الغزوات والاحتلال الأجنبي الذي دام نحوَ ثمانين عاماً في الفترة الزمنية التي تتناولُها هذه الدراسة.

وبالرغم من هذه الاعتداءات المتكررة التي تعرَّضت لها جزيرةُ جربة، فإن الرحالة والمؤرخين، من البكري في أواخر القرن الحادي عشر إلى القَلْصادي

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

في أواخر القرن الخامسَ عشر، أشادوا بخيرات الجزيرة، ووفرة غلاتها الزراعية وبخاصة زيت الزيتون والزبيب والفواكه على اختلاف أنواعها، كما امتدحوا جودةَ أصوافها وصناعةَ الأكسية فيها. وقُدِّر لجربة أن تلعبَ في القرن السادسَ عشر دَوْراً بارزاً في المواجهة بين الأتراك العثمانيين وبين الإسبان، إذ صمدتْ الجزيرةُ في وجه الإسبان، واتخذها غزاةُ البحر المسلمون قاعدةً لعملياتهم البحرية، في وسط البحر المتوسط وغربيه.

وفي هذا البحث، سوف نستعرضُ العلاقاتِ بين جزيرتيْ جربة وصقلية على مدى أربعةِ قرون (1100-1500م)، أي حينما كانت جربة تابعةً لافريقية الزيرية ثم الحفصية، وحينما كانت صقلية خاضعةً لحكم النورمان ثم الألمان من الأسرة السوابية (هوهنشتاوفن) ثم أسرة انجو الفرنسية ومن بعدهم لمملكة أراجون ـ قطلونية، ثم لإسبانيا بعد اتحاد مملكتيْ قشتالة وأراجون (1479م). كما سنورد نبذةً عن سيرة قائدٍ بحري من أبناء جربة، أسره النورمان صغيراً من ساحل جربة، ولمع اسمه في تاريخ صقلية النورمانية، حيث عُرف باسم القائد بطرس (بيدرو)، ثم فرَّ من بلرم إلى تونس، ولمع اسمه قائداً للأسطول في دولة الموحدين، باسم أبي العباس أحمد الصِقلِّي.

من سنة 1100 إلى احتلال الأراجون لجزيرة جربة سنة 1284م

تعاقب على حكم صقلية في هذه الفترة النورمان (إلى سنة 1194م)، وملوكُ أسرة هوهنشتاوفن الألمانية (إلى سنة 1266م)، ثم، لفترة قصيرة، أسرةُ شارل أنجو الفرنسية. وأما جزيرة جربة فكانت تتبع ـ إسمياً ـ دولةَ بني زيري إلى سنة 1135م حينما احتلَّها نورمان صقلية،ثم تحرَّرت قُبيْلَ قدوم الموحدين (1159م)، وبقيتْ ضمن الدولة الموحدية إلى سنة 1229م، حينما أصبحت تابعةً للدولة الحفصية في تونس.

إن وضعَ افريقية الاقتصادي في الفترة من سنة 1000 إلى سنة 1160م قد

تدنّى كثيراً لعدة أسباب، منها انتقالُ العُبَيديين إلى مصر، والغزوةُ الهلالية، واستيلاءُ النورمان على صقلية، وحروبُ بني زيري ومنازعاتُهم مع جيرانهم، وتحوُّلُ طرق القوافل عبر الصحراء إلى المغرب الأقصى بعد قيام دولة المرابطين، وإلى بجاية، وكذلك إلى مصرَ الفاطمية، وظهورُ جمهوريات المدن الايطالية البحرية واستئثارُها تدريجياً بتجارة حوض البحر المتوسط، ثم التطورُ الذي طرأ على صناعة بناء السفن فأصبحت المراكبُ أكبرَ حجماً وأخذت تنتقل مباشرة من غربي البحر المتوسط إلى شرقية فلم تَعُدْ لإفريقية وصقلية مكانتهما السابقة كمحطَّتيْن لاستقبال سلع المشرق ثم تولِّي توزيعها في الخوض الغربي للبحر المتوسط[1]. يقول ابن خلدون إنه «لما غلبت العربُ صنهاجة [أي بني زيري] على الضواحي، وصارت لهم، أخذ أهلُ جربة في إنشاء الأساطيل وغزوِ السواحل»[2]. وفضلاً عن العوامل الآنفة الذكر، فإنه ينبغي أن لا نُغفلَ العاملَ الدينيَّ، إذ إن الغزو البحري كان نوعاً من الجهاد ضد مراكب الروم في فترة الحروب الصليبية الدائرة آنذاك، وكان يمارسه النورمان أنفسُهم بعد استيلائهم على صقلية وسعيهم لعزل افريقية وقطع صلاتها التجارية المُجْزية مع مصر، وهي الصلات التي تعزَّزتْ في أواخر أيام دولة بني زيري. ويبدو أن جربة منذ قدوم العرب الهلالية إلى افريقية في منتصف القرن الخامس/ الحادي عشر الميلادي كانت تتمتع باستقلال ذاتي، مما جعل صاحبَ المهدية، علي بن يحيى، يُقدم على غزوها واخضاعها لسلطانه سنة 1116م، متذرعاً بما «ترادف عليه من قَطْع أهلها البحرَ وإخافتهم المسافرين فيه»[3].

---

(1) Goitein, S.D., «Medieval Tunisia the Hub of the Mediterranean» in *Studies in Islamic History and Institutions*, Leiden 1966, pp. 308-311.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العبر، المجلد السادس، بيروت 1959، ص 848.

(3) ابن عذاري، أبو العباس أحمد: البيان المغرب، الجزء الأول، بيروت 1950، ص 441. التجاني، عبد الله: رحلة التجاني، تونس 1958، ص 125.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

وهنا لا بد من إبداء ملاحظة حول أقوال بعض المؤرخين المسلمين بشأن جربة. فالبكري يقول إن أهلَ جربة «مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج». لقد كتبَ البكري في حدود سنة 1068/460م، أي بُعيْد وصول العرب الهلالية واختلال أحوال افريقية، وتعطُّلِ تجارة القوافل، وهو يقول كذلك إن الجزيرةَ «كثيرةُ الذهب» ويعني بذلك ذهبَ السودان الواردَ عبر الصحراء عن طريق إقليم الجريد[4]. إن تردِّي الأوضاع في إفريقية هو الذي حدا بالجرابة إلى ممارسة الغزو البحري، ثم إن النزعة الاستقلالية لأهل جربة وتعلُّقَهم بالمذهب الإباضي لعلّهما يفسِّران العباراتِ التي أوردها المؤرخون السُنِّيون كالبكري[5]. وبعد البكري بقرنٍ من الزمن، يقول الإدريسي عن أهل جربة إن «الشرَّ والنفاقَ [بمعنى الخروج على طاعة السلطان] موجودان في جِبِلَّتِهم، وهم أهلُ فتنةٍ وخروجٍ عن الطاعة»[6]. والإدريسي، كما هو معروف، كان يكتب في بلرم تحت رعاية الملك النورماني رجار الثاني، فمن الطبيعي أن يُلصقَ بأهل جربة هذه النعوت مداراةً للملك النورماني بعد مقاومة الجرابة وثوراتهم على النورمان المحتلين لجزيرتهم. ومع ذلك، فإن الإدريسي يضيف «وهم مع ذلك كله ضيّافون يطعمون الطعام ويندبون إلى طعامهم، ويسالمون الناسَ في أموالهم، وفيهم عدالةٌ بيِّنة لمن نزلَ بهم»[7].

إن غزو النورمان لجزيرة جربة عام 1135/529م سبقته وحفزتْ إليه غاراتٌ

---

(4) البكري، أبو عُبيْد عبد الله: المُغرب في ذكر بلاد المغرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك)، باريس 1965، ص 19، 85.

(5) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية، بالإنجليزية)، ليدن ـ لندن 1965، المجلد الثاني، ص 459.

(6) الإدريسي، محمد (الشريف). وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (قطعة مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، الجزائر 1957، ص 95.

(7) المصدر السابق، ص 95.

(8) دائرة المعارف الاسلامية، 2/ ص 459.

متوالية قام بها أسطول المرابطين على سواحل صقلية وجنوب ايطاليا، وباءت بالفشل المحاولاتُ التي قام بها النورمان، لا سيَّما هزيمتهم عند قصر الديماس سنة 1122/517م. وكما يقول التجاني فإن رجار الثاني صاحبَ صقلية كان «كلَّما وصل أسطولٌ من المغرب إلى بلاده نسبَه إلى الحسن [بن علي صاحب المهدية] فعزم... على غزو المهدية، وأنشأ في ظاهر الأمر بينه وبين الحسن صُلْحاً، وفي نفسه ما فيها لتتمَّ خديعتُه ويتمكَّنَ من مراده»[9]. وفي سنة 1135م، استعان الحسن بالنورمان أعداء الأمس ضد صاحب بجاية، الذي كان يهدِّد المهدية، فأمدُّوه بالعون وأنقذوه، وقامت بينه وبينهم علاقة تتصف بكونها أكثرَ من هدنة، أي علاقة الضعيف بالقوي[10].

لقد عُرف النورمانُ طوالَ تاريخهم بالانتهازية والجشع، وكانوا دائماً يتحيَّنون الفرص للاستحواذ على الأرض، كما فعلوا في جنوب ايطاليا وصقلية. إن ذلك، مضافاً إلى العامل الاقتصادي، هو الذي دفعهم إلى احتلال جربة وساحل افريقية منتهزين ضعفَ الزيريين، وقيامَ الحروب الصليبية في المشرق، وانشغالَ المرابطين بقيام الموحدين عليهم. فغزا أسطول نورماني بقيادة جورج الأنطاكي[11] بغتةً جزيرةَ جربة في خريف عام 1135/529م، وأعمل رجاله في الجزيرة وأهلها يد الفتك والنهب، ولم تسقط الجزيرة في أيدي الغزاة إلا بعد مقاومةٍ بطولية من جانب أهلها، دون نصير.

---

(9) رحلة التجاني، ص 339.

(10) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الاسلامية، تعريب وتعليق أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب 1980، ص 66.

(11) هو جورج الأنطاكي (يدعوه التجاني جرجير وابن خلدون جرجي)، كان قد هاجر من بلاد الشام والتحق بخدمة الأمير الزيري تميم بن المعز الذي حكَّمه في دخله وخرجه، وكان يجيد العربية. فلما مات تميم (1107/501م) خاف الأنطاكي من يحيى بن تميم، واعمل الحيلة في اللحاق برجار، فلحق به وحظي عنده، وعمل في بلاطه سفيراً ومقدّماً على الأسطول نحواً من أربعين عاماً، وهو الذي استولى على مدن ساحل افريقية، وأفاد في حروبه ضد المسلمين مما سبق أن اكتسبه من معلومات وخبرة عن البلاد وسكانها ـ تُنظر رحلة التجاني، ص 333.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

يقول ابن الأثير: «فخرج إليها جماعة من الفرنج من أهل صقلية، في أسطول كثير وجمٍ غفير، فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة، فنزلوا بساحتها، وأداروا المراكبَ بجهاتها، واجتمع أهلُها وقاتلوا قتالاً شديداً، فوقع بين الفريقين وقعاتٌ عظيمة، فثبت أهلُ جربة، فقُتل منهم بشرٌ كبير، فانهزموا وملَكَ الفرنجُ الجزيرة، وغنموا أموالَها وسَبَوْا حريمَها ونساءَها وأطفالَها، وهلك أكثرُ رجالها، ومن بقي منهم أخذوا لأنفسهم أماناً من صاحب صقلية، وافتكُّوا أسراهم وسَبْيَهَم وحريمَهم»[12]. ويضيف ابن أبي دينار أن رجار الثاني «ولّى عليهم عاملاً من قِبَله، وكتب لهم أماناً من عنده، وجعلهم خَوَلاً له»[13]. حدث كلُّ هذا، ولم يحرك صاحبُ المهدية ساكناً إما لعجزه، وإما لتواطُئِه مع الغزاة النورمان، بالرغم من كون الجزيرة من ممتلكاته.

إن غزو النورمان لجزيرة جربة لم يكن بقصد وضع حد لأعمال القرصنة، بل لأن صاحبَ صقلية كان يطمع في افريقية بعد أن انتزع صقلية من المسلمين، وأراد أن يتخذ من جربة قاعدةً له في خليج قابس لتحقيق غرضه. وقد أدى أخذ النورمان جربة إلى عرقلة التجارة البحرية النامية بين مصرَ وافريقية[14]. وفضلاً عن استيراد التوابل والعطور من مصر، فإن افريقية كانت تستورد الكتّان لصناعة الأقمشة والسوسيَّاتِ الشهيرةِ، وتصديرِها إلى المشرق[14A]. ومنذ منتصف القرن الحادي عشر كان نقلُ البضائع بين افريقية ومصر يتمُّ في معظمه بحراً بعد أن كان يتمُّ براً عن طريق القوافل قبل الغزوة الهلالية[15].

---

(12) ابن الأثير، أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، بيروت 1978، ص 350.

(13) ابن أبي دينار القيرواني، أبو عبد الله محمد: المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تونس 1967، ص 93.

(14) Idris, H.R., *La Berbérie Orientale Sous Les Zirides*, Paris 1959, p. 346.

(14-A) يذكر أبو شامة أن الفرنج الصليبيين استولوا على مركبين للمسلمين في طريقهما منن مصر إلى الشام، وكان على ظهرهما أمتعة تشمل «عدة من الأثواب السوسية». أبو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي: كتاب الروضتين، القاهرة 1962، 2/1، ص 517.

(15) Goitein, S.D., «Medival Tunisia the Hub of the Mediterranean,» p. 324.

ويبدو أن صاحبَ صقلية بعث إثر استيلائه على جربة بخطابٍ إلى الخليفة الفاطمي في القاهرة، يبرِّر فيه لأخذه جربة متهماً أهلَها بالاعتداء على مراكبه، وبانتهاك الاتفاقيات المبرَمة بينه وبين صاحب المهدية. وقد أورد القلقشندي ضمن نماذج المراسلات السلطانية نصَّ الخطابِ الذي ردَّ فيه الحافظ على كتاب صاحب صقلية، وفيه يتناول ضمن المسائل المثارة قضيةَ جربة فيقول: «وأما ما ذكرتَه من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة، لِمَا شرحتَه من عدوانِ أهلها وعدولِهم عن طرق الخيرات وسبُلها، واجترائهم في الطغيان على أسبابٍ لا يجوز التغافلُ عن مثلها، واستعمالِهم الظلمَ تمرداً، وتماديهم في الغيِّ تباهياً في الباطل وغلوّاً، يأساً من الجزاء لمَّا استبطأوه، فإن مَنْ كانت هذه حالُته حقيقٌ أن تكون الرحمةُ عنه نائية، وخليقٌ أن يأخذه الله من مأمنه أخذةً رابية، كما أنه من كان من أهل السلامة، وسالكاً سبيلَ الاستقامة، ومُقبلاً على إصلاح شأنه، وغيرَ مُتعدٍّ للواجب في سرِّه وإعلانه، تَعيَّن أن نوفِّرَ من الرعاية سهمَه، ونُجزلَ من العناية نصيبَه وقِسْمَه، ويُؤمَّنَ مما يُقلقه ويزعجه، ويُقصدَ بما يسرُّه ويُبهجُه، ويُصانَ عن أن ينالَه مكروه. . .»[16].

إن رد الحافظ غريب حقاً، وللمرء أن يتساءل عما إذا كان صادقاً فيما ذكره. ويشكُّ كنار (Canard) في أن يكون الحافظُ يعني ما قاله بشأن استيلاء رجار الثاني على جربة، لاسيَّما وأن علاقاتِ الحسن ووالده قد تعزَّزتْ مع العُبَيْديين، ولعلَّ ما ذكره راجع إلى رغبة الحافظ ـ بحكم ضعفه وانشغاله بالحروب الصليبية في المشرق ـ في إقامة علاقاتٍ طيبة مع صاحب صقلية. ففي عام 1143م، أبرم رجار الثاني مع مصر معاهدةً تجاريةً لعلَّها أولُ معاهدةٍ من نوعها تُبرَم بين دولة مسيحية في الغرب وبين مصر. ومع ذلك، فإن أسطول رجار ما انفكَّ يعترضُ سبيلَ المراكب المصرية بعد استيلائه على

(16) القلقشندي، أبو العباس أحمد؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء السادس، القاهرة 1963، ص 459.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

جربة[17]. إن صاحبَ صقلية هو الآخر لم يكُنْ صادقاً في ما ذكره مبرِّراً لأخذه جزيرة جربة، إذ إنه، كما تقدَّم، انما استهدف من احتلال الجزيرة بسطَ نفوذه على افريقية، وهو ما حدث بالفعل خلالَ الثلاثَ عشرةَ سنةً التالية لاحتلال الجزيرة.

إن ما حلَّ بمسلمي جربة حلَّ كذلك بجاليتها اليهودية العريقة، كما تدلُّ على ذلك وثائقُ «جنيزة القاهرة»[18]. ففي رسالةٍ من الفسطاط يقول كاتبُها: «اليوم [1136/10/14م] وصل أسرى جربة إلى مصر لافتدائهم»[19]. وفي رسالةٍ من تاجرٍ يهودي بعث بها من بلرم إلى أخيه في الفسطاط، حوالى سنة 1140م، يقول إنه سافر من مصرَ على ظهر مركب نصراني قابل في الطريق الأسطولَ الذي كان قد استولى على جربة، فأصابه وركابَ المركب غيرَ النصارى رعبٌ شديد، إلا أنهم لم يُصابوا بأذى[20]. وفي رسالة قبل غزو النورمان لجربة من تاجرٍ يهوديٍ إلى شريكه في مصر، يقول إنه حاول إنقاذَ بالتَيْن من الكتان البوصيري في مياه جربة، فلم يتمكَّن من إنقاذ غير واحدة

---

(17) Canard, M., «Une Lettre du Calife Fatimite Al-Hafiz... à Roger II», in *Miscellanea Orientalia*, London 1973, pp. 126-131.

(18) الوثائقُ المعروفة باسم (جنيزة القاهرة Cairo Geniza) هي رسائل للتجار اليهود عُثر عليها في نهاية القرن التاسع عشر في مخزن ملحق بكنيس في القاهرة، حينما هُدم الكنيسُ وأعيد بناؤه، وقد نقلت إلى مختلف المكتبات في أوروبا وأمريكا. إن هذه الرسائل تبلغ حوالى عشرة آلاف رسالة، ومعظمها باللغة العربية، بحروف عبرية. وقد أودع هذه الرسائل في الكنيس المذكور تجارٌ يهود، ومعظمها صادر عن التجار اليهود في المغرب والأندلس، لاسيما افريقية وصقلية، وتتناول الفترةَ الزمنيةَ 950-1200م. وتعتبر مصدراً مهماً للباحثين في تاريخ المغرب الاقتصادي في هذه الفترة، لما تتضمنه من معلومات عن السلع المتبادلة، وأثمانها، ومدى الإقبال عليها. ومما يُذكر أن كثيراً من هؤلاء التجار نزحوا إلى مصرَ من افريقية ابتداء من أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، بسبب تردِّي أوضاع افريقية الاقتصادية. يُنظر تحت مادة Geniza في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية بالإنجليزية، 2/987-989.

(19) Goitein, S.D., *Letters of Medieval Jewish Traders*, Princeton Univ. Press, Princeton, 1973, p. 324, n. 1.

(20) نفسه، ص 3-324.

منهما، وهي تزن سبعةَ قناطير أرسلها إلى بونة[21]. ويقول تاجرٌ في رسالةٍ بعث بها من صقلية إلى أخيه في مصر حوالى سنة 1140م: «وصلتُ إلى صقلية مع أسرتي قادماً من تونس بسبب الويْلاتِ المُفزعة التي حلَّتْ بافريقية، وأعتزمُ السفرَ إلى مصرَ عن طريق صقلية، إذ لم يعُدْ بالإمكان السفرُ مباشرةً من افريقية إلى مصر[22]. ويكتب مدرسٌ يهوديٌ أسره النورمان في جربة سنة 1136م إلى المُحسن الذي افتداه في مصر، بعد عودته إلى جربة، يقول «خادمكم تزوَّج من ابنة عمِّه في منزل والدها»، وهو شيءٌ غيرُ مألوف، إذ إن والده كان قد اضُطُّر إلى بيع منزله بسبب سوء الأحوال في جربة[23]. وها هُو تاجر يهودي آخر يكتب من عدن إلى أهله في المهدية، بتاريخ 1149/9/11م، عن غارات النورمان وما أحدثتْه من خسائرَ في الأرواح والأموال، وانتقالِ أقاربه إلى صقلية فيقول: «سمعتُ عمَّا حلَّ بساحل افريقية وطرابلس وجربة وقرقنة وصفاقس والمهدية وسوسة، إلا أنه لم يصلْني أي خطابٍ يمكِّنني من معرفة من مات ومن بقي على قَيْد الحياة، فأناشدكم اللهَ أن تكتبوا لي بالتفاصيل بالضبط، لكي يهدأ بالي»[24].

يتحدث الإدريسي عن الخراب الذي حدث في المنطقة الساحلية (قابس ـ طرابلس) وينسبه إلى القبائل العربية، إلا أن من المعلوم أنه منذ أن أخذ النورمان جزيرةَ جربة سنة 1135م، إلى استيلائهم على طرابلس الغرب سنة 1146م، تعرَّض ساحلُ افريقية باستمرار لغارات النورمان وعَيْثهم، مما جعل الأهالي يلتزمون مدنَهم، أو ينتقلون بالضرورة إلى الدواخل[25].

---

(21) نفسه، ص 103.

(22) نفسه، ص 324.

(23) Goitein, S.D., *A Mediterranean Society*, Vol. III, California Univ. Press, 1978, pp. 30, 117.

(24) Goitein, S.D., *Letters of Medieval Jewish Traders*, p. 206.

(25) Brett, M., «Ifriqiya As A Market for Saharan Trade...», in *Journal of African History*, X, 3 (1969), pp. 363-4.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

وبعد ثماني عشرةَ سنةً من احتلال النورمان جربة، ثار أهلُها على المحتلِّين سنة 1153م، فغزاها أسطول نورماني «واستفتحها ثانيةً ورفع جميعَ سَبْيها إلى المدينة [بلرم]»[26]. ويضيف التيجاني إن الجرابة قتلوا جماعةً كثيرةً من النصارى، فغزا النورمان الجزيرةَ ثانيةً وقمعوا الثورةَ بدون رحمة «ونقلوا أكثرَ أهلِها سبايا إلى بلادهم، ولم يُبْقوا إلا من لا بالَ له»[27].

ويرى مؤرخٌ انجليزيٌ معاصر، متخصِّص في تاريخ صقلية، أن رجار الثاني رأى في احتلال جزيرة جربة ومدنِ ساحل افريقية أحدَ الحلول لمشاكل صقلية الاقتصادية والاستراتيجية، وبالرغم من أن هذه السياسة التوسعية كانت تنطوي على قَدْرٍ كبيرٍ من المخاطرة، إلا أنه أخذ في الحُسْبان كونَ كثيرٍ من مدن افريقية تعتمد على صقلية لاستيراد القمح في بعض السنوات. وفضلاً عن ذلك، فإن ذهبَ افريقية دَعَم النقدَ في صقلية، حيث ظهرتْ لأول مرةٍ في التاريخ العملةُ المعروفة باسم (دوقة ducat)، وازداد عددُ السفن التجارية بدعمٍ من الملك، الذي كان يَجْبي ضريبةَ العُشْر (tithe) على المراكب المبحرة بين صقلية وافريقية[28].

واجهتْ صقلية بعد موت رجار الثاني سنة 1154م مشاكلَ في الداخل والخارج: فاحتلَّ البيزنطيون مواقعَ في جنوب ايطاليا، وزحفت القواتُ البابويةُ جنوباً، وثار النبلاء الإقطاعيون المعادون لحزب القصر. وكان للاضطراب الذي حدث في صقلية نظيرُه في افريقية، فحدثتْ ثورات ضد النورمان في صفاقس ثم في جربة وقرقنة (1158/551م) تكلَّلتْ بالنجاح قُبَيْل وصول الموحدين إلى افريقية وإخراجهم للنورمان آخر الأمر من المهدية (1160/555م)، مُنهين بذلك مغامرةَ النورمان ووجودَهم في افريقية.

---

(26) الإدريسي، ص 95.

(27) رحلة التجاني، ص 126.

(28) Smith, D.M., *Medieval Sicily*, London 1969, pp. 29-30.

وللمرء أن يتساءل عن أسباب إخفاق حكومة صقلية في نجدة حامياتها المتمركزة في افريقية. إن هذه الحاميات ـ باستثناء حامية المهدية ـ لم تُبْدِ سوى مقاومةٍ ضئيلةٍ، ولعلَّ ذلك يرجع إلى المتاعب الداخلية في صقلية، وإلى الأخطار الخارجية التي كانت تهدد صقلية النورمانية في جنوب ايطاليا من ناحية الامبراطورية الألمانية، والبيزنطيين، وقوات البابا، فلم يَعُد في مقدور صقلية أن توفِّر القواتِ الكافيةَ لمواجهة هذه الأخطار، وأن تحتفظ في الوقت ذاته في افريقية بقواتٍ تكفي لإخضاع شعبٍ بأسره، ولمواجهة امبراطوريةٍ فتيَّةٍ كبرى هي امبراطورية الموحدين. وكما يقول مؤرخ حديث، فإن المبدأ القديمَ القائلَ إن الحملاتِ يمكنها أن تحقِّقَ فتوحاتٍ، ولكنها لا تستطيع الاحتفاظَ بها، ظلَّ صحيحاً[29].

من بين الرجال الذين لمعتْ أسماؤهم في البلاط النورماني ببلرم رجل من أهل جربة، كان قد أسَره النصارى صغيراً من ساحلها، إما عند احتلالهم للجزيرة عام 1135م، وإما قُبيلَ ذلك التاريخ، فتنصَّر وأعتقه الملك، وشغل منصباً سامياً في البلاط، وعُرف بالقائد بطرس (بيترو)، وتولَّى قيادةَ الأسطول. وإثر غارةٍ للأسطول النورماني على الجزائر الشرقية (البليار) ضد بني غانية، طُلب إلى القائد بطرس التوجهُ فوراً لنجدة حامية المهدية التي كان يحاصرها الموحدون (1159م). ولما أخفق في إنقاذ المهدية وعاد إلى بلرم، اتهمه خصومُه من حزب النبلاء بالخيانة، وها هو أحدهم المؤرخ هوجو فَلْقَندو يقول «إن بطرس ـ كبقية الفتيان في القصر ـ نصراني اسماً وزيّاً ولكنه مسلمٌ باطناً». أما الملك وليام (غليالم) الأول (حَكَم 1154-1166م)، فإنه لم يكترثْ لهذه الاتهامات، ولم يتَّخذْ ضد قائده أيَّ إجراءٍ تأديبي، بل إنه زاد من حُظْوته. ثم قامتْ في عام 1161م ثورةٌ كبرى تزعَّمها البارونات في صقلية ضد الملك ورجال بلاطه، أودتْ بحياة مايو (Maio)، كبير وزراء الملك، وبحياة كثيرٍ من

(29) Norwich, J.J., *the Kingdom in the Sun,* London 1976, p. 214.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

فتيان القصر المتنصِّرين، إلا أن الملكَ سُرعان ما أخمدها بعنف، وعهد بإدارة المملكة إلى ثلاثة أشخاص، في مقدمتهم القائد بطرس الذي رُقِّي إلى منصبِ سامٍ هو حاجب القصر. وبعد وفاة الملك وليام الأول عام 1166م، تولَّت أرملته الملكة مارجريت الوصايةَ على ابنهما الصبي وليام الثاني، وازداد اعتمادُها على القائد بطرس وثقتُها به لكفاءته وإخلاصه. إلا أن دسائسَ البارونات ومؤامراتِهم ضدَّه ازدادتْ، وخشي القائدُ بطرس أن يحلَّ به ما حلَّ عام 1153م بنظيره فليب المهدوي، فعزم على الفرار من بلرم (كما فعل جورج الأنطاكي من قبله في المهدية). فأعدَّ مركباً في الميناء واستقلَّه في ليلةٍ ظلماءَ مع بعض رفاقه من فتيان القصر، وعاد إلى تونس (صيف 1166م) واستردَّ اسمه الأول وهو أحمد، وديانَته الإسلامية وحرفَته البحرية الأولى[30]. إنه أبو العباس أحمد الصقلِّي «من كُتامة، وفيهم إلى الآن [أواخر القرن الثامن/ الرابع عشر الميلادي] سدويكش وصدغيان من بطونهم»[31]. وقد وليَ قيادةَ أساطيل الموحدين في الأندلس والمغرب، وأورد عنه ابنُ خلدون هذه النبذة: «وكان قائد أسطولهم [الموحدين] أحمد الصقلِّي، أصله من صدغيان الموطَّنين بجزيرة جربة من سدويكش، أسَره النصارى من سواحلها ورُبِّي عندهم، واستخلصه صاحبُ صقلية واستكفاه، ثم هلك وولي ابنه، فأسخطه ببعض النزاعات، وخشي على نفسه، فلحق بتونس ونزل على السيد بها [عبد الله بن عبد المؤمن] من بني عبد المؤمن، فأجاز إلى مراكش، فتلقَّاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة، وأجزل له الصلةَ وقلَّده أمرَ أساطيله، فجلَّى في جهاد أمم النصرانية، وكانت له آثارٌ ومقاماتٌ مذكورة في دولة الموحدين، وانتهتْ أساطيلُ المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة ما لم تبلغْه من قَبْلِه ولا بعدُ فيما عَهِدْنَا»[32].

---

(30) نفسه، ص 1-212، 3-256، والحاشية 1، ص 256.

(31) ابن خلدون: كتاب العبر 6/ ص 848.

(32) ابن خلدون: المقدِّمة، طبعة المكتبة التجارية، القاهرة (بدون تاريخ) ص 255.

وفي الغزاة التي قادها أبو يعقوب يوسف ضد شنترين بغرب الأندلس (1184/580م)، «برز أسطوله على الأشبونة وحاصرها عشرين يوماً»[33]، ولا شكَّ في أن أحمد كان المقدَّم على هذا الأسطول. كما يرد اسمه قائداً للأسطول الذي أرسله إلى بجاية لاستردادها من أيدي بني غانية «وتقدَّم القائد أحمد الصقلي بأسطوله إلى بجاية فملكَها»[34]، وكان ذلك في صفر 580/ مايو 1185م.

لقد ظلَّت جزيرةُ جربة تابعةً للموحدين، ثم آلتْ إلى الحفصيِّين في تونس (1229م). ولما انصرف الموحدون إلى الجهاد ضد الممالك المسيحية في اسبانيا، وإلى التصدِّي لثورة بني غانية وحلفائهم في شرق المغرب، فإن هذه الظروف، وكذلك المصالح التجارية، اقتضتْ أن يسالموا النورمان في صقلية، والجنوبيين الذين كانوا يسيطرون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين على الملاحة في البحر المتوسط، فعقدوا معهم معاهدات تجاريةً لفائدة الجانبيْن، بالرغم من الحروب الصليبية الدائرة آنذاك في المشرق.

وفي السنوات الأولى من حكم فردريك الثاني صاحبِ صقلية (حَكَم 1198-1250م)، قام مسلمو صقلية بثورة كبرى استمرَّتْ زهاء ربعِ قرنٍ بزعامة محمد بن عباد العبسي وابنتِه من بعده، وتمكَّن الثائرون من السيطرة على معظم الجزء الغربي من صقلية، بما فيها ميناء جرجنت (Girgenti) على ساحل الجزيرة الجنوبي، لتأمين مواصلاتهم مع شمال افريقيا. ولما نجح فردريك الثاني في قمع حركة الثائرين بمنتهى العنف، قرَّر ترحيلَ المسلمين عن صقلية في عام 1225م وإسكانَهم في مستوطنة لوجارة (Lucera) بجنوبي ايطاليا. ولما كان مسلمو صقلية قد تلقَّوْا العونَ من إخوانهم في افريقية، فإن

(33) الحميري، محمد بن عبد المنعم: كتاب الروض المعطار، بيروت 1975، ص 346.
(34) ابن خلدون: كتاب العبر، 6/ ص 508.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

أسطول فردريك عاث بجزيرة جربة، ونقل الكثيرين من سكانها إلى لوجارة[35].

وتفيد المصادر اليهودية أن يهودَ جربة المرحَّلين عن الجزيرة عام 1233م كوَّنوا لأنفسهم في بلرم جماعةً منفصلةً (Congregation)، ووافق فردريك الثاني على طلبٍ تقدَّموا به لتنصيب أمينٍ لجماعتهم، كما سمح لهم بغرس غابةٍ من النخيل، وأمرَهم بزراعة شجر الحنّاء التي كانت تستوردها صقلية من قبل[36].

إن الروابطَ الاقتصاديةَ بين صقلية وتونس استمرَّت في عهد فردريك الثاني وأبنائه، بالرغم من الخلافات السياسية والدينية، ويرجع ذلك إلى أن افريقية كانت منفذاً طبيعياً لقمح صقلية. فقد كان قمحُ صقلية وجُبْنُها يُستبدلان بالعبيد، وبالذهب قبل كل شيء، وقد عَوَّض هذا الذهبُ أوروبا عن نضوب مواردها منه. وكان زيتُ الزيتون يُستورد من حزيرة جربة لاستعماله في حفظ أسماك التونة التي كانت تُصاد قربَ سواحل صقلية، كما أن صنَّاعَ أطرابنش (Trapani) على ساحل صقلية الغربي أَثْرَوْا من صيد المرجان في مياه طبرقة[37].

آلت جزيرةُ صقلية عام 1266م إلى شارل من أسرة أنجو الفرنسية، وكان شارل أنجو يخطِّط لإقامة امبراطورية لنفسه في حوض البحر المتوسط فاستغلَّ الحملةَ الصليبيةَ التي قادها أخوه الملك لويس التاسع لمصلحته الخاصة، فوجَّهها إلى تونس (1270/668م)، وكان شارل مستاءً من المستنصر الحفصي صاحب تونس لإيوائه الثائرين على شارل في صقلية. وقد باءت هذه الحملةُ بالفشل بعد وفاة الملك لويس التاسع، وانسحب شارل بعد أن وافق السلطان

---

(35) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الاسلامية، ص 96.

(36) Hirschberg, H.Z., *A History of the Jews in North Africa*, vol. I, Leiden 1974, p. 374.

(37) Smith, *Medieval Sicily*, p. 134.

الحفصي على أن يمنحه في مملكته نفسَ الحقوق التي كانت من قبل لملوك صقلية، وتمَّ الصلحُ بعد أن دَفَع له السلطان ألفَ قنطارٍ من الفضة، واتُّفق على هدنةٍ مدتها خمسةَ عشر عاماً[38].

احتلال الأراجون لجزيرة جربة (1284-1335م):

تمَّ الاتحادُ بين مملكة أراجون وبين مقاطعة قطلونية عام 1137م، وكان الاتحادُ يتمثَّل في شخص الملك الذي أصبح بعد الاتحاد ملكَ أراجون وكونت برشلونة. ثم بعد التوسع على حساب المسلمين في الأندلس، ضمَّ إلى مملكته، قبل منتصف القرن الثالثَ عشر، شرقَ الأندلس، بما في ذلك بلنسية والجزائرُ الشرقية (البليار).

وكانت برشلونة مركزاً هاماً لبناء السفن وصناعة المنسوجات القطنية، بينما كانت بلنسية مركزَ صناعة المنسوجات الحريرية، ولذلك فإن مملكة أراجون ـ قطلونية عملتْ على التوسع في الحوضِ الغربي للبحر المتوسط، وبخاصة في الجزر، لاتخاذها مراكزَ تجارية.

إن أقدمَ وثيقةٍ تسجِّل وجودَ قنصلية قطلانية في تونس مؤرخة في عام 1253م، كما أن أول معاهدة تجارية بين تونس وبين مملكة أراجون أُبرمتْ عام 1271م. وكانت الأقمشةُ والتوابلُ (المستوردة من الاسكندرية) أهمَّ صادرات المملكة إلى شمال افريقيا، في مقابل استيراد الذهب والعبيد والورق والصوف والجلود والشمع.

آلتْ صقلية إلى حكم شارل أنجو عام 1266م بعد هزيمة ومقتل ملكها

---

(38) ابن القنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد: الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية، تونس 1968، ص 132.

ابن أبي دينار القيرواني، محمد: المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، ص 136.

Mayer, Hans Eberhard, *The Crusades,* Oxford Univ. Press, 1972, p.270.

Runciman, S., *A History of the Crusades,* III, London 1975, pp. 291-2.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

مانفريد من أسرة هوهنشتاوفن الألمانية. وكان بطرس الثالث ملكُ أراجون (حَكَم 1276-1285م) متزوجاً من ابنه مانفريد، فأصرَّ على المطالبة بحق زوجته في الجزيرة. ولما قام الصقلِّيُّون بثورتهم المعروفة باسم صلوات العصر الصقلية (Sicilian Vespers) وفتكوا بالحامية الفرنسية في الجزيرة سنة 1282م، دَعْوا ملكَ أراجون إلى حكم الجزيرة. وكان بطرس الثالث قد أعدَّ حملةً في ظاهرها ضد تونس، فوجَّهها إلى صقلية واحتل الجزيرة خلالَ شهر، مستعيناً برجال الحملة المعروفين باسم (Almogàvers)، والتسميةُ مشتقة من كلمة (المغاور) العربية[39].

أدى احتلالُ الأراجون لجزيرة صقلية إلى قيام نزاع حادٍ مع البابا وفرنسا، وباءتْ بالفشل الذريع حملةٌ فرنسيةٌ كبرى ضدَّ قطلونية عام 1285م. وولي صقلية ابنُ بطرس الثالث، الذي أصبح فيما بعد ملكاً على أراجون ـ قطلانية باسم جيمس الثاني (حَكَم 1291-1327م)، فتوصَّل إلى تسوية للنزاع مع البابا، تخلَّى بموجبها عن صقلية في مقابل أخذ جزيرتيْ سردانية وكورسيكا من الجنوبيِّين. إلا أن أخاه فردريك لم يقبل بهذه التسوية، وانتخبه برلمانُ صقلية ملكاً على الجزيرة عام 1296م، واعترف الفرنسيون بذلك بعد زواجه من أميرةٍ فرنسيةٍ من أسرة أنجو الحاكمة في نابولي عام 1302م.

وهكذا، فإن صقلية أصبحت مملكةً مستقلةً، ولو أن صاحبها ظلَّ يعترف بملك أراجون رئيساً للأسرة المالكة التي ينتمي إليها، دون أن يمنعَه ذلك من انتهاج سياسته الخاصة[40].

وما ان استقرَّ الأراجون في صقلية حتى تطلَّعوا لبسط سيطرتهم على الجزر المجاورة تأميناً لبقائهم في صقلية، وتعزيزاً لنشاطهم التجاري في غربي البحر

---

(39) Hillgarth, J.N., *The Spanish Kingdoms*, vol.I, Oxford 1976, p. 253. Payne, S.G., *Spain and Portugal*, vol. I, University of Wisconsin Press, U.S.A. 1973, p. 109.

(40) Hillgarth, vol. I, p. 267.

المتوسط، فانتهزوا فرصةَ المنازعات بين الحفصيين على المُلك، وجهَّزوا حملةً بحريةً كبرى بقيادةِ المقدَّم الصقلّي روجيرو دي لوريا للاستيلاء على جزيرة جربة ذات الموقع الاستراتيجي بالنسبة للملاحة بين شرقي البحر المتوسط وبين غربيه، وكذلك للضغط على السلاطين الحفصيين وحملِهم على دفع إتاواتٍ سنوية لصاحب أراجون، كما كان الحال وقت أن كانت صقلية تابعةً لأسرة أنجو. إلا أن أخْذَ جربة لم يكن بالأمر الهيِّن، نظراً للمقاومة الباسلة التي أبداها أهلُ الجزيرة دون تلقّي أي عونٍ من الدولة الحفصية التي كانوا يتبعون لها. إن العدوانَ الارجونيَّ كان دامياً هلك فيه الألوف من أهل الجزيرة، وسُبي ألوفٌ آخرون وبيعوا عبيداً في صقلية، وتعرضت الجزيرةُ لأعمال النهب والسلب. إن ما حلَّ بجربة وأهلِها على أيدي الأراجون شبيهٌ بما حلَّ بأهل جزيرة ميورقة حينما استولى عليها صاحب أراجون عام 1230م، إذ فتك بسكانها المسلمين، واستُرقَّ الباقون على قيد الحياة ممَّن لم يختاروا الجلاءَ عن الجزيرة إلى الجزر القريبة منها أو إلى شمال افريقيا[41].

يقول ابنُ القنفذ القُسَنْطيني إنه في السنة التي بويع فيها أبو حفص عمر الأول، وهي سنة 1284/683م «أخذ النصارى جزيرةَ جربة، وأسروا من الشابِ القوي والشابةِ الحسناء ثمانيةَ آلاف، وقتلوا الصغار، ونهبوا الأمتعةَ والأموالَ والزيتَ والزبيب، فحُملوا في سفنهم التي هي في نحو السبعين، وفي سفن الجزيرة التي هي نحو الثلاثين»[42]. ويورد ابنُ خلدون مزيداً من التفاصيل عن أخذ الأراجون لجزيرة جربة، فهو يقول إن أمرَ الجزيرة استقام أيام الموحدين وفي الخمسينَ سنةً الأولى من حكم الحفصيين «ثم افترق أمرُهم [الحفصيين] بعد حين، واستبدَّ المولى أبو زكريا ابنُ السلطان أبي اسحاق

---

(41) O'Callaghan, J.F., *A History of Medieval Spain*, London 1975, p. 342.

(42) ابن القنفذ القسنطيني، ص 149-150.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

بالناحية الغربية، وشُغل صاحبُ الحضرة [أبو حفص عمر] بشأنه... فاستولت أساطيلُهم [الأراجون أصحابِ صقلية] على جزيرة جربة في رجب 683 [سبتمبر ـ اكتوبر 1284م] ورياستُها يومئذ من محمد بن سمومن شيخِ الوهبية ويخلَف بن امغار شيخ النكّارة... وزحفَ إليهم... صاحبُ صقلية... في أساطيلَ بحريةٍ، وكانوا فيما قيل سبعين أسطولاً من غِربانٍ وشواني، وضايقهم مراراً، ثم تغلّبوا عليها، فانتهبوا أموالَها، واحتملوا أهلَها أسرى وسبياً، يقال إنهم بلغوا ثمانيةَ آلافٍ بعد أن رَمَوْا بالرُضَّع في الجبوب، فكانت هذه الوقعةُ من أشجى الوقائع للمسلمين، ثم بَنَوْا بساحلها حصناً واعتمروه وشحنوه حاميةً وسلاحاً، وفُرض عليهم المغرمُ مايةَ ألفِ دينار في كل سنة»[43].

إن الحصنَ المشارَ إليه هو حصن القشتيل، الذي بناه روجيرو دي لوريا عام 1289م، ويقع شرقيَّ القنطرة عند الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة، ويسمِّيه أبو راس الجربي قصطيل الواد[44]. وهو برجٌ منيعٌ شُيِّد على غرار الحصون العديدة التي أقامها النصارى في مناطق الثغور باسبانيا، وها هو التجاني يصفه بعد ثماني عشرةَ سنةً من تشييده فيقول: «فرأيْنا حصناً يهول الناظرَ إتقاناً... وهو مربَّعُ الشكل، وفي كل ركنٍ منه برج، فاثنان منها مستديران، واثنان مُثمَّنان، وبين كل برجيْن من هذه في وسط الحائط برجٌ صغيرٌ مربع، ويدور به فصيل قصير، ويدور بجميع ذلك حُفرٌ متسعة»[45].

وقد وضع روجيرو الجزيرة تحت سيادة البابا، الذي منحه الجزيرةَ اقطاعيةً له ولخلفه من بعده، في مقابل ضريبة سنوية رمزية مقدارها خمسون ليرة ذهبية، فبقي وضعُ الجزيرة كذلك إلى سنة 1310م. ومما يذكر أن

---

(43) ابن خلدون: كتاب العبر، 6/ ص 849، 697.

(44) أبو راس الجربي، محمد: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تونس 1960، ص 75.

(45) التجاني: رحلة التجاني، ص 128.

النصارى أسروا في جربة مرغم بن صابر زعيمَ عرب الجواري ونقلوه إلى صقلية، حيث ظل رهنَ الاعتقال في مسِّينة إلى أن أُطلق سراحُه سنة 1290م[46].

وفرض المحتلُّون على أهل جربة قوانينَ تجاوزتْ في قسوتها حتى القوانينَ التي فُرضتْ على المسلمين في الجزائر الشرقية (البليار). وكان بطرس الثالث صاحبُ أراجون يستهدف منذ أن تمَّ الاستيلاءُ على جربة تنصيرَ أهلها، كما فعل في ميورقة ولذلك فإن روجيرو دي لوريا بادر ببناء الكنائس قرب برج القشتيل[47].

وبمقتضى معاهدةٍ عُقدتْ سنة 1285م إثر احتلال جربة، استطاع ملك أراجون ـ قطلونية أن يجبيَ من السلطان أبي حفص الجزيةَ السنويةَ التي كانت تُدفع في السابق للملك شارل أنجو[48]. وكان قد وقع في بادىء الأمر خلافٌ حول من يتسلَّم هذه الجباية: أهو صاحب صقلية أم ملك أراجون ـ قطلونية؟ واعترف الملكُ آخرَ الأمر بحق صاحب صقلية في تسلُّم الضريبة إذا استطاع ذلك. ويبدو أن احتلال جربة ـ ومنها يُمكن تهديدُ الساحل التونسي ـ مكَّن صاحبَ صقلية من جباية الضريبة إلى حين استرداد الحفصيين للجزيرة عام 1335م[49].

وفي عام 1307/706م، حاول الشيخ أبو يحيى زكريا بن اللحياني استردادَ جزيرة جربة، فحاصر حصنَ القشتيل شهرينْ كامليْن ونصبَ عليه المجانيق دون طائل، لمناعة الحصن وصمود حاميته. إلا أن التجاني ـ وكان مرافقاً لابن اللحياني ـ يذكر أن الحصنَ «إنما يُؤْخذ بالحصار والمطاولة» إذ «وَجدْنا قوماً

---

(46) روسِّي، اتُّوري: ليبيا منذ الفتح العربي، تعريب خليفة محمد التليسي، بيروت 1974، ص 100.

(47) Dufourcq, Charles-Emmanuel, *L'Espagne Catalane et le Maghrib*, Paris 1966, p. 266.

(48) دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية بالإنجليزية، 3/ ص 67، تحت مادة Hafsids.

(49) Merriman, R.B., *The Rise of the Spanish Empire*, vol.I, New York 1918, p. 361.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

قد أطالوا للحصار استعدادَهم. . . وكانت كثرُة الجيش الذي معنا من أعظم الأسباب في الإقلاع عنه، لانقطاع الأقوات بتلك الجزيرة، وتعذُّر الميرة»، فتقرَّر أن تُجهَّزَ فيما بعد جريدةُ خيلٍ محدودةُ العدد تتولَّى محاصرةَ الحصن[50].

ويذكر ابنُ خلدون أنه مرَّ بمدينة تونس في تلك الآونة قاصداً الحج ابراهيمُ ابنُ عيسى من بني وَسْنار، أحدُ أمراءِ بني مرين، وكان أميراً على الغُزاة بالأندلس، فاستنهضه السلطانُ على الإفرنج بجزيرة جربة، فسار إليها بقومه أثناءَ محاصرة ابن اللحياني لحصن القشتيل، فأقام معهم مدةً إلى أن انسحب ابنُ اللحياني من الجزيرة[51].

ومن الغريب أنَّ ابنَ اللحياني عند اجتماعه بشيخيْ النكَّارة والوهبية في جزيرة جربة كان همُّه الأولُ تحصيلَ المَجْبى من أهل الجزيرة، فضمن الشيخانِ له ذلك، دونَ مراعاةٍ منه لظروف أهل الجزيرة، وما حلَّ بهم من خسائرَ كبيرةٍ في الأرواح والأموال منذ احتلال النصارى لجزيرتهم[52].

وعلى أثر هذه المحاولة الفاشلة لتحرير الجزيرة، وقيامِ أهلها على المحتلِّين، استدعى صاحبُ صقلية فردريك الثالث (حَكَم صقلية 1295-1327م) المغامرَ القطلانيَّ رامون مونتامر (Ramon Muntamer) سنة 1311م، ومنحه الجزيرةَ كإقطاعيةٍ لمدة ثلاثِ سنوات (1311-1314م). ولِمنتامر هذا تاريخٌ تناولَ فيه الأحداثَ من سنة 1205 إلى سنة 1327م، وهو غنيٌّ بالمعلومات عن جزر البحر المتوسط، وتمجيدٌ لانتصارات القَطلان وقادتِهم. وقد تميَّز حكمُه للجزيرة بالصرامة والعنف؛ وبنهاية فترة حكمه آلت الجزيرةُ إلى الحكم المباشر لصاحب صقلية إلى سنة 1334م، حينما تمكَّن

(50) رحلة التجاني، ص 128. ابن القنفذ القسنطيني، ص 159.
(51) كتاب العبر، 905/5.
(52) رحلة التجاني، ص 128.

الجرابة، بمساعدة السلطان الحفصي، من طرد الحامية الأراجونية الصقلّية من الجزيرة[53].

في منتصف القرن الثامن/ الرابعَ عشرَ الميلادي، اجتاح بلدانَ حوضِ البحر المتوسط وباءُ الطاعون (الموت الأسود)، فهلك فيه خلقٌ كثير، وكانت له آثار اقتصاديةٌ واجتماعيةٌ كبيرة. وقد حلَّ بالبلاد التونسية حينما كان السلطانُ المرينيُّ أبو الحسن يحاول فتحَ البلاد، وعن هذا الوباء وأثره يقول ابنُ خلدون: «ثم جاء الطاعونُ الجارف فطوى البساطَ بما فيه»[54]. ولم يقتصرْ انتشارُ الوباء على شماليِّ البلاد التونسية في صيف عام 1348م، بل حلَّ كذلك بجزيرة جربة حيث «هلك ابنُ اللحياني [الوالي الجديد] لحين نزوله بجربة، بما أصابه من عِلَّة الطاعون الجارف [1348/349]»[55].

احتلال النصارى لجزيرة جربة ثانية (1388-1392م):

لعلَّ الحملةَ التي مهَّدتْ للحملة الجنوية الفرنسية ضد المهدية سنة 1390م كانت الحملةَ التي قام فيها، سنة 1388م، أسطول مشترك قوامه ثلاثة مراكبَ صقلية وخمسةُ مراكبَ بيزية واثنا عشرَ مركباً جنوياً، بمباغتة واحتلال جزيرة جربة. وكان على رأس هذه الحملة مانفريدو دي تشيارامونتي (Manfredo de Chiaramonte). ومع أن المراكبَ الجنوية قامتْ بالدور الرئيسي في احتلال الجزيرة، فإن مانفريدو ألحقَ الجزيرةَ بأراضي ملكة صقلية ماري (Marie) بعد أن دَفَع للجنويين مبلغَ 36·000 فلورين ذهبي، لقاءَ مساعدتهم.

---

(53) Hillgarth, I, p. 234.
Merriman, I, p. 359.
دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية بالإنجليزية، 459/2.

(54) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، القاهرة 1951، ص 27.

(55) كتاب العبر، 951/6.
Dols, M.W., *The Black Death in the Middle East,* Princeton University Press, Princeton 1977, pp. 63-65.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

وفي العام التالي، قام البابا إربان السادس ـ الذي كانت الملكةُ ماري قد تسلَّمتْ صقلية منه كإقطاعية ـ بتنصيب مانفريدو أميراً لجربة والجزر الصغيرة المجاورة في خليج قابس[56].

إن قرب البلاد التونسية من الجمهوريات البحرية الايطالية وصقلية اجتذب الكثيرين من تجار الغرب إلى أسواق العاصمة تونس، فضلاً عن مدن الساحل وجزيرة جربة. وكانت الصادرات التونسية تشمل الحبوبَ والتمورَ والبُسطَ والدروعَ الجلديةَ والعبيد. ومن المعروف أن فنادق للنصارى أُقيمت في المهدية وصفاقس وقابس وجربة[57].

لم يطُلْ هذه المرة احتلالُ الصقليين لجزيرة جربة، ففي عام 1392م، ثار أهلها وأعلنوا استقلالَهم حتى عن سلطان تونس، إلا أن هذا الأخير تمكَّن في عام 1399م من فرض سيادته على كلٍ من جربة وطرابلس[58].

وقد نصَّ اتفاقٌ تَمَّ التوصلُ إليه عام 1403م بين صاحب أراجون ـ وكانت صقلية تابعةً له ـ وبين السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز، على حصول السلطان على جزيرة قُوصَرة (بنطلارية) في مقابل التنازل لصاحب أراجون عن جزيرة جربة، إلا أن الاتفاق لم يوضع موضعَ التنفيذ[59].

وللمرة الأخيرة، حاول صاحب أراجون الاستيلاءَ على جزيرة جربة عام 1432/835م، فقام الملك الفونسو الرابع شخصياً بالإقلاع بأسطوله من برشلونة ماراً بسردانية وصقلية ومالطة، ثم توجَّه نحو جربة في صيف عام 1432م ونزل فيها[60]. فأسرع السلطانُ أبو فارس ـ وكان نازلاً بعَمْرة قرب قفصة ـ إلى نجدة

---

(56) Atiya, Aziz S., *The Crusade in the Later Middle Ages*, New York 1970, p. 398.

(57) نفسه، ص 401.

(58) روسِّي، اتوري: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 121.

(59) دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية بالإنجليزية، 4/ ص 805، يُنظر تحت مادة Kawsara.

(60) روسِّي، إتّوري: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 123، الحاشية رقم 24.

الجزيرة. وقد تعذَّر عليه أولَ الأمر العبورُ إلى الجزيرة من القنطرة، وكاد أن يقعَ في أيدي الغزاة، إلا أن بعض أهل الجزيرة أعلموه أن «للجزيرة طريقاً غيرَ القنطرة في البحر، فبعث معهم عسكراً أدخلوه الجزيرة، فلما رأى العدوُّ العسكرَ دخل الجزيرةَ من غير القنطرة، أيقن بالخيبة، فأقلع بأساطيله عن الجزيرة خائباً، وكانت إقامته عليها سبعةً وعشرين يوماً»[61]. ويورد محمد أبو راس الجربي مزيداً من التفاصيل عن هذه الغزوة الأراجونية فيقول: «هجمَ الإفرنج على الجزيرة، وكان أبو فارس بعساكره في أرض الجريد، واستمدَّه [أهل جربة] فقدِمَ إليها سريعاً، ودخل من طريق تاربلة خوضاً في البحر رجالاً وركباناً، ووجد أهلَ الجزيرة في أشد القتال، ونزل الإفرنج للبر، فهجم المسلمون عليهم هجمةً واحدةً في وقت نزوح البحر، ولم يجدوا للفرار سبيلاً، ووضعوا فيهم السيفَ، فلم يَبْقَ منهم إلا القليل، وبَنَوْا برؤوسهم برجاً كالمنارة، وهو باقٍ إلى الآن [زمن التأليف في حدود 1222/1808م]»[62]. وعلى الأثر بنى العربُ حصناً ثانياً في الجزيرة ، قرب أطلال جربة القديمة على الساحل الشمالي، عُرف باسم (البرج الكبير)، ونشأت حول أسواره بالتدريج بلدةُ (حومة السوق)[63].

أما المصادرُ المسيحيةُ المعاصرةُ فتتحدث عن انتصارٍ أحرزه صاحبُ أراجون في وقعةٍ يصفها زوريتا (Zurita) بعباراتٍ كلُّها فخر وازدهاء، غُنمتْ

---

(61) الزركشي، أبو عبد الله محمد: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس 1966، ص 129.

(62) محمد أبو راس الجربي: مؤنس الأحبَّة، ص 104-105.
يذكر المحقق محمد المرزوقي أن مكانَ البرج يقع على الساحل الشمالي بمرسى حومة السوق، قرب برج الغازي مصطفى. وقد بقيت جماجمُ القتلى في مكانها حتى أمر أحمد باي الأول بدفنها سنة 1848، وبُني في المكان نصبٌ تذكاريٌ به رخامةٌ نُقشَ عليها تاريخُ الوقعة وتاريخُ دفن الجماجم، ويُسمَّى الآن (برجَ الجماجم) ـ تُنظر الحاشية رقم 1، ص 105.

(63) دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية بالإنجليزية، 2/ ص 459، يُنظر تحت مادة Djarba.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

فيها غنائمُ وفيرة. ولما كان الفونسو يدرك عُقْمَ محاولةِ الاستيلاء على الجزيرة، فإنه لم يلبثْ أن تخلّى عن فكرة محاربة تونس، وقد كانت هذه الحملةُ في الواقع آخرَ حملةٍ قامت بها مملكةُ أراجون ضد جربة إلى زمن شارل الخامس، وهي تدلُّ على التخلّي، لمدة قرن من الزمن، عن خطط فرض السيادة السياسية على المملكة الحفصية، وهي الخططُ التي كانت في السابق الشغلَ الشاغلَ لملوك أراجون، كما تدلُّ على بداية فترةٍ أصبحت الصلاتُ التجاريةُ فيها تحتلُّ مكانَ الصدارة[64] وقد جرتْ مفاوضاتٌ طويلةٌ (1438-1456م) بقصد حماية التجارة بين أراضي صاحب أراجون وبين تونس، إلا أنها تعثَّرتْ بسبب أعمال القرصنة التي كانت تلقى تشجيعاً من سلطان تونس[64].

واهتمَّ العاهلان الكاثوليكيان ـ فرديناند وايزابيلا ـ في العقد الأخير من القرن الخامس عشر بفكرة الاستحواذ على جزيرة جربة، إذ يمكن لاسبانيا منها ـ مع مالطة ـ التحكُّمُ في البحر بين صقلية وتونس، ومع أن جربة لم يتمَّ الاستيلاءُ عليها بالفعل، إلا أن الخططَ الراميةَ إلى الاستيلاء عليها استمرَّتْ سنواتٍ عديدة[65].

وبعد أن تخلَّص أهلُ جربة من الاحتلال النصراني لجزيرتهم، لم يخضعوا طويلاً لحكم السلطان الحفصي. يقول الحسنُ الوزان [ليو الافريقي] الذي مرَّ بجربة في أوائل القرن السادسَ عشر إن الجرابةَ أعلنوا استقلالَهم عقب وفاة السلطان أبي عمر عثمان (1490م)، وقاموا ـ لحماية أنفسهم ـ من أي هجوم قد يقع على الجزيرة من ناحية البر ـ بتدمير المعبر الذي يصل الساحلَ الجنوبي بالبر[66].

---

(64) Hillgarth, II, p. 253.

(65) نفسه، ص 573.

(66) دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى بالانجليزية، ليدن ـ لندن 1913، 1/ ص 1038.

وبالرغم مما تعرَّضتْ له جربة من غزواتٍ وأعمال نهب وسلب وتقتيل منذ احتلال النورمان للجزيرة عام 1135م، وبالرغم كذلك من المنازعات الداخلية بين جماعتيْ الوهبية والنكَّارة، فإنها احتفظتْ برخائها. فقد دخل جربة في صيف عام 1447/851م الفقيهُ والعالِمُ الأندلسيُّ أبو الحسن علي القلصادي (المتوفى في باجة سنة 1486/891م) وهو يصفها بقوله «وهي كثيرةُ الخصب، وعمَّروها بالنخيل، والزيتون، والتفاح له رائحة عجيبة، ومما خُصَّت به ليِنُ الصوف ورطوبتُه، وتصير الشاةُ من غير الجزيرة فيها بعد إقامة سنةٍ مثلَ شياهها في رطوبة الصوف»[67].

واشتهرتْ جربة بتصدير الملح، والأكسية الصوفية (الزرابي)، فضلاً عن زيت الزيتون والزبيب والتمور. وذكر الرحالة أدورني (Adorne) في القرن الخامسَ عشر أن صاحبَ جربة كان يقبض من المجابي سنوياً عشرين ألف دبلون أو دوقة[68]. إلا أنه بعد منتصف القرن الخامس عشر، كان من نتيجة المجابهة بين الأتراك العثمانيين وبين الاسبان أن نشطتْ أعمالُ القرصنة في وسط البحر المتوسط، وأصبحت صقلية على التخوم بين فريقين في حالةِ حربٍ مدمِّرة. وقد طلب البرلمانُ في صقلية في عام 1458، ثم في عام 1474م، بأن يُسمح للجزيرة بالاحتفاظ بصلاتها التجارية مع افريقية، إلا أن اسبانيا كانت آنذاك تنتهج سياسةَ حمايةِ التجارة وفرضِ القيود على اقتصادها، كما أنها كانت كاثوليكيةً متطرفةً في عقيدتها، فلم تستجبْ لطلب الصقلِّيين. ومنذ عام 1480م، ازدادت غاراتُ المغاربة على سواحل صقلية. وقد سخر الملك فرديناند من وجهة النظر القائلة بأن الحفصيين في تونس قد يستفيدون من أوروبا المسيحية أكثر من استفادتهم من الأتراك، وعادت سياستُه هذه بالضرر على صقلية، ومكَّنت البندقيةَ ومرسيليا ولندن من

(67) القلصادي، أبو الحسن علي: رحلة القلصادي، تونس 1978، ص 123-124.

(78) دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية بالإنجليزية، 2/ ص 459.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الاستئثار بالتجارة مع تونس والمشرق[69].

إن صقلية ظلّت تنعم بالرخاء ما انتمتْ إلى عالم شمال افريقيا والمشرق، ولكنها حينما أُجبرت على الارتباط بغرب أوروبا، فإنها فقدتْ كثيراً من المزايا الاقتصادية. فبدلاً من أن يكون موقعُها الجغرافيُّ نعمةً عليها، فإنه أصبح عقبةً في وجهها، وبدلاً من أن يكون البحرُ المتوسطُ طريقاً رئيسياً للتجارة، فإنه أصبح حدّاً. لقد أصبحت صقلية بعد عام 1194م رقعةً صغيرةً على التخوم، إذ أصبحت تتبع عدداً متتالياً من الامبراطوريات الكبرى، فأصبح لزاماً عليها أن تساعدَ حملاتِ وحروبَ فردريك الثاني، وأراجون قطلونية، ثم اسبانيا، مع ما ترتَّب على ذلك من ضررٍ لمصالحها الخاصة، وما انطوى عليه من أعباءَ ماليةٍ جسيمةٍ، وتعرُّضِ سواحلها للغارات، وتعطيلٍ لتجارتها الطبيعية والمُجزية مع افريقية[70].

---

(69) Smith, D.M., *Medieval Sicily*, p. 134.

(70) نفسه، ص 64.

جزيرة قَوْصرة (بنطلارية) العربية

إن جزيرة قَوْصرة (بنطلارية حالياً) الجبلية البركانية الصغيرة (مساحتها 83 كم مربعاً أما عدد سكانها فيبلغ حوالي عشرة آلاف نسمة) التابعة لايطاليا تشغل موقعاً استراتيجياً مهماً في وسط البحر المتوسط، فهي تتحكم في الملاحة بين شرقي البحر المتوسط وغربيه، وبين جزيرة صقلية وساحل افريقية (تونس). ولذلك، فإن الدول التي تعاقبت في بسط نفوذها على حوض البحر المتوسط ـ ولا سيما على وسطه ـ حرصت على احتلالها، فكذلك فعل الفينيقيون والقرطاجنيون والرومان والبيزنطيون والعرب والنورمان والقطلان الإسبان وأخيراً الايطاليون. وفي الحرب العالمية الثانية اتخذ الايطاليون الجزيرة قاعدة بحرية وجوية ولذلك فإن الجزيرة تعرضت للقصف الشديد، فلحق بها دمار كبير على أيدي الحلفاء الذين احتلوها سنة 1943.

وقد سيطر العرب على جزيرة قَوْصرة منذ سنة 81هـ/ 700م إذا انتزعوها من أيدي الروم البيزنطيين الذين دأبوا على شن الغارات البحرية منها ومن مالطة وصقلية على سواحل افريقية الاسلامية. واتخذ الأغالبة جزيرة قوصرة قاعدة ومعبراً لافتتاح صقلية (212هـ/ 827م) ومحطة لرسو مراكبهم في غدوها ورواحها بين افريقية وصقلية، كما اتخذوا فيها محطة لحمام الزاجل ليتسنى

نقل الأخبار سريعاً بين ولاة صقلية وأمراء افريقية. والجزيرة تبعد نحو 100 كم عن ساحل صقلية و76 كم عن ساحل تونس ـ يقول الحميري «وجزيرة قوصرة تُرى من مدينة مازر. وتُرى أيضاً من اقليبية من بر افريقية لأن هذه الجزيرة جبل مشرف عالٍ جداً... وهي مكمن للغزاة من المسلمين والروم»[1].

إن جزيرة قَوْصرة عبر التاريخ كانت تتبع الدولة التي تسيطر على صقلية، وعلى ذلك فإن النورمان بعد استيلائهم على صقلية العربية في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي استولوا أيضاً على قوصرة ومالطة واتخذوهما قاعدتين للإغارة على ساحل افريقية ثم السيطرة على هذا الساحل مدة قصيرة من الزمن في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

وقد أسكن الأغالبةُ جزيرةَ قَوْصرة المسلمين من الساحل التونسي وبعض النصارى من أهل صقلية، وتَعرَّب هؤلاء تدريجياً لغةً وزياً وعادات، حتى إذا ما انتهت مرحلة السيادة العربية على صقلية والجزر التابعة لها، بقي مع ذلك الأثر العربي الاسلامي بارزاً في قوصرة إلى عهد قريب. وكان للمسلمين في قوصرة في القرن التاسع/ الخامس عشر قاض ينتخبونه من بينهم، ولعلَّ انتهاء الاسلام في الجزيرة حدث في القرن العاشر/ السادس عشر الميلادي أيام حكم الإسبان الذين فعلوا بمسلمي قوصرة ما فعلوه بمدجَّني المسلمين في الأندلس، وهو حملهم قسراً على التنصر أو النزوح عن الجزيرة. ومع ذلك نجد أن لهجة قوصرة القريبة من اللهجة الصقلية غنية بالمفردات العربية كما أن كثيراً من أسماء الأماكن في الجزيرة عربية الأصل.

قَوْصرة في التاريخ القديم: إن الفنيقيين، وقد اتسع نطاق تجارتهم في

(1) الحميري، محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1975، ص 486.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

غـربي البحر المتـوسط، استوطنـوا جزيـرتي مالـطة وغوزو قبـل القرن الثـامن ق.م. واتخذوا من موانئهمـا محطات لرسو مـراكبهم. ولا بـد من أن جزيـرة قـوصرة هي الأخـرى بحكم موقعهـا، قد احتُلّت في الـوقت نفسه، ولكننـا لا نعلم مـا إذا كان احتـلالها قـد تم على أيدي الفنيقيين مبـاشـرة أو على أيـدي المستوطنين الفنيقيين في جزيرة مالطة. ولما كان لجزيرة قوصرة مرسى طبيعي جيد على ساحلها الشمالي الغـربي، فإن من المحتمـل أن هذا المـرسى كان أول نقطة لنزولهم واستقرارهم في الجزيـرة، ولعلَّ اسم الجـزيرة في العصـور الكلاسيكية وهو (Cossyra) مشتق من أصل فينيقي.

ومع أنه يبدو أن القرطاجنيين سيطروا على جزيرتيْ **مالطة** وغوزو منذ القرن السادس ق.م.، إلا أن جزيرة قَوْصرة لم تخضع لسيـطرتهم، إذ إن الروايـات التاريخية الرومانيـة في القرن الثـالث ق.م. عن الحرب البـونية الأولى تـذكر انتصاراً «على القوسريين والقرطاجنيين»، مما يـوحي بأن قـوصرة كـانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي.

وكما حدث بالنسبة إلى شمـال افريقيـا، فإن الثقـافة البـونية لم تختفِ من هذه الجزر إلا ببطء برغم استيلاء الرومان عليها كما تدل على ذلك العمـلات التي تحمل كتابات منقوشة بونية والتي ضُربت في مالطة وقوصرة حتى القرنين الثـاني والأول ق.م.[2] ومما يُـذكر أن الـرومان اتخـذوا جزيـرة قوصـرة منفىً للمغضوب عليهم[3].

تسميـة الجزيـرة ومواردهـا: رسم البكري اسمَ الجـزيرة (قُـوسرة)[4] وهـو الاسم الذي عُرفتْ به الجزيرة في العصور القديمة Cossyra، بمعنى السلة أو

---

(2) Moscati, S. *The World of the Phoenicians,* London 1973, pp. 238-239.

(3) *Collins English Dictionary,* London 1979, p. 1061.

(4) البكري، أبو عبيد عبد الله: **المُغـرب في ذكر بـلاد المغرب** (قـطعة مستخـرجة من كتـاب **المسالك والممالك**)، تحقيق دي سلان، باريس 1965، ص 45.

السَفط أو القَرْطل. ولعلَّ الجزيرة اكتسبت هذه التسميةَ للتشابه بين شكلها وشكل السلة أو القَرْطل. ويقول ياقوت الحموي: إن القوصرة لغةً هي وعاء التمر[5]. ويورد حسن حسني عبد الوهاب بيتاً من الشعر يُنسب إلى علي بن أبي طالب، كرَّم الله وجهَه وهو:

أفلح من كانت له قَوْصرَّة يأكل كلَّ يوم منها مرَّة[6]

إن الاسم الحديث للجزيرة وهو بنطلارية (Pantellaria/ Pantelleria) أُطلق على الجزيرة منذ القرن الحادي عشر وذاع بعد حكم القطلان الإسبان لها في أواخر القرن السابع/ الثالث عشر للميلاد، ومن الغريب أن هذه التسمية لها نفس المعنى القديم لاسم الجزيرة.

وبالرغم من كون قَوْصرة جزيرةً جبلية، وبالرغم كذلك من افتقارها إلى المياه العذبة، فإن الجغرافيين العرب القدامى تحدثوا عن وفرة غلاتها الزراعية. فالإدريسي يقول: إنه تكثر فيها أشجار الزيتون، وفيها معز كثيرة برية[7]. ويقول ابن سعيد ـ وكذلك أبو الفداء ـ إن من جزيرة قَوْصرة تُجلب شريحة التين والقطن وبها المصطكي[8]. أما صاحب (الروض المعطار) فيقول إنها «مقطع للخشب الجيد ويحمل منه إلى صقلية»[9].

---

(5) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: **معجم البلدان**، الجزء الرابع، بيروت، ص 413.

(6) حسن حسني عبد الوهاب: «قصة جزيرة قوصرة العربية»، **ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية**، القسم الثاني، تونس 1966، ص 282، الحاشية رقم 1.

(7) الإدريسي، أبو عبد الله محمد (الشريف): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. (قطعة في المكتبة العربية الصقلية، تحقيق م. أماري، ليبسك 1857)، ص 24.

(8) ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت 1970، ص 144.
أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل: **المختصر في أخبار البشر** (قطعة في المكتبة العربية الصقلية، تحقيق م. أماري. ليبسك 1857)، ص 148.

(9) الحميري: **الروض المعطار**، ص 486.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

وكما هو معروف، فإن العرب منذ أيام الأغالبة أدخلوا إلى صقلية والجزر المجاورة لها عدةَ محاصيل زراعية جديدة منها القطن والحمضيات، وما زالت الحمضيات عماد اقتصاد صقلية. وقد انتهت زراعة القطن في جزيرة صقلية منذ القرن الرابع عشر الميلادي، أي منذ أن نزح عن الجزيرة مزارعوها المسلمون، أما في قَوْصرة فما زالت زراعة القطن إلى يومنا هذا، ذلك لأن السكان المسلمين ظلوا في الجزيرة تحت عهد من أصحاب صقلية النصارى[10]. كما كان أهل قَوْصرة يزاولون صيد الأسماك «ويربون نوعاً ممتازاً من البغال»[11].

السيادة العربية على قَوْصرة: يعود إلى معاوية بن أبي سفيان ـ أيام ولايته على بلاد الشام ـ الفضل في إنشاء أول أسطول عربي في البحر المتوسط، لدرء الغارات التي ما انفك الروم البيزنطيون يشنُّونها على سواحل الشام ومصر. ثم ازداد نشاط العرب البحري بعد فتح بلاد المغرب وانشاء دار صناعة السفن في تونس على يد الوالي حسان بن النعمان الغساني حوالى سنة 80هـ/ 699م. وقد اتخذ الروم البيزنطيون، بعد فقدانهم افريقية من صقلية وقَوْصرة ومالطة قواعدَ لسفنهم التي ظلَّت تُغير منها على سواحل افريقية وبرقة، ولذلك أقام العرب المحارس والرباطات على طول ساحل افريقية واهتموا ببناء أسطول في دار الصناعة بتونس، ولم يلبثوا أن أخذوا بزمام المبادرة لانتزاع الجزر من أيدي الروم، فأغزوا صقلية وقَوْصرة أكثر من مرة قبل افتتاحهما في عهد الأغالبة. يقول البكري: «أغزى عبد الملك بن مروان عبد الملك بن قطن [الفهري سنة 81هـ/ 700م في ولاية موسى بن نصير] في

---

(10) Gabrieli, F..«Islam in the Mediterrannean,» *Legacy of Islam* (Second Edition). Oxford 1974, p. 75.

(11) Braudel, F. *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II,* London 1978, p. 144.

البحر، ففتح ما كان هنالك من الجزاير والقصور، خرَّبها وقفل ظافراً»[12]. إلا أن ياقوت الحموي يذكر أن فتح قَوْصرة كان قبل ذلك في أيام معاوية بن أبي سفيان. وبقيت الجزيرة في أيديهم إلى أيام عبد الملك بن مروان، ثم خربت[13]. ويعتقد حسن حسني عبد الوهاب بأن استيلاء المسلمين النهائي على قَوْصرة كان حوالى سنة 130هـ/ 748م على يد الأمير عبد الرحمن ابن حبيب الفهري الذي كان قد استقل بأمر افريقية في أواخر أيام الدولة الأموية بالمشرق[14]. ومهما يكن من أمر، فإن العرب ـ كالروم ـ أدركوا أهمية الجزيرة الاستراتيجية، ولذلك قال عنها الحميري إنها «مكمن للغزاة من المسلمين والروم»[15].

ولما استولى العرب على قَوْصرة سنة 81هـ/ 700م، انتقل البيزنطيون منها إلى جزيرة صقلية، وقد استفاد العرب من سيطرتهم على قوصرة حينما جهزوا حملتهم لافتتاح صقلية في عهد الأغالبة[16]. ومع أنه لا يُعرف معرفة محددة تاريخ استيلاء الأغالبة النهائي على جزيرة قَوْصرة، إلا أنه يبدو أن الجزيرة كانت بأيديهم حوالي سنة 250هـ/ 864م. وبعد هذا التاريخ تعرَّبت الجزيرة تماماً وسادها الإسلام وظلت تشكِّل جزءاً من افريقية إلى أيام الموحدين[17].

وقد أسكن الأغالبة جزيرةَ قَوْصرة بعضَ نصارى صقلية، كما انتقل إلى الجزيرة فلاحون من الساحل التونسي المقابل، وتم بذلك امتزاج السكان، مسلميهم وذمِّييهم، وانتشرت في الجزيرة اللغةُ والتقاليدُ العربية[18]. ولعلَّ

---

(12) البكري: **المُغرب في ذكر بلاد المغرب**، ص 45.

(13) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، الجزء الرابع، ص 413.

(14) حسن حسني عبد الوهاب: **ورقات**، القسم الثاني، ص 289.

(15) الحميري: **الروض المعطار**، ص 486.

(16) Lewis, B., *The Arabs in History*, London 1950, p. 116.

(17) *EI²* = *The Encyclopaedia of Islam* (New Edition), vol. IV, Leiden 1976, S.V. Kawsara, p. 805 (M. Talbi).

(18) حسن حسني عبد الوهاب: **ورقات**، القسم الثاني، ص 290.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

الأغالبة جعلوا على قَوْصرة عـاملاً مستقـلاً وقاضيـاً. فلم تكن الجزيـرة تابعـة للوالي في بلرم[19]. كمـا أن الأغالبـة هم الـذين أدخلوا إلى الجـزيـرة زراعـة القطن، واحتفظ أهل الجزيرة إلى يومنا هذا بالأسمـاء العربيـة المتصلة بحلج القـطن ونسجـه مثـل محلوج (mulugiu) ورَدَّانـة (ruddana)، وهي الخشبـة المستعملة لغزل القطن[20].

وقد اتخذ الأغالبةُ جزيرةَ قَوْصرة محطةً لأساطيلهم، كما أقامـوا فيها مـراكز لحمـام الزاجـل، أو حمام البـطاقة كمـا يسميه ابن خلدون، تسهيـلاً لوصـول الرسائل سريعاً إلى القيروان، ولا سيما فيما يتعلق بتحركات سفن الروم.

وبعـد قيام دولـة العُبَيْديين في افـريقية وانتهـاء حكم بني الأغلب (296هـ/ 909م) نزح بعض الإباضية بسبب اضطهاد الشيعة الإسمـاعيلية لهم واستقـروا في جزيرة قَوْصرة. يقول ياقوت: «قيل إن في أيامنا هذه [أوائل القرن السابـع الهجري/ الثالث عشر الميلادي] فيها قوم من الخوارج الوهبية»[21].

وقـد قامت جـزيرة قَـوْصرة بـدوْرٍ مهمٍ في الصراع البحـري بين دولـة بني زيـري في القيروان والـروم الطامعين في صقليـة. ويذكـر ابن الأثيـر أن أميـر القيروان المعز بن بـاديس جهز أسـطولاً كبيراً لنجـدة مسلمي صقلية في سنـة 444هـ/ 1052م «فسـاروا إلى قَوْصـرة، فهاج عليهم البحـر فغرق أكثـرهم ولم ينـج منه إلا القليـل»[22]. ويـذكـر الحميـري أنـه كـانت في جـزيـرة قَـوْصـرة للمسلمين على الـروم أيام صمصـام الدولـة ـ آخر ولاة الكلبيين في صقليـة ـ «وقيعة مجحفة، ومَقْتلة عظيمة»[23].

---

(19) المرجع السابق، ص 302.

(20) المرجع السابق، ص 291.

(21) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، الجزء الرابع، ص 413.

(22) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد: **الكامل في التاريخ**، الجزء الثـامن، بيروت 1978؛ ص 158.

(23) الحميري: **الروض المعطار**، ص 486.

ويبدو أن النورمان، قبل أن يفرغوا من الاستيلاء على صقلية احتلوا جزيرة قَوْصرة لدرء غارات المسلمين عن سواحل صقلية. ويذكر ابن الأثير أن النورمان وحلفاءهم من البيشانيين والجنويين أعدوا سنة 480هـ/ 1087م ـ بسبب غارات المسلمين على سواحل صقلية ـ أسطولاً مؤلفاً من أربعمائة قطعة، واجتمعوا بجزيرة قَوْصرة. فكتب أهل قوصرة كتاباً إلى الأمير الزيري تميم بن المعز بن باديس صاحب المهدية على جناح طائر يذكرون وصولهم وعددهم وحكمهم على الجزيرة. وقد مجَّد البيشيون احتلالَهم للمهدية وزَويلة في قصيدة بعنوان (Carmen in victoriam Pisanorum)، وفيها أربعة أبيات تشير إلى احتلالهم لجزيرة قَوْصرة وفتكهم بسكانها المسلمين، في طريق الغزاة إلى المهدية[24].

قَوْصرة بعد انتهاء السيادة العربية عليها:

أ ـ **فترة حكم النورمان**: لقد دامت السيادةُ العربيةُ على جزيرة صقلية أكثر من قرنين ونصف القرن (827-1091م)، وأما جزيرة قَوْصرة فقد استوطنها العرب وحكموها زهاء أربعمائة سنة. ولما شُغل النورمان بإتمام فتح صقلية وتوطيد حكمهم فيها، فإنه يبدو أنهم لم يسيطروا على قَوْصرة نهائياً إلا في سنة 517هـ/1123م، في طريقهم لغزو ساحل افريقية. يقول ابن الأثير إنه في تلك السنة «سار الأسطولُ الفرنجيُّ في ثلاثمائة قطعة... فرمتهم الريح وغرق منهم مراكبُ كثيرة، ونازل من سلم منهم جزيرة قَوْصرة، ففتحها وقتل من بها وسبى وغنم، وساروا عنها فوصلوا إلى افريقية ونازلوا الحصن المعروف بالديماس...»[25]. ويشير كبيرُ شعراء صقلية عبدُ الجبار ابن

---

(24) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، الجزء الثامن، ص 147.

Cowdrey, H.E.J. «The Mahdia Campaign of 1087» *English Historical Revue*, No. 362-Jannuary 1977, p. 25 (Lines 15-18).

(25) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، الجزء الثامن، ص 312.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

حَمْديس إلى هزيمة الروم في رأس الديماس، وقد كان إذ ذاك في المهدية:

وَقُوصِرَةٌ فيها رؤوسُ جدودهم إلى اليوم ملآنُ بأفلاقِها العفرُ

ولا شك في أن الشاعر يشير هنا إلى جزيرة قَوْصرة ذاتها، لا إلى إناء أو مستودع إطلاقاً، كما ورد في ديوان ابن حَمْديس[26].

ولما عزم صاحبُ صقلية النورماني رجار الثاني على احتلال المهدية سنة 543هـ/ 1148م. عهِدَ بذلك إلى مقدَّم أسطوله جورج الأنطاكي «فقصد قَوْصرة وصادف بها مركباً من المهدية، فغنمه، ووجد عندهم حمامَ البطاقة، فبعث الخبرَ للمهدية في أجنحتها بأن أسطول الفرنج أقلع إلى القسطنطينية»[27]. ويبدو من ذلك أن صاحبَ المهدية كان يُرسل المراكبَ مزوَّدةً بحمام الزاجل إلى مياه قَوْصرة، المتوسطة الموقع بين المهدية وصقلية، لموافاته بأخبار تحركات أساطيل الروم في اتجاه سواحل افريقية على وجه السرعة، للتأهب لملاقاتها، كما أن المقدَّم جورج الأنطاكي استعمل الحمام نفسه للتمويه على صاحب المهدية ومباغتة المدينة. وقد سيطر النورمان على أكثر مدن ساحل افريقية من طرابلس الغرب إلى عنابة بضع عشرة سنة إلى أن حرّرها الموحدون، وكان آخرَ ما حرَّرُوه من المدن المهديةُ سنة 555هـ/ 1160م. ويبدو أن الموحدين استردوا كذلك جزيرة قَوْصرة، إلا أن حكمهم للجزيرة لم يطُلْ[28].

إن السكان المسلمين في صقلية والجزر المجاورة ظلوا فيها أثناء فترة حكم النورمان لها. ولما كان النورمان قلّةً وكانوا يواجهون عداءَ الكنيسة وأمراء الإقطاع، ونظراً إلى اعتمادهم على المسلمين في الجيش والزراعة

(26) ابن حَمْديش، عبد الجبار: **ديوان ابن حَمْديس**، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1960، ص 255 الحاشية 3.

(27) ابن خلدون، عبد الرحمن: **كتاب العِبَر**، الجزء الخامس. بيروت 1959، ص 433.

(28) *EI*², IV, p. 805.

والصناعة والإدارة، فإن ملوكهم انتهجوا نحو المسلمين من رعاياهم إجمالاً سياسةَ اللين والمداراة، وقاوموا سياسةَ التنصير التي كانت تسعى إليها الكنيسة. ومع أن ملوك النورمان شجعوا استيطانَ صقلية من قبل اللمبارد والنورمان، إلا أن هذا الاستيطانَ يبدو أنه اقتصر على صقلية ولم يُبْدِ المستوطنون النصارى الجُدُد رغبةً في سكنى الجزر النائية كمالطة وقَوْصرة. فبعد استيلاء النورمان على مالطة، عرض رجار الثاني أن يبني قريةً للأسرى من النصارى الذين مُنحوا حريتهم في الجزيرة، كما عرض أن يقدِّم لهم المالَ ويخفِّضَ الضرائب، إلا أن العرض مع ذلك لم يُغْرِهم على البقاء في الجزيرة[29].

ب ـ **فترة حكم الألمان من أسرة هوهنشتاوفن**: بعد قرن من الحكم النورماني، آلت صقلية والجزرُ التابعةُ لها إلى حكم أسرة هوهنشتاوفن الألمانية، وأشهر ملوكها فردريك الثاني (1198-1250م). وقد دامت ثوراتُ المسلمين في مستهل حكمه نحو عشرين عاماً بزعامة محمد بن عباد العبْسي. ولما تمكَّن فردريك من قمع حركة الثائرين بمنتهى العنف، لجأ إلى سياسة ترحيل المسلمين عن صقلية عام 1225م إلى مستوطنةٍ خصَّصها لهم في جنوب إيطاليا هي مستوطنة لوشيرة/ لوجارة (Lucera)، ولما تجدَّدتْ ثوراتُ مَنْ بقي من المسلمين في صقلية بعد ذلك بعشرين عاماً، نقلَ كلَّ من بقي منهم في صقلية إلى لوشيرة (1246م)، ومع ذلك نجد أن سلاطين المسلمين في المشرق والمغرب كانت تربطهم بفردريك الثاني صلاتٌ ودية. ويبرر بعضُ المؤرخين المحدَثين سياسةَ فردريك الثاني تجاه مسلمي صقلية بسخطه على أية ثورة في مملكته، لا لتعصبه ضد العرب والمسلمين[30]. أما بالنسبة إلى جزيرة قَوْصرة، فقد عقد فردريك الثاني معاهدةً مع السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى ـ مدتها عشر سنوات ـ سنة 1231م. وهي تشتمل

(29) Smith, D.M. *Medieval Sicily*, London 1969, p. 23.

(30) المرجع السابق، ص 59-60.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

على بند ينص على ألاَّ يُولَّى على مسلمي قَوْصرة نصراني. بل يُولَّى عليهم مسلم من أهل صقلية»[31]. ويبدو أن المعاهدة أبقت لمسلمي قوصرة شيئاً من الاستقلال الداخلي ادارياً وقضائياً. وتنص المعاهدة كذلك على أن يتقاسم صاحبُ صقلية وصاحبُ تونس خراجَ الجزيرة مناصفةً بينهما. وقد وصف مؤرخ معاصر هذا الحكمَ الذي ساد في قَوْصرة بأنه حكم ثنائي (condominium) من جانب فردريك الثاني والسلطان الحفصي[32]. ويقول مؤرخٌ معاصرٌ آخر: إن المصالحَ التجاريةَ للدول المسيحية في حوض البحر المتوسط أملتْ عليها اتباعَ سياسة سلمية في الغالب تجاهَ سلاطين شمال افريقيا «وخيرُ مثلٍ على ذلك نظامُ الحكم الثنائي الإقطاعي الصقلّي التونسي الغريب والدائم في جزيرة بنطلارية»[33].

وقد ساءَت أحوالُ المسلمين في جزيرة قَوْصرة بعد وفاة السلطان أبي زكريا (647هـ/ 1249م). يقول ابن خلدون: «ولما بلغ الخبرُ بمهلك الأمير أبي زكريا... إلى صقلية... تعدَّى [فردريك الثاني] إلى جزيرة مالطة وقَوْصرة، فأخرج المسلمين الذين كانوا بهما. وألحقهم بإخوتهم [في لوشيرة] واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها. ومحا عنها كلمةَ الإسلام بكلمة كفره..»[34]. والواقع يدل على أن مسلمي قَوْصرة لم يتمَّ إبعادُهم جميعاً عن الجزيرة. ومما يدل على ذلك بقاءُ عدد منهم فيها طوال القرنين التاليين. ثم إن موقف صاحب صقلية الخاص بترحيل المسلمين عن قَوْصرة لا بد من أنه اتُّخذ في الوقت نفسه الذي اتخذ فيه قرار ترحيل إخوانهم مسلمي صقلية، إلى مستوطنة لوشيرة، دون أن تكون للقرار علاقة مباشرة بوفاة السلطان الحفصي أبي زكريا.

---

(31) Daniel, N. *The Arabs and Mediaeval Europe,* London 1975, p. 162.

(32) Smith. p. 134.

(33) Luttrell, A. *«The Crusade in the Fourteenth Century», Europe in the late Middle Ages.* London 1970. p. 138.

(34) ابن خلدون: كتاب العِبَر، الجزء الثامن، ص 626.

ج ـ **الفترة الارجونية الاسبانية**: خضعتْ صقليةُ والجزرُ المجاورةُ لها لحكم أسرة أنجو الفرنسية، المعروفة بشدة تعصُّبها الديني، مدةً قصيرة (1266-1282م). ثم آلتْ الجزيرةُ إلى حكم صاحب أراجون (قطالونيا)، ثم إلى حكم الإسبان بعد اتحاد قشتالة وأراجون في أواخر القرن الخامسَ عشرَ الميلادي. وفي هذه المرحلة، انتهى الوجودُ الإسلامي في جزيرة قَوْصرة، ولعلَّ ذلك حدث في أواخر القرن السادسَ عشرَ الميلادي. فحلَّ بمسلمي قَوْصرة ما حلَّ بإخوانهم مدجَّني الأندلس، المعروفين بالموريسكيين، والذين طُردوا من اسبانيا فنزحوا إلى أقطار المغرب واستقروا فيها. وكان هذا المصيرُ أيضاً من نصيب مسلمي قَوْصرة الذين نزح مَنْ لم يقبل التنصرَ منهم إلى الساحل التونسي. ويذكر حسن حسني عبد الوهاب أنه توجد في منطقة قليبية جاليةٌ وفدتْ عليها من قَوْصرة منذ مائة عام تقريباً ـ ويقرب عددهم من مائة نفر ـ واشتغلت بالزراعة. وقد تعرَّبتْ هذه الجاليةُ لغةً وعاداتٍ مع تمسكها بالدين المسيحي[35]. ويسمِّي أهالي مدينة قليبية إلى الآن الريحَ الشمالية الشرقيةَ التي تهبُّ على بلدهم بالريح القوصريّ لهبوبها من جهة جزيرة قَوْصرة.

وقد عُرفتْ الجزيرة عند النصارى منذ القرن الحادي عشر الميلادي باسم (بَنْطلارية (Pantellaria))، وهو الإسم الذي ترسَّخ وذاع منذ أيام حكم القطلان للجزيرة في أواخر القرن الثالثَ عشرَ. وحلَّت هذه التسميةُ في العصور الحديثة محلَّ التسميةِ القديمةِ (قَوْصرة)[37].

ويذكر العمري (منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) «أن بِقَوْصرة جماعةً من المسلمين تحت الذمة على مقرٍّ لهم، ومثلُ هؤلاء

---

(35) حسن حسني عبد الوهاب: **ورقات**، القسم الثاني، ص 279.

(36) المرجع السابق، ص 278.

(37) Cowdrey, p. 25. *EI²*, IV, p. 805.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

إذا كانوا تحت أيدي الفرنج يُعرفون في بلاد المغرب بالمدجَّنين»[38].

ولم يتخلَّ سلاطينُ الحفصيين نهائياً عن فكرة استرداد جزيرة قَوْصرة، فقد نصَّ اتفاقٌ عام 1403م على سيطرة صاحب أراجون ـ الذي كانت صقلية تابعة له ـ على جزيرة جربة في مقابل حصول سلطان تونس الحفصي على جزيرة قَوْصرة، إلا أن الاتفاقَ لم يوضعْ موضعَ التنفيذ[39].

وقد احتفظت جزيرةُ قَوْصرة بأهمية موقعها في وسط البحر المتوسط، واستغل هذا الموقعَ غزاةُ البحر والقرصانُ من المسلمين والنصارى. ففي سنة 1305م استولى القشتالي جاسبير دي كاستلينو في مياه طرابلس على سفينةٍ محمَّلةٍ بالبضائع وتحوَّل بغنيمته إلى جزيرة قَوْصرة[40]. وفي شهر أغسطس سنة 1553م ـ وبعد أن حل درغوت محل سنان باشا في قيادة الأسطول العثماني ـ غزا الأسطول ـ في طريقه إلى غزو سواحل صقلية وإيطاليا ـ جزيرةَ قَوْصرة ونهبَها. ثم توجَّه إلى ميناء ليكاتا (Licata)، وهو ميناء تصدير القمح في صقلية[41].

سكان جزيرة قَوْصرة وتأثرهم بالعرب: لقد ظل سكانُ جزيرة قَوْصرة مسلمين مدة طويلة من الزمن. وها هو ياقوت الحموي (ت. 626هـ/ 1228م) يذكر أنهم كانوا في مستهل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من الخوارج الوَهْبية[42]. وقد حرص الحكام النصارى على إبقائهم في الجزيرة للاستفادة منهم اقتصادياً. ففي سنة 1438م، شكا صاحب أراجون

---

(38) العمري، أبو العباس أحمد: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** (قطعة في المكتبة العربية الصقلية، تحقيق م. أماري، ليبسك 1857)، ص 150.

(39) EI², IV, p. 805.

(40) روسي، إتُّوري: **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911**. تعريب خليفة محمد التليسي، بيروت 1974، ص 134.

(41) Braudel, p. 927.

(42) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، الجزء الرابع، ص 413.

إلى سلطان تونس الحفصي من أن بعض رجال الدولة الحفصية كانوا يشجّعون مسلمي قَوْصرة على الهجرة من الجزيرة، وطالب بعودة النازحين. بل وباستيطان آخرين من افريقية في الجزيرة[43]. ومما يُذكر في هذا المجال، أن أصحاب صقلية الإسبان درجوا على سياسة منح الجزر القريبة من صقلية كإقطاعات لعدد من الأسر، وكانت قَوْصرة من نصيب أسرة ريكويسين (Requesens) التي استعمرت الجزيرة[44]. وفي مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي كان النصارى والمسلمون في قَوْصرة يرتدون زياً واحداً، ويتكلمون لغةً واحدة هي العربيةُ القريبةُ من لهجة أهل جزيرة مالطة[45]. ولما فرَّ من الأسر في مدينة تونس التاجرُ البروفنساليُّ (من جنوب فرنسا) جان بونيه (Bonnet) عام 1670م، ووصل إلى جزيرة قَوْصرة، لاحظ أن لغة أهل الجزيرة شبيهة باللغة المالطية ـ أي أنها لهجة عربية[46].

ويُستفاد مما أورده الفقيهُ ابنُ ناجي القيرواني (ت. سنة 839هـ/ 1436م) أن جزيرة قَوْصرة كان يقطنها آنذاك المسلمون والنصارى، وأنه كان للمسلمين بها قاضٍ، وأنهم كثيراً ما كانوا يترددون على الموانىء التونسية. يقول ابن ناجي «وجرى لي، وأنا قاضي بجربة [حوالى سنة 800هـ/ 1398م] أن قُدِّم لي رسمٌ فيه شهادةُ قاضي قَوْصرة، يذكر حقَّ شهود من عِلْمه، فطلب مني العارضُ أن أوقِّعَ على خطه، فلم أمكِّن صاحبَه من ذلك لأنهم [مُسلمي قَوْصرة] قادرون على التحيُّل في الخروج منها، وربما يخرج بعض مَنْ فيها ويعود إليها، وهم تحت حكم الكفار»[47].

ويشير العلامة التونسي حسن حسني عبد الوهاب إلى فتوى صادرةٍ عن

---

(43) *EI²*, IV, p. 805.

(44) Smith, p. 196.

(45) المرجع السابق، ص 136.

(46) المرجع السابق، ص 136. *EI²*, IV, p. 805.

(47) حسن حسني عبد الوهاب: **ورقات**، القسم الثاني، ص 300.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الإمام البَرْزَلي (ت. 841هـ/ 1438م) يقول فيها: «ومثله عندنا بافريقية أهل قَوْصرة، فإنها تحت إيالة أهل الكفر، وقد اختار بعضُهُم الإقامةَ بها، فمن غُلب على أمره منهم فله مندوحة، وليس بجُرحةٍ في حقه، لأنه كالمُكْرَه، ومن كان باختياره فهو جُرْحة، وحكمُ ما له يجري على ما سبق، وهم [مسلمو قَوْصرة] ونحوهم من أهل الأندلس يُسمَّون بالدَجَن»[48].

وفي مقالٍ ممتع عن جزيرة قَوْصرة للعلامة التونسي المرحوم حسن حسني عبد الوهاب يذكر أن عاداتِ سكان قُوْصرة كانت إلى عهد قريب عاداتٍ عربية، فكانوا يلبسون الشاشيةَ التونسيةَ الحمراء غطاءً للرأس، والقشَّابية الصوفية، كما أن النساء كنَّ إلى أمد قريب يتحجَّبن عند الخروج من منازلهنَّ بحيث لا تبدو سوى عيونهن[49].

ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إن المفرداتِ من أصل عربي في لهجة أهل قَوْصرة من الكثرة بحيث تكفي لإعداد معجمٍ بها. ومن هذه المفردات زبيب (Zebibo) وسكَّارة (قُفل) وحِفيان. لا بل إنهم احتفظوا بشخصية جُحا وباسمه العربي (Giufa). وأما أسماءُ الأماكن بقَوْصرة فهي عربية بنسبة 80%. ومنها على سبيل المثال: الحمَّة، بَوْيْرة، سداري، المرسى، الكدية (أي الربوة)، جبل، المُنية[50]. بل إن المؤرخ الفرنسي بروديل يقول «إن مالطة ـ جزيرة الفرسان ـ وبنطلارية احتفظتا بسكانهما العرب ولهجتَيْهما العربيَّتَيْن إلى يومنا هذا»[51].

---

(48) المرجع السابق، ص 301.

(49) المرجع السابق، ص 313.

(50) المرجع السابق، ص 308-312.

(51) Braudel, p. 150, n. 182.

دور صقلية في انتقال العلوم والمعارف العربية الى أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد

تمهيد

بدأ افتتاحُ العرب لجزيرة صقلية من أيدي الروم البيزنطيين في عهد الأغالبة أمراء افريقية في صيف عام 212هـ/ 827م، وسُرعان ما استولَوْا على معظم الجزيرة واتخذوا بلرمُ عاصمةً لهم. وقد بقيت جزيرةُ صقلية تحت السيادة العربية نيِّفاً وقرنين ونصف القرن من الزمن (212-484هـ/ 827-1091م). كما سيطر العربُ على جنوب ايطاليا (قِلّوريَّة وبولية) لعدة سنوات، وأقاموا إمارةً عربيةً بمدينة باره (باري) عاشتْ نحو ثلاثين عاماً.

وقد بلغت جزيرةُ صقلية أوجَها الحضاريُّ في عهد ولاتها الفاطميين بني أبي الحسين الكلبيين (336-431هـ/ 947-1040م). إن فترةَ السيادة العربية على جزيرة صقلية تميَّزت إجمالاً بالتسامح الديني والارتقاء الحضاري، كما تميَّزت بالازدهار الزراعي والنشاط التجاري.

أحدث العربُ تغييراً مهماً في نظام مِلْكية الأرض وتوزيعها. والمفرداتُ العربيةُ الكثيرةُ في اللهجة الصقلية شاهدٌ على مبلغ اهتمام العرب بالزراعة. فقد أدخلوا إلى الجزيرة ـ كما فعلوا في الأندلس ـ عدداً من النباتات الجديدة، كما وسَّعوا من رقعة الأراضي المفلوحة باستخدام وسائل الري.

وفي منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي شهدت صقلية فترةً من الفتن والمُنازعات الداخلية، مما أطمع فيها النورمانَ بجنوب ايطاليا، فغَزوْا الجزيرةَ في عام 1061م، على أن استيلاءهم على صقلية لم يكن بالأمر الهيِّن، فقد صمد العديدُ من المدن والمعاقل في وجههم نحو ثلاثين عاماً قبل أن يتمَّ لهم فرْضُ سيادتهم على كامل الجزيرة عام 1091م.

حَكَم النورمانُ صقلية قرناً من الزمن (1091-1194م)، ولما كانوا قلَّةً وحديثي عهد بالحضارة، فإنهم اعتمدوا على العرب في الإدارة وفي الدواوين والجيش والبلاط الملكي، وفي كافة أعمال البناء والتشييد. وكان لثاني ملوك النورمان رجار الثاني عباءةٌ ملكيةٌ صُنعتْ بدار الطراز ببلرم طُرِّزتْ على حاشيتها كتابةٌ عربيةٌ بالخط الكوفي والتاريخُ بالسنة الهجرية 528 (= 1133م). ولرجار الثاني ـ وتحت رعايته ـ صنَّف الشريفُ الإدريسي كتابَ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) المعروفَ كذلك بكتاب رجار. وظلَّتْ العُملةُ العربيةُ ـ وهي المعروفة بالرُباعي، أي ربع الدينار ـ العُملةَ المتداولةَ في صقلية وجنوب ايطاليا.

وبعد النورمان، وفي عهد الامبراطور فردريك الثاني من الأسرة الألمانية السوابية أو أسرة هوهنشتاوفن (1198-1250م) ـ وكان شديدَ التعلق والتأثر بكافة أوجه الثقافة العربية الإسلامية ـ بقيت ـ بل وازدهرت ـ الثقافةُ العربيةُ في الجزيرة بفضل اهتماماته بالعلوم العربية الاسلامية، وصلاته الواسعة مع سلاطين المسلمين في المشرق والمغرب. إلا أن الحالَ تبدَّل في عهد شارل دانجو الذي انتزع الجزيرةَ من ابن فردريك عام 1266م، وكان شارل هذا من غلاة الكاثوليك، كأخيه الملك الفرنسي لويس التاسع، فأكرهَ مسلمي الجزيرة على التنصُّر أو الرحيل.

إن دَوْرَ صقلية في انتقال التراث الفكري العربي إلى بقية بلدان أوروبا دون دَوْر الأندلس، ومع ذلك، فإن عظمةَ مملكة صقلية النورمانية في القرن

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الثاني عشر الميلادي أدّتْ ـ بفضل مسلمي الجزيرة ـ إلى قيام حركة النهضة الايطالية.

يقول أحدُ كبار المؤرخين المعاصرين من المتخصصين في تاريخ صقلية الوسيط والحديث إن معلوماتنا عن تاريخ فترة السيادة العربية على جزيرة صقلية يكتنفها شيءٌ من الغموض لقلة المصادر التي وصلتْنا من تلك الفترة. والمؤرخون النصارى الذين كتبوا في عهد النورمان عن تلك الفترة كانوا جهّلةً ومتحيزين، فنزعوا إلى التقليل من شأن منجزات العرب أو إلى إغفالها جملةً. إن إسهامَ العرب في تاريخ صقلية وحضارتها نستدلُّه من أثرهم الحضاري الكبير في الفترة النورمانية. فالنورمان اعتمدوا اعتماداً كبيراً على مهارة العرب الصناعية والحِرْفية وعلى تقاليدهم الإدارية، وهذا الاعتراف بالماضي دليلٌ قاطعٌ على جودة ووفرة ما قدَّمه العرب في الفترة التي سبقتْ مجيءَ النورمان. وإلى اليوم نجد في لهجة صقلية مئاتِ المفردات والتعابير العربية، ولولا قدومُ النورمان إلى الجزيرة ـ ولغتُهم لاتينية ـ لكانت صقلية تتكلم اليوم لغةً قريبةً من اللغة المالطية، وهي لهجة عربية[1].

في عهد رجار الثاني وعهد حفيده فردريك الثاني فقط بدأ التأثيرُ العربيُّ يتسرب إلى الحياة اللاتينية في القرون الوسطى من جزيرة صقلية، التي وُصف تاريخها بأنه قصة مصغَّرة للحضارة الأوروبية، ففيها التقتْ عدةُ حضارات في القرون الوسطى، أهمُّها اليونانية والعربية واللاتينية[2]. ومع أن صقلية لم تكن المعبرَ الوحيدَ الذي انسابت منه علومُ العرب واليونان غرباً «إلا أنه لم يحدث في مكان آخر [غير صقلية] أن قامت الحضاراتُ العربية واليونانية واللاتينية جنباً إلى جنب في سلمٍ وتسامح»[3].

---

(1) Smith, D.M., *Medieval Sicily,* London 1969, pp. 11-12.

(2) Metlitzki, D., *The Matter of Araby in Medieval England,* Yale U.P. 1977 p. 7.

(3) Haskins, C.H., *The Normans in European History,* U.S.A. 1966, p. 235.

استمر في بلرم التقليدُ العلميُّ العربي، وكان البلاطُ النورمانيُّ الوارثَ المباشرَ لحضارة صقلية العربية. كان بلاطُ رجار الثاني مركزاً للعلوم، وكان للملك اهتمام خاص بعلميْ الفلك والتنجيم. وقد صنع له مهندسٌ عربيٌ آلةً لرصد الساعات لم يَبْقَ مما يدل عليها سوى لوحةٍ رخاميةٍ عليها كتابةٌ باللغات الرسمية الثلاث اللاتينية واليونانية والعربية. وقد جاء في النص العربي: «خرج أمرُ الحضرة الملكية... لعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية [بلرم] المحمية سنة ست وثلاثين وخمسمائة [1-1142م]».

كان لعلماء صقلية مكانةٌ مرموقةٌ في تاريخ العلوم الأوروبية، فقد عرفوا التحليلَ الهندسي والرياضياتِ التطبيقية، وكان بين أيديهم كتابُ (المجسطي) لبطليموس، وهو العمدة عند القدامى في علم الفلك. كما أن مدرسةَ سالرنه الطبية كانت في طليعة مدارس الطب بأوروبا، وكانت تتوفر في صقلية المكتباتُ والمخطوطات[4].

ومما يُؤْثر عن أحد رجال البلاط في بلرم في منتصف القرن الثاني عشر قوله لطالبٍ انجليزيٍ اسمُه روبرتوس كان يزور صقلية ثم أخذ يستعدُّ للعودة إلى بلاده: ولِمَ العجَلة؟ ولماذا لا تبقى في صقلية التي هي جنةُ أهل العلم؟[5].

كانت اللغةُ العربيةُ لغةَ العلم دون سواها في العصر الوسيط. وبسبب تفشي الجهل في أوروبا آنذاك، كان الناس ـ منذ مطلع القرن الثاني عشر ـ يتوجهون إلى صقلية والأندلس للتعرف على أسرار الكون وعلومه. وبالرغم من الإقبال على طليطُلة، فإن البعض رأى أن صقلية كانت تحظى بمزيةٍ كبرى لأنها كانت ثقافياً ما تزال جزءاً من العالم العربي، كما كانت على اتصال

---

(4) Haskins, C.H., *Studies in the History of Medieval Science,* New York 1967, pp. 189-190.
(5) Metlitzki, p. 9.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

بالشرق اليوناني. ففي صقلية دون سواها كان يمكن دراسةُ الحضارتين العربية واليونانية مباشرةً والمقارنةُ والجمعُ بينهما[6].

كان للحضارة العربية في صقلية كلُّ الأثر على اهتمام فردريك الثاني منذ صباه بالعلوم، وعلى نزعته المتفتحة وحبِّه للاستطلاع والتقصي. وكان فردريك على اتصال شخصي أو بالمكاتبة بالعلماء العرب المبرزين في الرياضيات، والفلك، والمناظر، والفلسفة. وكانت الرياضةُ المحببةُ إليه الصيدَ بالبيزان، وقد وضع له صَقَّارُه العربيُّ مؤمن رسالةً في هذا الموضوع تُرجمتْ إلى اللاتينية وكانت مصدراً اعتمد عليه فردريك في رسالته عن الصيد بالبيزان.

إن الكتبَ النادرة والأجهزةَ العلميةَ هي الهدايا التي كان يرحب بها فردريك كلَّ الترحيب. وكانت الهديةَ الأثيرةَ لديه تلك التي بعث بها إليه سلطانُ دمشق الأشرف، وهي عبارة عن جهازٍ في خيمة يمثل النظام الشمسي وحركات الكواكب (planetarium)، وكانت تتحرك فيه الأجرامُ المصنوعةُ من الفضة في مداراتها بفعل آلةٍ خفية[7].

وقد صنع مهندسون عربٌ للنورمان مجانيقَ وأبراجاً متحركة للحصار، كما أفاد رجال الثاني من مهارات المهندسين العرب وخبراتهم عند تشييده تحصينات مدينة باره (باري). وجنَّد حفيدُه فردريك الثاني رماةً من العرب في جيشه، وزوَّده الصُنَّاعُ العربُ بأسلحةٍ وسهامٍ مسمومةٍ من صنعهم ليستعملها جندُه في حروبهم في شبه الجزيرة الايطالية[8].

ومن الطريف أن إحدى شارات المُلْك، وهي المظلة، قد أخذها ملوكُ

---

(6) Norwich, J.J., *The Kingdom in the Sun,* London, 1976, pp. 103-104.

(7) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الاسلامية، تعريب وتعليق أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس 1980، ص 98. Smith, p. 61.

(8) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 77, 121.

النورمان في صقلية عن الخلفاء الفاطميين في مصر. يقول ابنُ حماد إن المظلةَ التي اختُصَّ بها العُبَيْديون من دون سائر الملوك «شبهُ درَقةٍ في رأس رمح مُحكمةِ الصُنع، رائقةِ المنظر، ظُرفٌ من الصناعة في الصياغة ونظمِ الأحجار الغالية... يُمسكها فارس من الفرسان يُعرف بها، فيقال صاحب المظلة... فيحاذي بها الملك من حيث كانت الشمسُ يقيه حرَّها بظلِّها... ولا يُعلم أحدٌ من الملوك اتخذ هذه المظلةَ إلا بنو عُبَيْد [الفاطميون] خاصةً، ثم ملكُ الروم بصقلية، وحُسب أنهم أهدَوْها إليه في بعض هداياهم، وكأني سمعتُ بهذا»[9].

إن رائدَ الدراسات العربية في انجلترا أديلارد الباثي (Adelard of Bath) تلقَّى بدايةَ علومه العربية في صقلية، فقد زار الجزيرةَ في شبابه بحثاً عن المعرفة، ومنها توجَّه إلى بلاد الشام لكي ينقطعَ لدراسة العلوم العربية. ولما عاد إلى انجلترا ـ بعد غَيْبةٍ دامت نحوَ عشرين عاماً ـ استاء لما وجده في بلاده من نفورٍ من العلوم العصرية، وكانت في زمنه مرادفةً للدراسات العربية، فألَّف كتابَ (المسائل الطبيعية) (Questiones Naturales) وفيه يُبدي انبهاره بنظرة العرب العلمية وتقدمها على المدارس اللاتينية، وبخاصة الوسائل التجريبية في العلوم العربية. وقد صيغ الكتابُ على نَهْج علماء المسلمين ـ على طريق المسألة والجواب ـ وهو يصرِّح بأن غرضه هو شرحُ ما «تعلَّمه من أساتذته العرب بإرشاد العقل». وهو يقول إنه تعلَّم من أساتذته العرب (Arabici magistri) أن الطبيعة لا تقومَ عشوائياً ودون حكمة[10].

وفي مجال الشعر، يرى ميشيل أماري ـ كبيرُ مؤرخي صقلية الإسلامية ـ أن

---

(9) ابن حماد، محمد: أخبار ملوك بني عُبيد وسيرتُهم، تحقيق م. فونـدرهايـدين، الجزائر، 1927، ص 14-15.

(10) Metlitzki, pp. 28, 47, 54. وانظر أيضاً الآية الكريمة (أيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُتركَ سدى)، سورة القيامة، آية 36.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

ثمة صلةً بين الشعر العربي الذي نُظم في صقلية وبين الشعر الإيطالي المبكِّر الذي نُظم في الجزيرة. وكان الشعرُ باللغة الدارجة يُنشد في بلاط فردريك الثاني على طريقة التروبادور من جنوب فرنسا الذين تأثروا بدوْرهم بالموشحات والأزجال الأندلسية. ويرى بعضُ الباحثين أن بحورَ الشعر الشعبي المبكر الذي نُظم في ايطاليا ـ كأغاني الكرنيفالات والقصائد الروائية ـ تشبه كثيراً بحورَ الأزجال الأندلسية وأوزانَها. ومن ناحية أخرى، فقد يكون الشعرُ باللغة الدارجة الصقلية تأثَّر بالشعر الشعبي العربي المنظوم في الجزيرة ذاتها[11].

ويرى الباحث الايطالي تشيرولي (Cerulli) أن كتابةَ القصة الإيطالية يمكن تتبعُ أصولها إلى مصادرَ عربية، واستمر هذا التأثير العربي على كتابة الحكايات الإيطالية إلى القرنِ السادسَ عشر[12].

وفيما يلي نعرض بإيجاز إلى الدَوْر الذي قامت به صقلية في انتقال العلوم والمعارف العربية إلى أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد في عددٍ من المجالات هي ـ على التوالي ـ مجالات الزراعة والصناعة والعملات والجغرافيا والطب والرياضيات والفلك والتنجيم والمناظر (البصريات) والفلسفة والمنطق والتاريخ الطبيعي والصيد بالبيزان.

الزراعة

يشاطر المستشرقُ الايطاليُّ جابرييليِّ المؤرخَ الكبيرَ للمسلمين في صقلية ميشيل أماري الرأي بأن حكم العرب لجزيرة صقلية كان ايجابياً ونافعاً بفضل التغييرات التي أدخلها العرب على أحوال الجزيرة الاقتصادية والاجتماعية، فقضت على نظام المِلكيات الواسعة للأراضي latifundia، وبعثت الملكيات

(11) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 107.
(12) المرجع السابق، ص 110-111.

الصغيرة، كما أنعشتْ وأثرتْ الزراعةَ الصقليةَ بأساليبَ ومحاصيلَ جديدة. إن الأهميةَ الحاسمةَ للفترة العربية في هذا المجال تدل عليها المفرداتُ في الحياة الاقتصادية، وهي المفردات التي بقيت في اللغة الصقلية ـ وانتقلتْ منها إلى اللغة الايطالية ـ ومعظمُها في مجال الزراعة والري والأدوات الزراعية والمنزلية وغلّات التربة[13].

وفي الفترة النورمانية التي أعقبت الفترةَ العربية انعكس الحال، إذ عادت المِلكياتُ الزراعية الواسعة باستحداث أوقاف الأديرة وظهور الإقطاع على النمط الفرنسي مما ترك أثراً سيئاً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الفترات اللاحقة. «وتبقى الفترةُ العربيةُ في الواقع الذروةَ التي بلغتْها صقلية فيما يتعلق باستغلال موارد الجزيرة والحياة المادية المتصلة بها»[14].

أصبحت صقلية في العهد العربي بلاداً زراعية غنية. فقد أدخل العرب نظاماً جديداً للزراعة يقوم على إنشاء المصاطب tarracing والصهاريج لضخ الماء للري[15]. وفي صقلية غرس العرب أشجارَ النارنج والليمون (من أهم صادرات صقلية اليوم)، كما أدخلوا زراعةَ قصب السكر وطريقةَ عصره بالأرحاء لاستخراج السكر. وكانوا أولَ من أدخل إلى صقلية بذورَ القطن وأشجار التوت وتربية دود القز وزراعة النخيل وشجر السُمَّاق ـ لأغراض الدباغة والصباغة ـ ونبات البردى (ويُسمِّيه ابنُ حوقل البربير) والفستق الحلبي والبطيخ، مما أحدث تغييراً جوهرياً في اقتصاد الجزيرة. ولعل الفضلَ يعود إلى العرب لإدخالهم زراعةَ الأرز إلى صقلية. كما جلب العربُ من شمال افريقيا نوعاً صلباً جداً من القمح يصلح له مناخُ صقلية وتُربتها، وهو يعطي غلّةً ضئيلةً ويعسُر طحنه، إلا أنه يحتوي على نسبة عالية جداً من البروتين،

---

(13) *Legacy of Islam* (2nd edn.), Oxford U.P. 1974, p. 75.

(14) المرجع السابق، ص 76.

(15) Norwich, p. 53.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

وينمو نمواً حسناً في المناخ الحار، ولا يحتاج إلا إلى القليل من الأمطار. وكان قبل كل شيء صالحاً للخزن دون أن يفسد، وعلى ذلك فإنه كان مثالياً للحفظ والخزن لمواجهة حالات المجاعة ولتزويد المراكب به لملاحيها وركابها[16].

ويلاحَظُ أن زراعة القطن اختفتْ من صقلية في القرن الرابع عشر حينما خلت الجزيرةُ من سكانها المسلمين.

وما زال النارنج يُعرف في صقلية بـ naranzu، كما يقال لزهره zagara. وتشهد بالدور الكبير الذي قام به العربُ في إنماء فلاحة صقلية المفرداتُ العربيةُ العديدةُ المتصلةُ بالزراعة والباقيةُ في اللهجة الصقلية مثل الناعورة noria، والجابية gebbia، والسانية senia والساقية zachia، والمعصرة mazzara[17].

الصناعة

من أهم المساهمات النافعة التي قدَّمها العربُ لأوروبا صناعةُ الورق، ولولا الورق ما قامت المطابعُ ولا انتشرت الكتبُ والمعارف بين الناس. وقبل صناعة الورق، كانت الكتابةُ إما على ورق البَرْدي وإما على الرَق، ثم أخذ العربُ صناعة الورق عن الصينيين في أواخر القرن الثامن الميلادي، وسُرعان ما وصلت صناعتُه من المشرق إلى الأندلس وصقلية.

كان ببلرم واحدٌ من أول مصانع الورق في أوروبا. وتوجد وثيقةٌ تحمل توقيعَ صاحب صقلية مؤرخةٌ بسنة 1102م، وهي أقدم وثيقة ورقية أوروبية مؤرخة تم اكتشافُها حتى الآن[18]. إن أساليبَ صناعة الورق لم تصلْ إلى الغرب قبل

---

(16) Smith, p. 22.

(17) مورينو، مارتينو ماريو: المسلمون في صقلية، بيروت 1968، ص 34.

(18) Norwich, J.J., *The Normans in the South,* London 1981, p. 177.

القرن الثالث عشر حينما بُديء بإقامة مصانع للورق في ايطاليا وجنوب فرنسا[19].

ومن صقلية ـ وبلاد الشام ـ وصلت أساليبُ تربية دودة القز وصناعة المنسوجات الحريرية إلى ايطاليا، وبحلول القرن الثالث عشر أصبحت المنسوجاتُ الحريرةُ الصناعةَ الرئيسيةَ في العديد من المدن الإيطالية. وقد شجَّع فردريك الثاني صناعةَ المنسوجات الحريرية في صقلية وقلّوريَّة، وهما أول مكانين في ايطاليا ينتجان الحرير منذ العهد العربي. ومما يُذكر أن ريتشارد الأول (الملقَّب بقلب الأسد) ملكَ انجلترا استحوذ أثناء وجوده في مسينة بصقلية سنة 1191م على سرادقٍ من الحرير كان يتسع لعدة مئات من الأشخاص في مأدبة عشاء[20].

أدخل الأميرُ الأمويُّ عبدُ الرحمن الثاني (الأوسط) إلى الأندلس فكرةَ دار الطراز، وهو مصنع بجوار القصر ينتج ثياباً «طرازية» فاخرة للبلاط يُطرَّز على حاشيتها اسمُ الأمير، ويُشرف على الدار صاحبُ الطراز. وكذلك كان الحال في صقلية «ابنة الأندلس» ـ كما ينعتُها الرحالةُ ابن جبير ـ حيث ازدهرت صناعةُ الحرير في عهدها العربي. وفي بلرم اشتهرت على عهد النورمان ـ وكان مما آل إليهم من العرب ـ دارُ الطراز، وعمالُها كلُّهم من المسلمين، وفيها صُنعت عباءةُ رجار الثاني الشهيرة ـ الموجودة حالياً في أحد متاحف فيينا ـ وهي مصنوعة من الحرير الأحمر وموشاةٌ بالذهب، وعليها رسوم رائعة لنمورٍ تفترس إبلاً. وتنص الكتابةُ العربيةُ المطرَّزةُ في حاشيتها على أنها من صنع دار الطراز ببلرم سنة 528 (= 1133م)[21].

ومما يُذكر أن صاحب أرجون جيمس الثاني أرسل بعد امتلاكه صقلية

---

(19) Lombard, M., *The Golden Age of Islam,* The Netherlands 1975, p. 192.

(20) Smith, p. 58.

(21) Norwich, p. 132.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

صُنَّاعاً مسلمين للحرير من اسبانيا إلى صقلية وجلب صناعاً مسلمين للقطن من صقلية إلى اسبانيا، وذلك للاستفادة من خبراتهم كما يجري اليوم في تبادل الخبرات الفنية بين الدول[22].

كانت زراعةُ قصب السكر من أهم المحاصيل التي أدخلها العرب إلى كل من صقلية والأندلس. وكان قصب السكر يُزرع على نطاق واسع في الحقول المروية حول بلرم. وقد جلب فردريك الثاني خبراءَ لتدريب المبتدئين في صناعة السكر، وهو فن يبدو أنه تدنَّى بعد نزوح الصُنَّاع العرب عن الجزيرة[23]. إن تكرير السكر ـ وهو ابتكار صيني ـ انتقل عن طريق العرب في صقلية والأندلس إلى الأوروبيين الذين كانوا يستعملون العسلَ للتحلية، ولم يعرفوا صناعةَ السكر إلى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد[24]. وفي تسميات السكر بمختلف اللغات الأوروبية ـ وهي مقتبسةٌ من كلمة (سكَّر) العربية ـ دليل على انتقال صناعته إلى أوروبا عن طريق العرب في كل من صقلية والأندلس.

يتحدث الشريفُ الإدريسي عن بلدة التربيعة إلى الشرق قليلاً من بلرم ـ وتُعرف اليوم باسم Trabia ـ فيقول إنها «محلٌ. . . به مياه جارية، وعليه كثيرٌ من الأرحاء. ويُصنع بها من الأطرية ما يُتجهَّز به إلى كل الآفاق من جميع بلاد قِلُّوريَّة [جنوب ايطاليا] وغيرها من بلاد الإسلام وبلاد النصارى، ويُحمل منها الأوساقُ الكثيرة»[25]. والأطرية ـ على حد قول الباحث الايطالي مارتينو مورينو ـ هي المكرونة الرقيقة غيرُ المثقوبة (الشعيرية) vermicel، ولا تزال تُعرف عند الصقليين باسم etria وعند أهل مُرسية بشرق اسبانيا باسم

---

(22) Glick, Th. F., *Islamic and Christian Spain...*, Princeton U.P. 1979, p. 222.

(23) Smith, p. 58.

(24) Glick, p. 245.

(25) المكتبة العربية الصقلية، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم جمعها ميشيل أماري، ليبسك 1857، ص 30.

eletria[26]. ويذكر الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم، ص 166) أن الأطرية من طعام أهل الشام.

العُمْلات

طوال فترة حكم النورمان لجزيرة صقلية (القرن الثاني عشر للميلاد) كانت عُملاتُهم تُضرب وعليها كتابةٌ عربيةٌ بالخط الكوفي، وبعضها يحمل التاريخَ الهجريَّ وعبارةَ (محمد رسول الله)[27].

إن عُملةَ رجار الثاني (حَكَم 1111-1154م) كانت تحمل لقبَه العربيَّ (المعتز بالله)، تقليداً للفاطميين الذين كانت تتبعهم جزيرة صقلية قبل قدوم النورمان، فضلاً عن لقبٍ مسيحيٍ باللغة العربية (ناصر النصرانية)[28].

وفي الفترة النورمانية ظلَّ الرُباعي ـ أي ربع الدينار الفاطمي ـ العُملةَ الرئيسةَ المتداولةَ في صقلية، وعلى منواله ضُربتْ عُملةٌ نورمانيةٌ عُرفت باسم (طري tari)، وكانت كالرُباعي شكلاً وقيمة.

وقد دلَّل ساموبل ستيرن من جامعة اكسفورد على أن العُملةَ المعروفةَ عند النصارى باسم tari مشتقةُ الاسم من الكلمة العربية (طري) بمعنى حديث الضرب، وهي صفةٌ استُعملتْ في جزيرة صقلية الإسلامية لنعت الرُباعي[29].

وبعد انتهاء الفترة النورمانية من تاريخ صقلية (1194م) ظل الطري يُضرب في عهد فردريك الثاني وعَقبِهِ من أُسرة هوهنشتاوفن الألمانية، كما بقي الطري عُملةً متداولةً في صقلية وجنوب ايطاليا بعد ذلك بزهاء خمسة قرون.

واستعمله فرسانُ القديس يوحنا (الاسبتارية) في جزيرة مالطة فأطلقوا على

---

(26) مورينو، ص 35.

(27) Smith, p. 17.

(28) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 73.

(29) Stern, S.M., «Tari», *Studi Medievali,* Spoleto 1970, pp. 180, 205.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

عملتهم الفضية اسمَ (طري) ابتداءً من حكمهم الجزيرة سنة 1530م. ويبدو أن الطري بقي متداولاً في جزيرة مالطة في القرن التاسع عشر، إذ تنص وثيقةٌ مالطيةٌ على أنه «في 11 مارس 1814م تركتْ سيدةٌ مالطية... وصيةً خصَّصتْ بموجبها لعبديْها عقداً ذهبياً وعلاوةً يوميةً مقدارها 4 طري لكلٍ منهما مدى حياتيهما»[30].

وانتقلت العُملةُ والتسميةُ (طري) إلى جنوب فرنسا وقطالونيا بشمال شرق اسبانيا، فهي في البروفنسالية في القرن الثالث عشر tarin وفي القطلانية tari منذ عام 1305م[31].

ولما كانت الصلةُ وثيقةً بين انجلترا النورمانية وبين صقلية النورمانية منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي فيبدو أن أشهرَ نظامٍ انجلو- نورماني مالي وهو The Exchequer وسجلاتهِ كانت بداياته في الديوان العربي الصقلي، وكانت يتولى ادارتَه للنورمان موظفون مسلمون، ويحتفظون بدفاترَ أو سجلاتٍ كبيرة. وهكذا، فلعلَّ نظام الخزانة في انجلترا مقتبسٌ عن أصول اسلامية صقلية[32].

الجغرافيا

أفاد الأوروبيون كثيراً من كتب الجغرافيا والرحلات العربية. فلم تعرف أوروبا داخلَ القارة الافريقية الا عن طريق الكتابات والخرائط العربية التي ظلَّت مرجعَ الأوروبيين الوحيد عن تلك المناطق حتى القرنِ التاسعَ عشر. وكرويةُ الأرض لم تكنْ أمرا مسلَّماً به عند الأوروبيين، في الوقت الذي كان فيه الجغرافيون العرب يُجمعون على هذه الحقيقة. فلم لم يُشع العربُ نظريةَ

(30) Wettinger, G., «The Abolition of Slavery in Malta,» in *Archivum, Malta* No. 1 (1981), p. 11.

(31) Stern, pp. 189-191.

(32) Metlitzki, p. 8.

كروية الأرض لما خطرَ ببال كريستوفر كولمبس أن الاتجاه غرباً يمكن أن يؤدي به إلى الهند، ولما اكتشف بالتالي العالمَ الجديد[33]. وللشريف الإدريسي فضلٌ كبيرٌ في هذا المجال، إذ تحصَّل الأوروبيون من كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) على معلوماتٍ دقيقةٍ نسبياً عن الهند والصين والنصف الشمالي من القارة الإفريقية مما استمدَّه الإدريسي من كتب الجغرافيين والرحالة العرب، ومما دوَّنه إثْرَ رحلاتٍ واسعةٍ قام بها هو شخصياً[34]. كما أعدَّ الإدريسي للملك رجار الثاني في بلرم صورةً للأرض في دائرةٍ من الفضة مبيِّناً فيها الأقاليم السبعة. يقول باحثٌ في كتابٍ صدر له مؤخراً عن صقلية النورمانية «إن كتابَ الإدريسي هو أعظمُ عملٍ جغرافيٍ في القرون الوسطى. ففي الصفحة الأولى من الكتاب يذكر الإدريسي أن الأرض كرويةُ الشكل»[35].

الطب

بعد تدنٍّي دراسة الطب في مدرسة سالرنه العريقة، تبدَّل الوضعُ في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بظهور قسطنطين الإفريقي الذي لاحظ لدى زيارته لسالرنه مدى تخلف المدرسة الطبية فيها. فعاد إلى تونس، حيث درس الطب، ثم استقر في ايطاليا، وتنصَّر، وأصبح راهباً في دير مونت كاسينو البنديكتي، حيث أمضَى بقيةَ حياته يترجم إلى اللاتينية الكتبَ الطبيةَ العربيةَ

---

(33) اثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية (دراسات لعدد من الباحثين)، القاهرة 1970، ص 317، 2-323.

(34) Watt, W.M., *The Influence of Islam on Medieval Europe*, Edinburgh U.P. 1972, p. 21.

(35) Norwich, p. 102. طُبعت في رومة عام 1592م قطعة مستخرجة من كتاب الإدريسي بالعربية، ثم ظهرت ترجمة لاتينية لها عام 1619م مما ساعد على تنمية المعلومات الجغرافية في الغرب في وقت لم تكن قد بدأت فيما بعد الدراسات الجغرافية عن الشرق ـ ينظر كتاب:

Legaey of Islam, 2nd Edn., p. 455.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

التي أحضرها معه من تونس، وتوفي في الدير سنة 1087م. ومن الكتب الطبية التي ترجمها قسطنطين الافريقي ـ ونسب معظمَها لنفسه ـ مقالةٌ في المالنخوليا لاسحاق بن عمران و (كتاب الحمَّيات) لإسحاق بن سليمان، ورسالةٌ في النسيان وعلاجه وكتابُ (زاد المسافر) لابن الجزار القيرواني. إلا أن أهمَّ الكتب الطبية التي ترجمها وأكبرَها أثراً في أوروبا كتابُ (كامل الصناعة الطبية) المعروف كذلك باسم الكُنَّاش أو الكتاب الملكي لعلي بن عباس المجوسي، المعروف عند الأوروبيين باسم Haly Abbas. ويُعتبر المجوسي من كبار الأطباء العرب في القرن العاشر الميلادي، وقد أوجز في كتابه بوضوح ما وصل إليه الطبُّ العربيُّ في عصره. ومع أن قسطنطين الإفريقي لم يكن متمكناً تماماً من العربية واللاتينية، فإن ترجماته انتشرتْ في الغرب وبفضلها انتعشت مدرسةُ الطب في سالرنه[36].

وكان من بين من درس في سالرنه إسطفان البيزي، ثم أقام فترةً في جزيرة صقلية ـ ولعله تعلَّم العربيةَ أثناءها ـ وبعدها ذهب إلى انطاكية، حيث كان للبيزيين حيٌّ خاصٌّ بهم منذ عام 1108م، (ولذلك يعرف باسطفان الأنطاكي). وفي انطاكية أنجز في عام 1127م ترجمةً جديدةً لكتاب المجوسي، وهي ترجمة أفضلُ وأشهرُ من ترجمة قسطنطين الإفريقي، وتحمل اسمَ Liber regius، وهي ترجمة دقيقة لاسم الكتاب (الكتاب الملكِي). يذكر الأنطاكي في مقدمة ترجمته لكتاب المجوسي بأنه درس اللغةَ العربيةَ لكل يصلَ إلى منبع العلم. كما يذكر كذلك بأن علماءَ الطب يوجدون في المقام الأول في صقلية وسالرنه، وهم من الناطقين بالعربية أو اليونانية[37].

لم تُنجزْ ترجمات هامة في الطب في صقلية في القرن الثاني عشر. وبذل

---

(36) Ullmann, M., *Islamic Medicine,* Ediburgh U.P. 1978, p. 53.

(37) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 102.

Haskins, *Studies.., p. 134.*

رجار الثاني جهداً كبيراً لتنظيم دراسة الطب ومزاولته، فأجبر الأطباءَ على اجتياز امتحانٍ يُعدُّه الخبراءُ، وبحضور أحد موظفي الملك. ولعلَّ رجار الثاني ـ وكان أطباؤه من العرب ـ عمل على تنظيم دراسة الطب ومزاولته بتأثيرهم وتأثير كتب الحسبة الإسلامية في هذا المجال. فها هو الفقيه ابنُ عبدون الأندلسي (أوائل القرن الثاني عشر) يقول: «يجب أن لا يُتركَ أحدٌ يتسوَّرُ في شيءٍ لا يُحسنه، لا سيَّما صناعة الطب الذي فيه إتلاف المُهَج». أما ابنُ الأخوَّة فيقول إن الكحالين «يمتحنهم المحتسبُ بكتاب حنين ابن اسحاق، أعني العشرَ مقالات في العين، قبل أن يأذن لهم بالتصدي لمداواة أعين الناس»، وأما الجرائحيون «فيجب عليهم معرفةُ كتاب جالينوس في الجراحات والمراهم، وأن يعرفوا التشريحَ وأعضاءَ الإنسان»[38]

وفي رسمٍ للملك النورماني وليام الثاني وهو على فراش الموت عام 1189م يُرى الملكُ وقد حفَّ به طبيبٌ ومنجمٌ يضعان عمامتيْن على رأسيْهما ويرتديان ملابسَ عربية[39].

إن حرصَ فردريك الثاني صاحبِ صقلية على صحته جعله يولي عنايةً خاصةً للجراحة والطب. وهو الذي عمل على إحياء مدرسة الطب بسالرنه وأنشأ فيها أولَ قسمٍ للتشريح في أوروبا. كما أسَّس جامعةَ نابلي سنة 1224م وأودع فيها مجموعةً من المخطوطات العربية.

إن آخرَ كبار المترجمين من اللغة العربية في القرون الوسطى كان من أصلٍ صقلي، وهو فرج بن سالم(Faragut) من مدينة جَرْجنت على الساحل الجنوبي لصقلية، وكان قد تلقَّى العلمَ في سالرنه. إن انجازَه العظيمَ هو ترجمته عام 1279م لشارل دانجو ملكِ الصقلِّيتيْن كتابَ الرازي الضخم

(38) ابن عبدون، محمد: رسالة في القضاء والحسبة، القاهرة 1955، ص 46.
ابن الاخوة، محمد: معالم القربة في أحكام الحسبة، كمبردج 1937، ص 168-169.

(39) Smith, p. 44.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

(الحاوي) ـ ويضم 23 سفراً ـ باسم Liber continens الذي أصبح مرجعاً في كافة كليات الطب بأوروبا في القرون الوسطى[40].

الرياضيات

من رائدي الترجمة من العربية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي اديلارد الباثي (ت. في حدود 1150م) الذي زار صقلية والمشرق. وكانت الخدماتُ التي أسداها في مجال الرياضيات خدماتٍ بارزة. فقد ترجم إلى اللاتينية كتابَ الحساب أو العدد للخوارزمي، وعن طريقه ترك الخوارزمي اسمه في Algorism، وهي الكلمة القديمةُ للحساب. كما نقل اديلارد كتابَ الأصول في الهندسة لإقليدس من العربية، وبذلك عرَّف اللاتين لأول مرة بهذا الرياضي الإسكندري[41].

إن ادخالَ الأرقام العربية إلى أوروبا تمَّ على يد ليناردو فيبوناتشي من مدينة بيزا الإيطالية بعد ظهور كتابه عن المعداد Liber abaci عام 1202م، وهو كتاب يقوم على علم الجبر العربي، وقد أصبح مَعْلماً من معالم العلوم الرياضية بأوروبا، وفيه يبيِّن المؤلفُ كيف أن «العلامات العشر» مكَّنت من تبسيط العمليات الحسابية وتوسيعها[42]. ويبدأ الكتابُ أولاً بقراءة وكتابة الأرقام العربية الهندية الجديدة، تلي ذلك عملياتٌ حسابيةٌ وعملياتُ خاصة بأثمان السلع والمقايضة والشراكة. ثم يتناول ما يسميه regulis elchatayn عن العربية «حساب الخطأين»[43].

ومن ليناردو فيبوناتشي أو البيزي تسلَّم مايكل سكوت سنة 1228م النسخةَ

---

(40) Singer, C., *A Short History of Scientific Ideas*... Oxford U.P. 1982. p. 163.

(41) المرجع السابق، ص 162.

(42) Watt, p. 63. *Cambridge History of Islam,* Vol. 2B. Cambridge U.P. 1977, p. 865.

(43) Mason, S.F., *A History of the Sciences,* U.S.A. 1962, p. 113.

المراجَعةَ من كتاب المعداد abacus، فقرأها فردريك الثاني واستمع إلى مناقشتها لعدد من المسائل الحسابية والهندسية[44].

ويُروى أن والدَ ليناردو كان رئيساً للجالية التجارية البيزية في مدينة بجاية بالجزائر، ولعلَّه أدرك من صلاته بالتجار المسلمين في المدينة تفوُّقَ الأرقام العربية على الأرقام الرومانية في العمليات الحسابية، فبعث بابنه ليناردو ـ وكان موهوباً ـ إلى مدرِّسٍ عربيٍ للرياضيات في بجاية، فتعلَّم على يديه. وقد نحا منحى العربِ في الصيغة التي أورد فيها اسمَه في كتابه حيث يرد Leonardus Filius Bonacci، أي ليوناردوس بن بوناتشي (بو ناجي؟ بونتشه؟)[45].

وفي أثناء مقامه في فلسطين (8-1229م)، حرص فردريك الثاني على الاجتماع ـ أو الاتصال ـ بعلماء الرياضيات من العرب. ويقول أبو الفداء ان فردريك أرسل مسائل في الفلك والهندسة [منها رسمُ مربعٍ على قطعة segment من الدائرة] حلَّها في المَوْصل الشيخُ العلامةُ كمالُ الدين موسى ابن يونس الذي «كان إماماً مبرزاً في العلم الرياضي»[47].

وقد لاحظ المؤرخون العرب في المشرق بأن صاحب صقلية كان «عالماً متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات. وبعث [من عكا] إلى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة من الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على الشيخ علم الدين الحنفي، المعروف بتعاسيف، وغيره، فكتب جوابَها»[46].

---

(44) Haskins, p.249.

(45) Watt, p. 64.

(46) المكتبة العربية الصقلية، ص 522.

(47) أبو الفداء، اسماعيل: المختصر في أخبار البشر، بيروت (بدون تاريخ)، 3/ ص 170.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

من أكثر الكتب العلمية أثراً في القرون الوسطى، ومن أهم ما وصلَنا من العالم القديم في الفلك والرياضيات، كتابُ (المَجِسْطي) الذي عُرف في أوروبا باسمه العربي Almagest. وقد أُنجزت أولُ ترجمة لاتينية للكتاب من اليونانية في جزيرة صقلية عام 1163م، أي قبل اثنتيْ عشرةَ سنةً من ظهور الترجمة اللاتينية للكتاب من العربية في طُلَيْطُلة على يد جيرارد الكريموني. إلا أن الترجمةَ من اليونانية لم تنلْ ذيوعاً، والترجمةُ عن العربية هي التي كانت سائدةً حتى القرن الخامسَ عشرَ الميلادي[48].

وعند قدومه إلى فلسطين، طلب فردريك الثاني من السلطان الأيوبي الكامل أن يبعثَ إليه مَنْ يعرف علمَ الهيئة أي الفلك (astronomy) «فسيَّر إليه العلَمَ قيصَرْ المعروفَ بالحنفي، المشتهرَ بتعاسيف، وهو أفضلُ المتأخرين في هذا العلم»[49].

ويقول ابنُ أبي أُصيْبعة إن صاحبَ المَوْصل كان قد ورد إليه من فردريك، «وكان متفنناً في العلوم، رسولٌ وبيده مسائلُ في علم النجوم وغير ذلك، وقصدَ أن كمالَ الدين ابنَ يونس [بالمَوْصل] يردُّ أجوبتَها... ودخل الرسولُ، وتلقاه الشيخ، وكتب له الأجوبةَ عن تلك المسائل بأسرها»[50].

إن شهرةَ مايكل سكوت في العصور الوسطى ترجع إلى كتاباته في التنجيم، وكان يشغلُ منصبَ منجِّمٍ في بلاد فردريك الثاني صاحبِ صقلية. يقول سكوت: «إن الأجرامَ السماويةَ ليست السببَ في الأحداث التي تدلُّ عليها، بل هي علاماتٌ عليها، والمنجِّم لا يُخطئُ بعون الله». إن سْكوت

---

(48) Singer, p. 163.

(49) ابن نظيف الحموي، محمد: التاريخ المنصوري، دمشق 1981، ص 177.

(50) ابن ابي أُصيْبعة، أحمد: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت 1965، ص 410-411.

في قوله هذا يبدو متأثراً بما أخذه عن من زاول التنجيمَ من المسلمين، إذ نجد مثلاً في كتابٍ اندلسي من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي منجِّماً يقول: «إن كنتَ نقمتَ بأننا نزعم أن الكواكبَ فاعلة أو يعلمُ أحدٌ الغيبَ فمحال ذلك، لا يدَّعيه أحد، غير أننا نقول بأنها مصرِّفة... لسنا نقطعُ عن الأمر أنه يكون، ولا نقول إلا أنه يدل [كالسحابة تدل على المطر]»[52].

إن علميْ الفلك والتنجيم كانا علميْن متداخليْن، إذ التنجيم لا يعدو أن يكونَ تطبيقاً لعلم الفلك. ويتبيَّن من أعمال مايكل سكوت أنه كان على علمٍ ببطليموس، وبأهم ما ألَّفه العربُ في التنجيم. وعند وفاته في عام 1235م، خلَفه في منصبه منجِّماً للبلاط ثيودور الأنطاكي.

وترجم اسطفان المسِّيني لمنفريد بن فردريك عن اللغة العربية إلى اللاتينية رسالةً في التنجيم، كما تُرجمتْ لمنفريد من العربية مجموعةُ أزياجٍ فلكية وتنجيمية[53].

علم المَناظر

في عهد وليام الأول، وفي عام 1160م، ترجم كتابَ المناظر Optics لبطليموس أميرُ الأسطول الصقلي يوجينيوس البلرمي، وقد ترجمه عن الأصل العربي إلى اللاتينية، مع أنه كان يُتقن اللغة اليونانية[54].

وفي عهد سلطان مصر الأيوبي الكامل (حَكَم 1218-1238م) وضع فردريك الثاني صاحبُ صقلية سبعَ مسائل صعبةٍ لاختبار علماء المسلمين، كانت ثلاثٌ منها تتصل بالبصريات أو المناظر Optics. وفي كتاب ألَّفه الفقيهُ

---

(51) Haskins, p. 285.

(52) ابن بلقين، عبد الله: كتاب التِبْيان، القاهرة 1955، ص 188, 190.

(53) Haskins, p. 270.

(54) Singer, p. 163.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

شهابُ الدين القرافي (ت في حدود 1285م) أورد خمسين مسألةً في المناظر، من بينها المسائلُ الثلاثُ التي سبق أن طرحها فردريك الثاني على علماء المسلمين وهي:

1 ـ لماذا تبدو منحنيةً المجاذيفُ والرماحُ عند تغطيتها جزئياً بالماء؟

2 ـ لماذا يبدو النجمُ سُهيْل أكبرَ حجماً حينما يكون قريباً من الأفق، في حين أن انعدام الرطوبة في الصحاري الجنوبية تُسقط الرطوبةَ كسبب لذلك؟

3 ـ ما سببُ تخيُّلِ بقعٍ طافيةٍ أمام أعين أولئك الذين يعانون من بداية إعتامٍ في عدسة العين ومن غيره من أمراض العين؟[55].

ويذكر الصفدي أن القاضي جمالَ الدين بن واصل لما وصل إلى صاحب صقلية منفريد موفداً من قِبَل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، سأله منفريد ثلاثين سؤالاً في المناظر، فبات ابنُ واصل تلك الليلة وصبَّحه بالجواب. فصلَّب منفريد على وجهه وقال: هكذا يكون قسيسُ المسلمين! ولم يكن لدى القاضي كتبٌ في تلك السفرة، وإنما أجاب عن ظهر قلب.

الفلسفة والمنطق

في بلاط فردريك الثاني قام مايكل سكوتْ بترجمة العديد من شروح ابن رشد وتعليقاته على كتابات ارسطوطاليس، كما ترجم أجزاءَ من مؤلفات ابن سينا. وإلى مايكل سكوت يرجع الفضلُ في المقام الأول في تعريف الغرب بمؤلفات ابن رشد[56].

ولم يصلنا النصُّ العربيُّ لشرح ابن رشد، ووصلتْنا الترجمةُ اللاتينيةُ التي قام بها سكوت من اللغة العربية[57].

---

(55) *Legacy of Islam* (1st edn.), edit. Arnold Guillaume, Oxford U.P. 1931, p. 343.

(56) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 104.

(57) Metlitzki, p. 42.

يقول روجر بيكون إن مايكل سكوتْ كان مسؤولاً إلى حد كبير عن أهم حدثٍ في تاريخ الفكر في العصر الوسيط، ألا وهو التعريفُ بأرسطو عن طريق العرب[58].

إن للمسائل الصقلية التي وجَّهها فردريك الثاني إلى علماء المسلمين أهميةً خاصةً، وكانت هذه المسائلُ قد وُجِّهتْ أولاً إلى مصر والشام والعراق واليمن، «فرجعت أجوبةُ حكماء المسلمين بما لم يَرْجُه [فردريك]». ثم وُجِّهت المسائلُ إلى سلطان المغرب الرشيد الموحدي، فأحالها على الفيلسوف والصوفي الأندلسي عبد الحق بن سَبْعين ـ وكان في سَبْتة ـ فأجاب عليها، ولم يقبلْ المالَ الذي بعث به فردريك وقال: «إنما نجاوب عنها احتساباً لله وانتصاراً للملَّة الإسلامية. ثم تلا قولَه تعالى ﴿قلْ لا أسألكم عليه أجراً إلا المودةَ في القربى﴾. فلما بلغ الجوابُ للملك أرضاه، ووجَّه بصلةٍ عظيمةٍ فرُدَّتْ عليه كالأولى.

ويتعلَّق السؤالُ الأولُ منها بقول أرسطو بقِدَم العالم وبالأدلة التي استند إليها. أما السؤال الثاني فيدور حول العِلْم الإلهي: ما المقصودُ منه؟ وما مقدماتُه الضروريةُ إن كان له مقدمات؟ وكان السؤال الثالث يدور حول المقولات العشر. ويدور السؤالُ الرابعُ حول النفس: هل تبقى؟ وما الدليلُ على بقائها؟ وكان السؤالُ الخامسُ يتعلق على وجه التحديد بالفقه الإسلامي، وفيه استفسر فردريك عن الحديث النبوي الشريف القائل إن قلبَ المؤمن بين إصبعيْن من أصابع الرحمن. واختتم ابنُ سبعين اجابتَه على المسائل الصقلية بهذه العبارة التي تدلّ على علمه وثقته بنفسه، وهي: «وعند الاجتماع بك يقع الكلامُ على تلك المواضيع مشافهةً، وهو الأصح»[59].

كان فردريك يفضِّل مناقشةَ المسائل الفكرية مع فلاسفة المسلمين، إذ كان

(58) المرجع السابق، ص 47.

(59) المكتبة العربية الصقلية، ص 4-576.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

يعتبرهم أهلَ درايةٍ وعلم. وقد فَزِعَ المتدينون التقليديون من النصارى حينما بعث فردريك بأسئلته لمعرفة وجهات نظر غير النصارى في موضوع الخلود والروح[60].

يقول العَيْني عن فردريك الثاني إنه كان «ملكاً متميِّزاً عالماً محباً للحكمة والمنطق... والظاهر من كلامه أنه كان دهرياً، وإنما كان يتلاعبُ بالنصرانية»[61].

وقام فيلسوفٌ عربيٌ صقلِّيٌ هو ابنُ الجوزي بمرافقة فردريك الثاني في حملته إلى فلسطين (8-1229م)، وألقى عليه دروساً في علم الكلام والمنطق. كما أهدى فردريك إلى جامعة بولونية بشمال ايطاليا كتباً في المنطق والطبيعة أمر بترجمتها من اللغة العربية.

وألَّف القاضي جمال الدين بن واصل أثناء اقامته في جنوب ايطاليا رسالةً في المنطق أسماها (الرسالة الإنبرورية) وأهداها إلى منفريد بن فردريك.

التاريخ الطبيعي والصيد بالبيزان

كان فردريك الثاني شديدَ الاهتمام بتربية جميع أنواع الحيوانات، وقد اجتمع عنده منها جملةٌ كانت ترافقُه في رحلاته وحملاته في ايطاليا وألمانيا، ولم يكن بعضُها معروفاً في البلديْن، كالفِيلَة والإبل، والنمور والأسود والفهود، والصقور البيضاء ذوات اللحى، وزرافةٍ أهداها له سلطان مصر، وكانت أولَ زرافةٍ تُرى في أوروبا. كما جلب أنواعاً من الخيول العربية لتهجينها مع الخيول المحلية. وفي جزيرة مالطة كان يربي الإبلَ والصقور، وكان يربِّي الفهودَ في مستوطنة لوشيرة بجنوب ايطاليا. وقيل إنه كان يضع

---

(60) Smith, p. 61.

(61) المكتبة العربية الصقلية، ص 511, 515.

علاماتٍ على الأسماك لتمكينه من دراسة حركاتها. وكانت الطيور تفتنه، لا سيَّما تلك الطيور التي كان يستعملها في رياضة الصيد والقنص الأثيرة لديه. وقد أمضى ثلاثين سنةً وهو يدرس الصقور، وكان يستضيف خبراءها من المشرق العربي بأموال طائلة[62].

وقد ترجم مايكل سكوت لفردريك الثاني من العربية إلى اللاتينية كافةَ مؤلفات أرسطو في علم الحيوان وبخاصة كتاب De Animalibus، مع تعليق ابن سينا عليه، وأهداه إلى الملك عام 1232م.

وتظهر الأصولُ العربيةُ في كتاب (المسائل الطبيعية) للإنجليزي أديلارد الباثي في أقسام الكتاب الخاصة بعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا). ولعلَّ أديلارد أراد أن يقولَ إن ما تعلَّمه من العرب في مجال التاريخ الطبيعي لم يكن الحقائقَ والنظرياتِ المجردَة بقدر ما كان التفكيرَ العقلانيَّ المنطقيَّ، والفلسفةَ العلمانية، والاعتمادَ قبل كل شيء على المشاهدة والتجربة[63].

إن التفكيرَ العلميَّ القائمَ على التجارب والملاحظة ـ وهو ما اكتسبه فردريك الثاني عن العرب بحكم نشأته في صقلية واتصاله المستمر بعلماء المسلمين ـ يتضح في كتاباته. فكتابه عن البيزان مليءٌ بالملاحظات الشخصية التي توصَّل إليها عن طريق مراقبته للطيور، وبخاصة الصقور، وهو يقول: لما عَبرْنا البحرَ [إلى فلسطين] رأينا العربَ يستعملون كمامات للصقور، وأرسل إلينا ملوكُهم أمهرَ الصقَّارين ومعهم أنواع كثيرة من الصقور».

إن كتابَ فردريك الثاني عن الصيد بالبيزان De Arte Venandi cum Avibus أمضى في جمع مادته وإعداده ثلاثين عاماً وأهداه لابنه وخلَفه في

---

(62) Smith, p. 62.

(63) Haskins, p. 39.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

المُلْك منفريد. وفي سنة 1241م، تُرجمت لفردريك بطلبٍ منه وتحت إشرافه رسالةٌ عربيةٌ للصقّار مؤمن، وقد تولّى ترجمتَها إلى اللاتينية منجِّمُ البلاط ثيودور الأنطاكي، وعنوانُ الرسالة العربية باللاتينية De Scientia Venandi per aves، وكانت مصدراً اعتمد عليه فردريك في كتابه.

ويذكر فردريك في موضعين من كتابه عن الصيد بالبيزان التجاربَ التي اكتسبها في المشرق، مرةً بالنسبة لطيران الحمام الشامي، ومرةً بالنسبة للطرق العربية الخاصة بوضع كمامة على الصقور، وقد قام فردريك بإدخال هذه الطريقة إلى الغرب بإرشاد عدد من الصقّارين العرب.

وفي مقدمة الكتاب، يصرح فردريك باستقلاله عن أرسطو لأن الفيلسوفَ لم تكن لديه خبرةٌ عملية في مجال الصيد بالصقور، ويقول إنه اعتمد على التجربة والمعاينة وعلى نتائج استفسارات طويلة من الخبراء المَهرة العرب الذين جلبهم من أقطار بعيدة. ولما كان فردريك يؤمن بالملاحظة والمشاهدة المباشرة، فإنه استطاع أن يصحِّح أرسطو وبليني مستشهداً بما كان يقع عليه بصره. والكتاب في مُجمله لا يقوم على المصادر الكتابية بقدر ما يقوم على الملاحظة والتجربة من جانب الملك ومستشاريه. وكما يقول هاسكينز (Haskins)، فإن كتابَ فردريك «نتاجُ الخلاء المكشوف لا نتاجُ دراسةٍ في مَخْبر»[65].

ولما أراد فردريك الثاني أن يختبر تفقيسَ بيض النعام بفعل حرارة الشمس، أحضر لهذا الغرض خبراءَ من مصر إلى مقاطعة بولية (Apulia) بجنوب ايطاليا.

---

(64) المرجع السابق، ص 263، 1-312، 320.

مدينة بلرم
حاضرة صقلية العربية

بدأ افتتاحُ العرب لجزيرة صقلية في عهد ثالث أمراء الأغالبة بإفريقية زيادة الله الأول بحملةٍ قامتْ من سوسة في صيف عام 212هـ/ 727م، بقيادة قاضي القيروان الشهير أسد بن الفرات. وسُرعان ما استولى العربُ على معظم الجزيرة واتخذوا بلرم ـ بدلاً من سرقوسه ـ على الساحل الشمالي للجزيرة عاصمةً لهم سنة 831م. وقد ظلَّت بلرمُ حاضرةَ صقلية العربية إلى أن سقطت المدينةُ في أيدي المُغيرين النورمان من جنوب ايطاليا في سنة 1072م، أي أنها بقيت حاضرةً عربيةً نحو قرنين ونصف القرن من الزمن.

كانت صقلية بادىء الأمر ولايةً تابعةً لأمراء الأغالبة في القيروان، وبعد زوال تلك الإمارة، أصبحت الجزيرةُ تابعةً للعُبيْديين الفاطميين في افريقية أولاً، ثم في مصر. وفي عهدهم بلغت الجزيرةُ في القرن العاشر الميلادي أوْجَها الحضاري، كما تميَّزت بالازدهار الزراعي والنشاط التجاري، وبخاصةٍ مع افريقية، ومصر، ومدن جنوب ايطاليا. وكانت بلرمُ تضاهي قرطبةَ الأموية على عهد الخليفة الناصر عمراناً ورخاءً.

إن بلرم ـ ذات الموقع الجغرافي الممتاز والميناء الطبيعي ـ كانت في الأصل مستوطنةً قرطاجنيةً اسمها مَشَنات Machanat، ثم آلتْ إلى الرومان

بعد الحرب البونية الأولى، إلا أن عظمة المدينة لم تبدأ إلا بعد أن اتخذها العربُ عاصمةً للجزيرة. أما في العهود السابقة، فكانت بلرم ميناءً صغيراً ذا أهمية ثانوية. وكانت سرقوسة على ساحل الجزيرة الشرقي ـ لا بلرم ـ هي عاصمة الجزيرة في العهود الهلينية والرومانية والقوطية والبيزنطية. وقد عُرفت بلرمُ لدى اليونان باسم بنورموس Panormus، بمعنى المَرْسى الأمين، ومن هذه التسمية اشتُقَّ اسمُ بلرم[1]. وكان سقوطُ بلرم في يد الجيش الأغلبي في خريف عام 831م، بعد حصارٍ للمدينة دام عاماً، واستسلم والي المدينة البيزنطي بعد اشتداد المجاعة في المدينة المحاصَرة.

وبعد نصف قرنٍ فقط من اتخاذ العرب بلرم حاضرةً لهم في صقلية، زارها الراهبُ ثيودوسيوس من سرقوسة، فوصفها بأنها مدينة عظيمة، تعجُّ بالسكان من مختلف الأجناس. وكان المسلمون يتوافدون إليها من افريقية والأندلس، ومصر، وبلاد الشام. يقول الراهبُ ثيودوسيوس إن بلرم «مدينةٌ شهيرةٌ كثيرةُ السكان من أصليين وأجانب. وهي تبدو وكأنَّ كافةَ المسلمين قد تدفَّقوا لاستيطانها. فمن الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى البحر، لم تَعُدْ المدينةُ تتَّسع للوافدين الجُدد، ولذلك فإنهم أخذوا في تشييد منازلهم خارج الأسوار، فظهرت قرب المدينة عدةُ مدنٍ لا تقلُّ عن بلرم رخاءً، وهي أيضاً أرباض مسوَّرة[2].

وفي عام 325هـ/ 937م، اختطَّ الوالي الفاطميُّ خليل بن اسحاق مدينةَ الخالصة وحصَّنها في ظاهر بلرم ـ على غرار المهدية عاصمة العُبَيْديين

---

(1) Freeman, A.E., «The Normans at Palermo», in *Historical Essays* (Third Series), London 1879, pp. 438, 440, 443.

(2) Smith, D.M., *Medieval Sicily,* London 1969, p. 7.
Lombard, M. *The Golden Age of Islam,* The Netherlands 1975, p. 144.

(3) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الاسلامية، تعريب وتعليق أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1980، ص 34.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

بإفريقية ـ فأصبحت مقراً للوالي والدواوين وحامية المدينة[3]. وكان بالخالصة دارُ صناعةٍ لإنشاء المراكب[4].

وفي عام 362هـ/ 973م، زار جزيرةَ صقلية الرحالةُ المشرقيُّ ابنُ حوقل، فذكر أن مدينتَها الكبرى هي بلرم، وعليها سور عظيم شامخ منيع، يسكنها التجار، وفيها مسجد الجامع الأكبر، وكان بَيْعَةً للروم قبل فتحها. والمدينة مستطيلةٌ ذاتُ سوق قد أخذ من شرقها إلى غربها، يُعرف بالسِماط، مفروشٍ بالحجارة، عامرٍ من أوله إلى آخره بضروب التجارة.

ويذكر ابنُ حوقل من حارات بلرم حارةَ الصقالبة، وحارةَ المسجد المعروف بابن سقلاب ـ وعلى طرفها الوادي المعروفُ بوادي عبَّاس [اوريتو Oreto حالياً] ـ والحارةَ الجديدة. وتقع أكثرُ الأسواق فيما بين مسجد ابن سقلاب والحارة الجديدة، كسوق الزياتين والصيارفة والحدادين، وأسواق القمح وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والخبازين وطائفة من الجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين.

ويمضي ابن حوقل فيقول: ويدلُّ على قَدْرهم وعَددهم صفةُ مسجد جامعهم ببلرم، وذلك اني حَزرتُ المجتمِعَ فيه إذا غصَّ بأهله بلغ سبعةَ آلاف رجل ونيِّفاً. وبمدينة بلرم نيِّفٌ وثلاثمائة مسجد «ولم أر لهذه العِدَّة من المساجد بمكانٍ ولا بلدٍ من البلدان الكبار»[5].

وقد أُعجب ابنُ حوقل بكثرة البساتين والجنَّات حول بلرم، وبالأراضي الخصبة المفلوحة في سائر أنحاء صقلية. وقد استخلص بعضُ الباحثين من رواية ابن حوقل بأن سكان مدينة بلرم كانوا يتجاوزون ثلاثمائة ألف نسمة،

---

(4) ابن ابي دينار القيرواني، محمد: المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس 1967، ص 90.

(5) ابن حوقل، محمد: صورة الأرض، بيروت (بدون تاريخ)، ص 113-116.

أي أنها كانت أكبرَ من أية مدينةٍ أخرى في أوروبا، باستثناء القسطنطينية وقرطبة[6].

ويتحدث ابنُ أبي دينار القيرواني عن بلرم فيقول إنها أفخرُ مدائن جزيرة صقلية «وهي المدينةُ العظمى على ساحل البحر محدقةٌ بها الجبال، وهي ثلاثة أسمطة، وبها المدينةُ القديمةُ المسمَّاةُ بالخالصة، كانت مستقرَّ السلطان»[7].

ويصف الحميري مدينةَ بلرم بأنها قاعدةُ جزيرة صقلية ومدينتُها العظمى «وهي المدينة المسمَّاةُ بالمدينة حسب ماعناه ابنُ رشيق في قوله في ذكر هذه البلدة:

أختُ المدينة في اسمٍ لا يشاركُها ... فيه سواها من البلدان والتمسِ
وعظَّم اللهُ معنى ذكرِها قسَماً ... قلِّدْ إذا شئتَ أهلَ العلم أو فَقسِ

ولما مات ابراهيم بن أحمد بن الأغلب أميرُ افريقيا غازياً في جنوب ايطاليا ومحاصراً مدينة كشنته [Cosenza] سنة 289هـ/ 902م، حُمل جثمانُه بعد تصبيره إلى بلرم ودُفن بها[8].

وفي منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مرَّت صقليةُ بفترةٍ من الفتن والمنازعات الداخلية أشبهَ ما تكون بفترة ملوك الطوائف المتزامنة معها في الأندلس، مما جعلها تقع فريسةً في أيدي المُغيرين النورمان من جنوب ايطاليا.

---

(6) Smith, p. 7.

(7) ابن أبي دينار القيرواني، ص 90.

(8) ابن عبد المنعم الحميري، محمد: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت 1975، ص 101-102 (تحت مادة «بلرم»). وتحت مادة «صقلية»، ص 367، يذكر الحميري أن معنى صقلية باللسان القديم تين وزيتون، وهو الذي أراد ابن رشيق في مدح قاعدتها بلرم المعروفة عند العرب بالمدينة، مشيراً إلى قوله تعالى ﴿والتين والزيتون﴾. (سورة التين، آية 1).

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

ففي عام 1064م، حاول زعيم النورمان روبرت جيسكارد أخذَ المدينة وحاصَرها براً وبحراً لمدة ثلاثة أشهر دون جدوى. فأدرك أنه كان يواجه في مسلمي صقلية عدواً شديدَ المراس، بخلاف ما خبره في حروبه السابقة مع اللمبارد والبيزنطيين في جنوب ايطاليا.

ولعلَّ الهزيمةَ التي أوقعها النورمانُ بعد ذلك بجيشٍ يقوده الأمير الزيري أيوب بن المُعز بن باديس صاحب افريقية ـ قرب بلدة منزل الأمير Misilmeri القريبةِ من بلرم ـ كانت نذيراً بقرب سقوط بلرم في أيدي النورمان، إذ بقيت المدينةُ بعد تلك الهزيمة دون نصير.

وأدرك النورمانُ ضروةَ بناء قوةٍ بحريةٍ فعَّالة لإحكام الحصار على المدينة براً وبحراً، فوصل الكونت رجار النورماني إلى ظاهر بلرم على رأس جيشٍ قوامه عشرة آلاف رجل في شهر اغسطس عام 1071م. ثم لحق به أخوه الدوق روبرت جيسكارد على رأس الأسطول.

وقد أبدى المدافعون عن المدينة بسالةً شُهِد لهم بها، وأمطروا المهاجمين بوابلٍ من النبال والحجارة. ووصل أسطولٌ من افريقيا الزيرية لنجدة المدينة المحاصَرة. ويذكر مؤرخ نورماني بأن الأسطولَ الزيريَّ كاد أن ينتصر على أسطول جيسكارد، ويضيف بأن المسلمين غطَّوْا مراكبَهم بخيامٍ من اللباد اتقاءً من القذائف، إلا أن الأسطولَ النورمانيَّ تغلَّب في النهاية، وأحرق عدداً من المراكب الراسية في الميناء[9].

وفي الأسبوع الأول من شهر يناير عام 1072م، شنَّ مشاةُ النورمان هجوماً على حارة القصر وسط المدينة، ودارت معركةٌ طويلةٌ دمويةٌ أبدى فيها المدافعون بسالةً عظيمةً وردُّوا المهاجمين على أعقابهم. وفي هذه الأثناء اشتدت وطأة المجاعة في بلرم بعد أن طوَّق الكونت رجال المدينةَ وحال دون

(9) Norwich, J.J., *The Normans in the South,* London 1981, pp. 178-179.

وصول المؤن والإمدادات إليها. فَقِدم وفدٌ للتفاوض بشأن تسليم المدينة، وأمَّن جيسكارد السكانَ على أرواحهم وممتلكاتهم، وتعهَّد باحترام ديانتهم وشرائعهم، وطلب منهم - في المقابل - إعلانَ الولاء له ودفعَ جزيةٍ سنوية[10].

ودخل الأخوان النورمانيان مدينةَ بلرم، وبادرا بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، هي اليوم كاتدرائية بَلرم.

وكان سقوطُ مدينة بلرم - حاضرةِ صقلية العربية على مدى قرنين ونصف القرن - بعد مقاومةٍ وصمودٍ باسلَيْن داما خمسة أشهر - في اليوم الخامس عشر من ربيع الثاني عام 464هـ/ اليوم العاشر من شهر يناير عام 1072م.

أما كيف كانت بلرم عند سقوطها، فلم يصلْنا وصفٌ للمدينة آنذاك، إلا أن المؤرخَ الانجليزيَّ جوليوس نوريتش Julius Norwich يعلِّق على ذلك بقوله: لما كان التغيير يحدثُ ببطءٍ في القرون الوسطى، فإن مدينةَ بلرم كانت عند سقوطها في أيدي النورمان غيرَ بعيدةٍ عمَّا وصفَها به ابنُ حوقل في أواخر القرن العاشر الميلادي[11].

---

(10) نفسه، ص 179، 182.

(11) نفسه، ص 176، 177.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

الطري (الرُّباعي) الصقلّي
وأثره في جنوب أوروبا

انتزع النورمانُ جزيرةَ صقلية من أيدي العرب وحكموها قرناً من الزمن (1091-1194م). ولما كان النورمان قلَّةً وحديثي عهدٍ بالحضارة، فإنهم اعتمدوا على العرب في الإدارة وفي الدواوين والبلاط الملكي، وفي أعمال البناء والتشييد. وطوال فترة حكم النورمان لجزيرة صقلية، ظلَّت عُملاتهم تُضرب وعليها كتابةٌ عربيةٌ بالخط الكوفي، وبعضها يحمل التاريخَ الهجريَّ وعبارةَ (محمد رسول الله)[1].

إن عُملةَ رجار الثاني (حَكَم 1111-1154م) كانت تحمل لقبَه العربيَّ تقليداً للخلفاء الفاطميين، فضلاً عن لقبٍ مسيحي باللغة العربية (ناصر النصرانية)[2]. وفي عهد ملوك النورمان الثلاثة الأوائل، ظلَّ الرُباعي - أي ربع الدينار - الفاطمي متداولاً، وعلى منواله ضُربت عُملةٌ نورمانيةٌ عُرفت باسم طرى tari، وكانت هذه العُملة كالرُباعي شكلاً وقيمة[3].

وفي بحثٍ قيِّمٍ مستفيض دلَّل أستاذنا الدكتور س. ستيرن من جامعة

---

(1) D.M. Smith, *Medieval Sicily,* London 1969, p. 17.

(2) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الاسلامية، تعريب وتعليق أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1980، ص 73.

(3) نفسه، ص 76.

اكسفورد على أن العُملة المعروفةَ عند النصارى باسم tari مشتقةُ الاسم من العربية (طـري)، بمعنى طازج أوحـديث الضرب، وهي صفـةٌ استُعملت في لهجة صقلية العربية لنعت الرُباعي، بينما نجد إشاراتٍ في خارج صقلية إلى الدينار الطري والمثقال الـطري بمعنى الطازج أو حـديث الضرب، كمـا تُنعت النقود العربية بالطيبة والجيدة والوافية والجائزة[4]. ويذكر ابن فضـلان في رسالتـه أن أهل خوارزم «يسمُّون الدرهمَ طازجة»[5].

ويلاحَظُ أن الطري النورماني كـان دائماً يُعـرف باسم الـرُباعي. فـالرحـالةُ العربيُّ الأندلسي ابنُ جبير ـ الذي مرَّ بجزيرة صقلية على عهـد النورمـان عام 580هـ/ 84-1185م في طريق عودته إلى بلاده بعد تأدية فريضـة الحج ـ يقـول إن الملك النورماني غليالم (وليام الثاني) أمر لأصحـاب الزوارق المُغيثـة ـ بعد تحطُّم مركبهم قبالة مسينة ـ «بمئة رباعيٍ من سكَّته»[6].

ضرب روبرت جيسكارد الرباعي فور استيـلائه على بلرم في سنـة 1072م، ونقش عليه اسمه ولقبه بالعربية. وكان الطري النورماني يُعرف بالعـربية دائمـاً باسم الرباعي، كما يستدل من الوثـائق من تلك الفترة، ومما ذكره ابنُ جبيـر في رحلته.

وظلَّ الطري يُضـرب في عهد فـردريك الثـاني (حَكَم 1198-1250م)، وفي عهـد خَلفه من أسـرة هوهنشتـاوفن، وفي عهـد شـارل صـاحب أنجـو (حَكَم 1266-1285م) الـذي كـان آخـرَ من ضـرب الـطري من الـذهب. ولم يَختفِ الطري كعُملةٍ في صقلية وجنوب ايطاليا إلا بعد أن كان له فيهما تاريخٌ طويـلٌ دام أكثر من أربعة قـرون. إلا أن ذلك لم يَعْنِ اختفـاءَ الاسـم (طـري)، فقد ظـلَّ ـ وقد تـدنَّت منزلتُـه ـ يُطلق على عُملةٍ فضيـةٍ ضُربت لأول مـرة في عهد

(4) S.M. Stern, «Tari», in *Studi Medievali*, 11 (1), Spoleto 1970, pp. 180, 205.

(5) ابن فضلان، أحمد: رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، دمشق 1977، ص 113.

(6) ابن جبير، محمد: رحلة ابن جبير، بيروت: 1968، ص 265.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

ملك اسبانيا الكاثوليكي فرديناند في أوائل القرن السادس عشر للميلاد، واستمر تداولُه إلى القرن الثامن عشر.

واستعمله فرسانُ القديس يوحنا في جزيرة مالطة، إذ أطلقوا على عُملتهم الفضية الرئيسية اسمَ (طري) ابتداءً من حكمهم الجزيرة في سنة 1530م إلى نهاية حكمهم على يد نابليون بونابرت سنة 1798م، بل إن سلطاتِ الاحتلال الفرنسية ضربت الطري كذلك.

واستُعمل الطري الذهبي وحدةَ وزنٍ في نظام الأوزان في صقلية وجنوب ايطاليا. وظلَّ الطري مستعملاً وحدةَ وزنٍ في جزيرة صقلية إلى سنة 1826م، وفي مملكة نابولي إلى سنة 1864م.

وإلى عهدٍ قريب، كانت كلمةُ (طري) مستعملةً في لهجات صقلية وجنوب ايطاليا كما يُستدل من معاجم اللهجات المحلية. ففي صقلية، تُستعمل الكلمة بمعنى عُملةٍ فضيةٍ قديمة، ووحدةٍ لقياس الماء، كما أنها مستعملةٌ في كافة أنحاء مقاطعة قِلّوريَّة بجنوب ايطاليا بمعنى عُملةٍ فضية قديمة.

ولم يقتصرْ تداولُ كلمة (طري) على ايطاليا. فقد انتقلت الكلمةُ إلى فرنسا، فهي في البروفنسالية في القرن الثالث عشر للميلاد tarin وتُجمع على taris . ولما كانت صقلية تخضع منذ أواخر القرن الثالثَ عشرَ لحكم أراجون (القطلان)، فإن من الطبيعي أن تكون الكلمةُ قد انتقلت إلى النصوص باللغة القطلانية، وورد أولُ ذكرٍ لها في عام 1305م. وهي في القطلانية tari للمفرد، وتُجمع على tarins . واستُعملت الكلمة آخر الأمر للدلالة على عُملةٍ اسبانية، وفي الأمثال الشعبية[7].

ويبدو أن الطري بقي متداولاً في جزيرة مالطة في القرن التاسع عشر، إذ تنصُّ وثيقةٌ مالطيةٌ على أنه «في 1814/3/11 تركت سيدةٌ مالطيةٌ اسمُها ميشيلينه

(7) Stern, pp. 189-191.

بريفا Michelina Briffa وصيَّةً خصَّصتْ فيها لعبديْها ـ كما وصفتْهما ـ عقداً ذهبياً ومرتباً يومياً مقداره 4 طري لكلٍ منهما مدى حياتيْهما»[8].

ومع أن الطري كان يُعرف في اللغة العربية ـ كما تقدَّم ـ باسم الرباعي، إلا أن الرسائلَ المتبادلةَ بين التجار اليهود آنذاك تفيد بأن الرُباعي كان يُعرف في اللغة العربية الدارجة في جزيرة صقلية باسم (طري)[9].

وترد كلمةُ (طري) في عددٍ من الكتابات العربية على ورق البردي بمصر. ففي عقد زواجٍ مؤرخ في عام 259هـ/ 873م، ترد العبارةُ التاليةُ: «أربعةُ دنانير مثاقيل طراء جياد وازنة»[10].

كما وردت الصفةُ (طري) في أحد أزجال ابن قزمان كبير زجَّالي الأندلس في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث يقول في قطعةٍ زجليةٍ[11]:

في جُنَّ نحنُ بذا العُنْيبة
مثقالاً طري تسوي حبُّيبة
لس نبقى انا بلا شُريْبة
وفي سبنيَّتي قَطاعه[12]

ويوجز دكتور ستيرن بحثَه الممتع بقوله «إن (طري) ـ بمعنى نقود حديثة الضرب ـ كثيراً ما كانت تُستعمل لنعت العُملات الإسلامية، ولعلَّها في جزيرة صقلية استُعملتْ لنعت ربع الدينار أو الرباعي الذي كان العُملةَ الرئيسةَ

---

(8) G. Wettinger, «The Abolition of Slavery in Malta», in *Archivum, Malta* No. 1 (1981), p. 11.

(9) Stern, p. 192.

(10) نفسه، ص 197.

(11) ابن قزمان، أبو بكر: ديوان ابن قزمان، عُني بنشره ف. كورينطي، مدريد 1980، ص 172.

(12) السَبْنيَّة هي المنديل الذي كانت تُصرُّ فيه القَطاع، أي النقود (والقَطاعة اسم وحدة) ـ ديوان ابن قزمان، الهامش ص 174.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

المتداولةَ في الجزيرة. ثم حلَّت الصفةُ ذاتُها محلَّ الموصوف (الرباعي)، إما في لهجة صقلية العربية وإما حينما استعارها النصارى في جنوب ايطاليا. وبعد ذلك استُعملت كلمة tari في لغة التخاطب بين النصارى، وفي وثائقهم اللاتينية بمعنى ربع دينارٍ إسلامي. ولما أخذت مدنُ جنوب ايطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي تَضربُ عملاتِها تقليداً للرُباعي عُرفت هذه العُملات باسم tari . وقد قُدِّر لهذه الكلمة أن يكون لها تاريخٌ حافلٌ وطويلٌ في فترة حكم النورمان والهوهنشتاوفن لجزيرة صقلية. كما أنها ـ بمدلولاتٍ جديدةٍ ـ ظلَّتْ حيَّةً حتى القرنِ التاسعَ عشر، بل وإلى يومنا هذا»[13].

(13) Stern, p. 207.

أبو العباس أحمد الصقلي

- سيرة قائد بحري مسلم -

كـان من بين من لمعتْ أسمـاؤهم في البلاط النـورمـاني في صقليـة في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد رجلٌ من أهل جزيرة جربة، بخليج قابس، كان قد أسره النورمان في عهد رجار الثاني، إمـا عند احتـلالهم الجزيـرة عام 529هـ/ 1135م، وإما في إحدى غـاراتهم على الجزيـرة قبيْل ذلـك التاريـخ، «فتنصَّـر» وأعتقه الملكُ النـورماني، وشغـل عدداً من المنـاصب السـاميـة في البـلاط النورمـاني، حيث عُرف بـاسم القائـد بييترو/ بـطرس (gaito Pietro) وعُهد إليه بقيادة الأسطول. وكان قد تقلَّد هذا المنصبَ من قبله مسلمٌ آخرُ هو فليب المهدوي. ويذكر الرحالةُ العربيُّ الأندلسيّ ابنُ جبير بأن ملوكَ النورمان في صقليـة كـانـوا يعتمـدون على المسلمين في إدارتهم «فكثيـرٌ من وزارئهم وحجَّـابهم من الفتيـان، وكلهم أو أكثـرهم كـاتمٌ إيمـانـه متمسـكٌ بشـريعـة الإسلام»[1].

وكان النورمان قد بسطوا سيطرتَهم على مـدن ساحـل افريقيـة من طرابلس الغرب إلى عنابة نحواً من اثنتيْ عشرةَ سنة، إلى أن قدم الموحـدون فأجلَوْهم عن آخـر هذه المـدن وهي المهديـة عام 555هـ/ 1160م. وقـد دفـع مسلمـو

(1) ابن جبير، محمد: رحلة ابن جبير، بيروت 1968، ص 267.

صقلية ثمنَ انتصار الموحدين على النورمان في المهدية، فجُرِّدوا على الأثر من السلاح، مما جعلهم تحت رحمة أعدائهم من الإقطاعيين والمستوطنين اللمبارد أثناء الثورة العارمة التي قام بها هؤلاء ضد الملك وليام الأول عام 1161، والتي ذهب ضحيتَها كبيرُ وزرائه مايو، وعددٌ كبيرٌ من فتيان القصر المسلمين.

وفي هذه الفترة، وإثر غارةٍ للأسطول النورماني على الجزائر الشرقية (جزر البليار) ضد أصحابها بني غانية، طُلب إلى مقدَّم الأسطول القائد بطرس التوجُّهُ فوراً لنجدة حامية المهدية أثناء حصار الموحدين للمدينة. ولما أخفق في إنقاذ المهدية، وعاد بالأسطول إلى بلرم، اتَّهمه خصومُه النبلاءُ بالخيانة، فها هو أحدُهم المؤرخ النورماني هوجو فلقندو يقول: «إن بطرس ـ شأنه شأن بقية فتيان القصر ـ نصرانيٌ اسماً وزياً، ولكنه مسلِّم باطناً، وعلى ذلك، فإن انسحابه من المهدية لم يكنْ بسبب عجزه أو جبنه، وإنما كان نتيجةً لخيانة سافرة». إلا ن المؤرخين الآخرين لا يذكرون أيةَ خيانةٍ من جانب بطرس. فالتجاني ـ نقلاً عن شاهد عِيان ـ يقول إن الأسطولَ النورمانيَّ شتَّتَتْهُ عاصفة، وهاجمه المسلمون قبل أن يكون لديه الوقتُ الكافي للتجمع ثانية[2]. ويبدو أن هذا هو التفسيرُ الصحيحُ لما حدث، إذ لا نجد ذكراً لأي إجراءٍ تأديبيٍ تمَّ اتخاذُه ضدَّ القائد بطرس لدى عودته إلى بلرم، بل إنه على العكس من ذلك ازدادتْ حظوتُه لدى الملك، فَرُقِّي وشَغلَ مناصبَ ساميةً لمدة طويلة بعد ذلك. ولعلَّ السببَ الحقيقيَّ لتخلِّي النورمان عن مواقعهم على ساحل افريقية هو ما كانوا يواجهونه من مشاكلَ داخليةٍ وأخطارٍ تتهدَّدهم من جانب الروم البيزنطيين، والأمبراطور الألماني، وقوات البابا، فلم تتوفَّرْ لديهم الواردُ الكافيةُ لمواجهة هذه الأخطار والتصدي في الوقت ذاته لدولة الموحدين الفتيَّة، ومحاولة إخضاع شعبٍ بكامله في افريقية.

(2) Norwich, J.J., *The Kingdom in the Sun,* London 1979, p. 212.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

وبعد أن قمع الملكُ وليام الأول الثورةَ الدامية التي قام بها النبلاءُ عام 1161م، عهد بإدارة المملكة إلى ثلاثة أشخاص، وفي مقدمتهم القائدُ بطرس الذي رُقِّي إلى منصبٍ سامٍ هو منصبُ حاجب القصر. وبعد وفاة الملك عام 1166م، تولَّت أرملتُه الملكةُ مارجريت الوصايةَ على ابنهما الصغير وليام الثاني (وكان في الثانيةَ عشرةَ من عمره) يعاونها ثلاثةُ رجالٍ كان أحدهم القائد بطرس الذي أبدى كفاءةً إداريةً وإخلاصاً للملك وأسرته. وكانت له حظوةٌ لدى الملكة التي كانت تخشى أطماعَ الآخرين، وتحرصُ على الاحتفاظ بالمُلْك لابنها. فازداد نشاطُ خصوم القائد بطرس، الذين لم يَرُقْ لهم وضعُ إدارة مملكةٍ صقلية ـ وهي من أغنى ممالك أوروبا آنذاك ـ في يديْ فتى مسلم. وتزعَّم الحركةَ المناوئةَ للقائد بطرس ابنُ عم الملكة واسمه جلبرت (Gilbert)، فأخذ يحيك المؤامراتِ لاغتياله، كما حدث من قبل لكبير الوزراء مايو. وكان القائدُ بطرس على علمٍ ـ عن طريق أعوانه ـ بما كان يُدبَّر ضده، فبادر أولاً إلى تعزيز حرسه الخاص، إلا أنه وهو يذكر مصيرَ سلفه مايو، وما حدث لقائدٍ بحريٍ مسلمٍ من قبله وهو فليب المهدوي (ت. 548هـ/ 1153م)[4]، عزم على الفرار. فتظاهر بأنه سينتقل إلى قصرٍ آخرَ شيَّده في حي الكمونية ببلرم، وكان قد أعدَّ مركباً في الميناء، فخرج في ليلة مظلمة صحبةَ بعض رفاقه حاملاً معه كميةً كبيرة من المال، واستقلَّ المركبَ عائداً إلى موطنه الأصلي افريقية. ولدى وصوله إلى تونس، استردَّ اسمَه الأصليَّ (أحمد)، وأظهر إسلامَه، واستأنف مزاولةَ مهنته البحرية الأصلية، إذ نجده قائداً لامعاً لأسطول الموحدين في عهديْ يوسف بن عبد المؤمن، وابنه يعقوب المنصور.

---

(3) التجاني، عبد الله: رحلة التجاني، تونس 1958، ص 347-349.

(4) عن فليب المهدوي ومصيره، انظر ابن الأثير، علي: الكامل في التاريخ، الجزء التاسع، بيروت 1980، ص 42.

لقد سبَّب فرارُ القائدِ بطرس إحراجاً شديداً للملكة مارجريت، التي نفَتْ ما زُعم من أن القائدَ بطرس قد فرَّ ببعض الكنوز الملكية. وأما ابنُ عمها جلبرت فإنه قال: وما الذي يمكن توقعُه من رجل مسلم؟ ألمْ يخُنْ بلاده قبل سبع سنوات؟ بل إن الغريبَ أنه لم يجلب منذ زمنٍ أصدقاءه الموحدين إلى القصر للفرار ببقية الكنوز الملكية، بل وبالملك نفسه[5].

يتحدث ابنُ خلدون عن أبي العباس أحمد الصقلِّي فيقول إنه من كُتامة، وفيهم بجزيرة جربة سدويكش وصدغيان من بطونهم[6]. ويقول في (المقدِّمة) إنه «لما استفحلتْ دولةُ الموحدين في المائة السادسة وملكوا العُدوتيْن، أقاموا خطةَ هذا الأسطول على أتمِّ ما عُرف... وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي أصلُه من صدغيان الموطَّنين بجزيرة جربة من سدويكش، أسره النصارى من سواحلها ورُبِّي عندهم، واستخلصه صاحبُ صقلية واستكفاه، ثم هلك وولي ابنُه فأسخطه ببعض النزاعات، وخشي على نفسه، فلحق بتونس ونزل على السيد بها [عبد الله بن عبد المؤمن] من بني عبد المؤمن، فأجاز إلى مراكُش، فتلقَّاه الخليفةُ يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة، وأجزل له الصلة، وقلَّده أمر أساطيله، فجلَّى في جهاد أمة النصرانية، وكانت له آثارٌ ومقاماتٌ مذكورة في دولة الموحدين، وانتهتْ أساطيلُ المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة ما لم تبلُغْه من قبله ولا بعد فيما عهدنا»[7].

وفي الغزاة الكبرى التي قادها السلطانُ الموحديُّ أبو يعقوب يوسف لاسترداد شنترين بغرب الأندلس عام 580هـ/ 1184م «برز أسطولُه على الأشبونة، وحاصرها عشرين يوماً»[8]. ولا شكَّ في أن أحمدَ الصقلي كان

---

(5) Norwich, pp. 255-256.

(6) ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العبر، المجلد السادس، بيروت 1959، ص 848.

(7) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، القاهرة (بدون تاريخ)، ص 255.

(8) الحميري، محمد بن عبد المنعم: كتاب الروض المعطار، بيروت 1975، ص 346.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

مقدَّماً على هذا الأسطول. كما يرد اسمُه قائداً للأسطول الموحدي الذي أُرسل لاسترداد بجاية من أيدي بني غانية، «وتقدَّم القائدُ أحمد الصقلي بأسطوله إلى بجاية، فملكها»[9]. وكان ذلك في صفر سنة 580هـ/ مايو 1185م.

ويرد اسمُ أحمد الصقلِّي قائداً للأسطول الموحدي بإشبيلية، وهو الأسطول الذي اجتمع مع أسطول سبتة، وهَزم أسطولاً برتغالياً في جهة شِلْب بغرب الأندلس في 15 محرم 577هـ/ 31 مايو 1181م[10]. وفي سنة 583هـ/ 1187م، «كانت حركةُ القائد أبي العباس الصقلي بالأساطيل المنصورة على يابسة [إحدى جزر البليار]، ودخلوها، واستولَوْا عليها، وقبضوا فيها على ابن نجاح القائد المايورقي الذي هرب عن ابن غانية للموحدين، ثم نكث عليهم، وكان قد خدعَ أهلَ يابسة ودخلَها»[11].

---

(9) كتاب العبر، 6/ ص 508.

(10) ابن عذاري المراكشي: البيانُ المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني وزملائه، الدار البيضاء 1985، ص 145.

(10) نفسه، ص 197.

مقاومة بطولية لفتاة عربية من بني عبس في صقلية

(أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)

تمهيد

بعد أن انتزع النورمانُ السيادةَ على جزيرة صقلية من أيدي العرب وحكموا الجزيرةَ قرناً من الزمن (1091-1194م)، انتهجوا إجمالاً سياسةَ تسامحٍ دينيٍ تجاه مسلمي صقلية في وقتٍ كانت فيه الحروبُ الصليبيةُ قائمةً في المشرق. ولما كان النورمانُ في الجزيرة أقليةً، فإنهم جنَّدوا العربَ وحَمْوهم من اضطهاد النبلاء الإقطاعيين من النورمان والمستوطنين الوافدين على الجزيرة من اللمبارد. ومع ذلك، فإن عرب صقلية تعرَّضوا للاضطهاد والمذابح أكثر من مرة خلال الفترة النورمانية، وبخاصة في عام 1160-1161م وعام 1189-1190م، حينما انتهز أعداؤهم فرصةَ ضعف سلطة ملوك النورمان.

وفي الربع الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، عمَّت الفوضى والاضطراباتُ الجزيرةَ في بداية حكم الإمبراطور فردريك الثاني، وقام عربُ صقلية بدَوْرهم بحمل السلاح والثورة لحماية أنفسهم، وما تبقَّى من ممتلكاتهم وتمكَّنوا من السيطرة على منطقة جبلية واسعة في غرب الجزيرة لفترة تقرب من ربع قرن.

وبعد أن انتُخب فردريك امبراطوراً على رأس الامبراطورية الرومانية

المقدسة عام 1220م، عقد العزمْ على أن يحكم جزيرةَ صقلية حكماً فردياً استبدادياً، فاتخذ تدابيرَ للحدِّ من سلطة البارونات الإقطاعيين، والكنيسة، والمدن في الجزيرة، ثم بادر إلى شنِّ سلسلةٍ من الحملات الطويلة والمكثَّفة ضد الثائرين المسلمين بغرب الجزيرة، وكان يتزعمهم محمدُ بن عباد العبسي ثم ابنتُه من بعده. ولما نجح الإمبراطور آخر الأمر في قمع هذه الثورة، اتخذ قراراً - في منتهى القَسْوة - بترحيل العرب من صقلية وإسكانهم في مستوطنة لوشيرة/ لوجاره Lucera بجنوب ايطاليا، حيث أصبحوا تحت رحمة الامبراطور الذي استغلَّهم في حروبه العديدة في شبه الجزيرة الإيطالية.

ثورة عرب صقلية

تمَّ في بلرم سنة 1198م تتويجُ الملكة كونستانس وارثة عرش صقلية وابنها الصغير فردريك الذي كان يناهز الثالثةَ من العمر، وبعد وفاتها في أواخر تلك السنة، تولَّى البابا إنَّوسنت الثالث الوصايةَ على فردريك. واستمرت الاضطراباتُ في صقلية أثناء فترة طفولة فردريك، وثار عرب صقلية واعتصموا بالجبال في غرب الجزيرة، واتصلوا بالموحدين معلنين ولاءهم لهم. يقول ابن عذاري إنه في سنة 607هـ/ 1211م وصلت الأنباءُ إلى مراكش عاصمة الموحدين بتغلُّب المسلمين «على كثير مما في أيدي الروم من معاقل صقلية، ووصول أعيانهم ووجوههم إلى مدينة تونس إلى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص، وإطلاق الخطبة في بلادهم بالدعوة المهدية الموحدية وإنكارهم ما سواها من المقصورة على العباسية»[1].

بعد أن تُوِّج فردريك امبراطوراً سنة 1220م، قطع على نفسه عهداً بالمشاركة في حملة صليبية مرضاةً للبابا الذي كان يُلحُّ عليه بذلك، بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة في مصر (1217-1221م). ثم لم يلبث فردريك أن

(1) ابن عذارى المراكشي: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني وزملائه، الدار البيضاء 1985، ص 257.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

اعتذر عن تجهيز حملة صليبية، بحجة انشغاله في توطيد الأمن في صقلية، وقمع ثورة العرب فيها. وكان عربُ صقلية ـ بعد كل ما عانَوْه من فقدانٍ للممتلكات، ومن اضطهادٍ ومذابح ـ يَرْون أن خضوعَهم لفردريك لن يجلبَ لهم سوى المزيد من الشقاء والتبعية الإقطاعية، ولذلك، فإنهم واصلوا ثورتَهم نحواً من ربع قرن بزعامة محمد بن عباد العبسي.

إن ثورة مسلمي صقلية كانت نتيجةً لسوء أحوالهم الاقتصادية، ولما كانوا يتعرَّضون له من اضطهاد وبطش من جانب أعدائهم البارونات والإقطاعيين النصارى في الجزيرة. أضف إلى ذلك أن ضريبةَ العُشْر (tithe) ـ عُشر المحاصيل ـ التي نادى بجبايتها البابا انوسنت الثالث لتجهيز الحملات الصليبية أحدثتْ بالخصوص استياءً كبيراً بين المسلمين في صقلية، وكانوا يتابعون بكل إهتمامٍ أخبارَ الحروب الصليبية الدائرةِ في المشرق آنذاك والانتصاراتِ التي أحرزها السلطان صلاحُ الدين الأيوبي (انتصر في وقعة حطِّين واستردَّ بيتَ المقدس سنة 583هـ/ 1187م). ولا بد كذلك أن روحهم المعنويةَ قد قويتْ وانتعشتْ آمالُهم في تلك الآونة للانتصارات التي أحرزها الموحدون في الأندلس في عهد السلطان الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور (انتصر على ملك قشتالة في وقعة الأرك Alarcos سنة 591هـ/ 1195م).

وقد جابت جماعاتٌ من المسلمين أنحاءَ جزيرة صقلية الوسطى والغربية لاسترداد ممتلكاتها المغتصبة، وتمكَّنت من الاستيلاء على عدد من المعاقل والضياع. واستولى الثائرون على مدينة جرجنت Girgenti على ساحل الجزيرة الجنوبي تأميناً لمواصلاتهم مع شمال افريقيا، ووقع أسقف المدينة في الأسر لمدة عام. كما أن رئيسَ أساقفة دير مونريال Monreale القريب من بلرم فَقَد السيطرةَ على جانب كبير من ممتلكات ديره[2]. وقد قُدِّر عددُ الثائرين

(2) Smith, D.M., *Medieval Sicily*, London 1969, p. 51.

سنة 1220م بما يتراوح بين خمسة وعشرين ألف وثلاثين ألف رجل[3].

ولدى عودة فردريك الثاني من المانيا بعد تتويجه امبراطوراً عام 1220م، بادر إلى شنّ حرب واسعة النطاق للسيطرة على «منطقة الحرام» في داخل الجزيرة، والتي كان يُشار إليها أحياناً باسم «ثغر المسلمين»[4].

مصادر ثورة ابن عباد العبسي

كان على رأس الثائرين العرب في صقلية رجل تشير إليه المصادرُ اللاتينيةُ باسم Morabit/ Mirabetto، وقد تبيَّن الآن من المصادر العربية أنه محمدُ ابن عباد العبسي الذي وفد إلى جزيرة صقلية من جزيرة شريك (شبه جزيرة رأس بون/ الرأس الطيِّب) بإفريقية، والتي تُنسب إلى شريك العبسي الذي كان عاملاً عليها[5].

إن اسم هذا الزعيم العربي الصقلِّي لم يكن معروفاً لدى الباحثين إلى عهدٍ قريب إلى أن اهتُدي إلى نصٍ في كتاب (التاريخ المنصوري) لأبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي ـ وكان معاصراً للأحداث ـ ورد فيه اسم هذا الزعيم. يذكر ابنُ نظيف الحموي ضمن حوادث سنة 620هـ انه دخل «إلى ابن عباد ولدُ القاضي، قاضي صقلية، وقال له: المصلحةُ أن تخرج إلى طاعة الملك... فلما كان صبيحةَ تلك الليلة، خرج القاضي وابنُ عباد معه إلى الانبرور، وحضر بين يديه، فانتهره وضربه برجله وفيها المهماز شقَّ جنبه وتركه في خيمةٍ ناحيةً، ثم بعد سابع يومٍ قتله وشقَّ بطنه وأخذ مالَه وربط أولاده في أذناب الخيل، وتملَّك الانبرور الجزيرة، وبقيت بقيةٌ من

---

(3) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب وتعليق أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس 1980، ص 95.

(4) Smith, p. 52.

(5) البكري، أبو عُبيد عبد الله: المُغرب في ذكر بلاد المغرب، تحقيق دي سلان، باريس 1965، ص 45.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

القلاع في يد المسلمين، في يد بعض أقارب ابن عباد مثل القائد مرزوق وهو ختنه [زوج ابنته] عمل حيلةً حسنة، وهي أنه سيَّر إلى الانبرور وقال له: تعلمُ ان ابن عباد قد راح وما بقي لنا إلا أنت، فنفِّذ إليَّ ثقاتك وخواصَّك لأسلِّم البلاد إليهم والقلاعَ وننزل إليك، فما أنا إلا أنت. فسيَّر الانبرور أخصَّ الناس عنده وأقرَبهم إليه مقدار مائة وخمسة عشر نفراً، فقتل الجميعَ وأخذ دوابَّهم وغلمانَهم وقال: هؤلاء عوض ابن عباد يا عدُّو الله. فجرى على الانبرور ما لا يوصف، وبقي الانبرور على هذه الحالة»[6].

وجاء في فقرةٍ بكتاب (المُغرب في حُلى المَغْرب) عن ابن عباد العبسي انه «ثار في انطلَّة محمدُ بن عباد، وعظُم أمره، واجتمع إليه المسلمون، ودام أمره إلى أن كبر الانبرطور، فاشتغل بحربه حتى أذعن ابنُ عباد لما تكاثر عليه الفرنج، ولم ير أحداً من المسلمين ينصره، فغدر به الانبرطور وقتله، وبقيت بعده بنتُه في انطلَّة، وغدرت بثلاثمائة فارس من فرسان الانبرطور أطلعتهم على أن تمكّنَهم من الحصن، وقتلتْهم ثم قتلتْ نفسَها»[7].

وكما يقول المستشرق الفرنسي ليفي ـ بروفنسال فإن روايةَ ابن سعيد المقتضبةَ التي تخلو من السنوات لم تتسنَّ الاستفادةُ منها كثيراً. أما معقل إنطالة الذي اعتصم فيه محمدُ بنِ عباد وابنتُه من بعده فهو يُعرف اليوم باسم صخرة إنطالة Rocca d'Entella، وهو يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة بلرم، وإلى الغرب قليلاً من مدينة قرليون Corleone.

---

(6) ابن نظيف الحموي، محمد بن علي: التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)، تحقيق أبو العيد دودو، دمشق 1982، ص 100-101.

(7) ريتزيتانو، امبرتو: «منتخبات من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميري»، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مجلد 18، جزء أول (مايو 1956)، ص 142-143.

رواية الحميري عن بطولة ابنة عباد العبسي

أورد صاحبُ كتاب (الروض المعطار) تحت مادة (إنطالة) روايةً عن بطولة ابن عباد وابنته أكثرَ تفصيلاً ممَّا أورده ابنُ نظيف الحموي وابنُ سعيد المغربي. ويرى ليڤي ـ بروفنسال أن من المحتمل أن يكون الحميري وابنُ سعيد من قبله قد استمدَّا روايتيْهما من مصدرٍ واحد لعلَّه تاريخٌ مجهولُ الاسم يعود إلى أواخر أيام دولة الموحدين ـ أي إلى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ـ وعلى المصدر ذاته اعتمد الحميري كثيراً في المواد التي أوردها في مُعجمه الجغرافي عن المغرب والأندلس، فيما يتعلَّق بالأحداث التي وقعتْ في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[8].

ونورد فيما يلي النصَّ الكاملَ لرواية الحميري عن استبسال ابنة محمد ابن عباد العبسي، التي لم يصلْنا مع الأسف اسمُها الأول، لما يحتويه من مغزىً وعبرةٍ عن مَثلٍ بطوليٍ في الفطنة والدهاء، والبسالة وصدق الجهاد، ضربتْه هذه الفتاةُ العربيةُ المسلمةُ المجهولةُ الاسم منذ نيِّفٍ وسبعةِ قرون.

يقول ابنُ عبد المنعم الحميري تحت مادة (إنطالَّة):

«إنطالَّة حصنٌ عظيمٌ ومعقلٌ منيعٌ من حصون جزيرة صقلية، فيه تحصَّن محمدُ بن عباد القائمُ بأمر المسلمين في جزيرة صقلية. فلما كانت سنة ست عشرة وستمائة [1219-1220م] عقد الصلحَ مع الانبرور طاغيةِ جزيرة صقلية وغيرها، على أن يدخلَ تحت طاعته ويأخذَ جميعَ أمواله وذخائره ويجهِّزه في قطائعَ إلى ساحل افريقية، ولا يقتله. وأبتْ ابنتُه أن تدخلَ في هذا الصلح، وامتنعتْ في هذه القلعة وقالت لأبيها: أنا فداك، فإن لقيتَ خيراً اتَّبعتُك، وإن كان غيرَ ذلك فلا بد أن أنكي أعداءك وآخذَ بثأرك على قدر الاستطاعة. ولما

(8) Lévi - Provençal, E., «Une heroine de la resistance musulmane en Sicile...», *Oriente Moderno*, 44 (1954), Roma, pp. 283-4.

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

جذَّفت به القطائعُ وغابوا عن العيون، قال له الموكَّلون به: إن السلطان قد وفى لك ولم يحنثْ في يمينه، وها نحن قد توجَّهْنا إلى افريقيَّة، وهو لم يقتلْك، ونحن نغرقك ونريح دينَ المسيح منك، فالذي صنعتَ في هذه الجزيرة مثلُه لا يُنسى. ثم غرَّقوه وعادوا بجميع أمواله إلى الانبرور، وحمدتْ ابنتُه رأيها، وزادت بصيرةً في الامتناع بذلك المعقل المُعانق للسحاب، وجعلت تغادي شنَّ الغارات وتراوحها بمن خافَ غدرَ الانبرور من فرسان المسلمين ورجالهم، ثم أرسلت في سنة تسع [عشرة وستمائة/ 1222-1223م] إلى الانبرور: إني أمرأة، وقد بُليتُ بمحاربة الرجال ومداراتهم، وقد ضقتُ ذرعاً بالأولياء منهم والأعداء، وضعفتْ نفسي، ومعي من صناديد الأبطال من لا ينقاد لمرادي، فأرحْني وأرحْ نفسَك وأهلَ مملكتك من هذا النَصب الدائم، بأن توجِّه لي ثلثمائةً من أبطالك الذين لا يهابون ولا ينخدعون، لأُدخلَهم ليلاً إلى هذا الحصن ويحتوون عليه، فإذا ملكوه ودخلتُ أنا بعد ذلك في طاعتك، لم يكن بعد ذلك شيء يتوقع منه عائد، فافكر فيما خاطبتك به، والله يخيِّر ويختار. قال: وكان الانبرور قد طالت اقامتُه واقامة جموعه على حصارها، فرأى ذلك غنيمةً لا يجب أن يؤخَّر انتهازُ الفرصة فيها، فاختار ذلك العددَ وأرضاهم وأنفذهم في الليل، ففتحت لهم بابَ قلعتها وفرَّقتهم على أبطاله بحيلٍ تمَّتْ عليهم. فلما ولَّى الظلامُ وتبيَّنت الوجوه، ركب الانبرور إلى جهة الحصن يطَّلع إلى أعلامه كيف هي على سوره، فإذا رؤوس أبطاله معلَّقةٌ ما بين شرفاته، وأعلام المسلمون منشورةٌ وطبولهم عاملة وكلمتهم عالية، فسُقط في يده، ونظر الفرنجُ إلى ما لم يكن في حسابهم، ولا خطرَ لهم أنه يتمُّ في المنام بالأحلام. قال: فأراد الانبرور أن يبلغ في هذه القضية غرضه بحيلةٍ تتوجَّه عليها، فأرسل إليها: أنتِ قد عشْتِ، ولا أبالي من مات من أهل ملَّتي، وقد ظهر لي أن ما في الدنيا امرأة تصلح أن يكون لي منها ولد غيرك، فتعاليْ حتى نتمَّ ذلك، فأنت إن بقيتِ على ما أنت عليه وحصلتِ في أيدي الفرنج، قطَّعوك عضواً عضواً، فاختاري

لنفسك ما تريْنه مصلحة. فأجابت: وصلني كتابك، وفهمتُ حقَّه وباطله، وأبلغني بعضُ عيوني الذين لم أزل أبثُّهم عليك انك قُلتَ: إن هذا عجب، امرأة تمكر بثلثمائة رجل، وليس هذا بعجب، وقد أنزل في الكتاب المُنزل على نبيِّنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم في ذكر النساء ﴿إن كيدَهنَّ عظيم﴾[9]. فهذا من ذلك، وإنما العجب مني ومنك، إذ أنا مقيمة في نشَزةٍ من الأرض ولا ناصر، وأنت تملك مسيرةَ نصف شهر، ولك الجيوش التي تغصُّ بها الأرض، والخزائن، والأموال، والخواصّ أصحاب الآراء، وقد أثَّر فيك توقفك، وشغلتُك عن مهمات أمورك، وقدرتُ عليك أكثر مما قدرتَ عليَّ، وأنكيتُ فيك أشد من نكايتك فيَّ، وها أنا أقطع عليك السلاسلَ في الحيل، فتكفي حيلتُك في أبي ثم حيلتي في أبطالك، ومن الآن فايئس أن احصل لك في يد وفي جسدي روح، وأنا مقاتلتك ومكايدتك حتى تفنى ذخائري التي بهذا الحصن، ويعجز أهلُ حمايتي، فإذا انتهيتُ إلى هذا الحد، فعلتُ ما سيبلغك. قال: فيئس الانبرور منها وقال: ما لهذه إلا المطاولة. فبنى حصناً في مرابطة حصنها، وصار جندُه يترددون على ذلك الحصن، كلَّما كلَّتْ طائفةُ استجدَّ غيرها إلى أن بلغت الحدَّ الذي وعدتْ به، فسمَّت نفسَها»[10].

أما ابن خلدون فإنه يذكر ـ خطأً ـ أن ثورة مسلمي صقلية بزعامة ابن عباد العبسي نشبتْ عقب وفاة سلطان تونس الحفصي أبي زكريا يحيى، أي بعد أكثر من ربع قرن من قيام الثورة، فهو يقول: «ولما بلغ الخبرُ بمهلك الأمير أبي زكريا [23 جمادى الآخرة 647هـ/ 3 اكتوبر 1249م) إلى صقلية، وكان المسلمون بها في مدينة بلرم قد عقد لهم السلطان [أبو زكريا] مع صاحب

(9) سورة يوسُف، آية 28.

(10) ابن عبد المنعم الحميري، محمد: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت 1975 ص 40-41.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الجزيرة [فردريك الثاني] على الاشراك في البلد والضاحية فتساكنوا، حتى إذا بلغهم مهلكُ السلطان بادر النصارى إلى العَيْث فيهم، فلجأوا إلى الحصون والأوعار، ونصَّبوا عليهم ثائراً من بني عبس، وحاصرهم طاغيةُ صقلية بمعقلهم من الجبل، وأحاط بهم حتى استنزلهم وأجازهم البحرَ إلى عُدوته وأنزلهم لوجارة من عمائرها»[11].

لجأ فردريك الثاني في الفترة ما بين عامي 1222 و1224م إلى اتخاذ تدابير عسكرية صارمة ضد الثائرين المسلمين، منها إحراقُ المحاصيل لإجاعتهم وإهلاكهم جوعاً، أو حملهم على الاستسلام. وفي كتابٍ لفردريك الثاني عام 1223م، يقول إنه تمكَّن أخيراً من استنزال عرب صقلية «من قمم الجبال والمعاقل المنيعة» إلى البسائط إثْرَ حملةٍ مضنية[12].

ولعلَّ الهزيمةَ الكبرى التي لحقتْ بالموحدين في الأندلس في وقعة العِقاب سنة 609هـ/ 1212م ـ وما تلاها من انهيارٍ لسلطانهم في الأندلس والمغرب ـ كان أحدَ العوامل الرئيسية التي فتَّتْ في عضد المقاومة العربية في صقلية وأفقدتْها الأملَ في تلقِّي العون منهم.

وبعد أن قضى فردريك على ثورة عرب صقلية، اتخذ الخطوةَ الحاسمةَ لتصفية الوجود الإسلامي في الجزيرة، بانتهاج سياسة ترحيلهم منها جملةً وإسكانهم في مستوطنة لوشيرة/ لوجارة Lucera بمقاطعة بولية Apulia إلى الشمال الشرقي من مدينة نابولي. ومما يُذكر أن سلطانَ مصرَ الأيوبي الكامل ـ وكان على علاقةٍ وديةٍ بصاحب صقلية ـ أوفد مبعوثاً إلى فردريك للتوسط بشأن عرب صقلية، طالباً أن يُتركوا وشأنَهم في صقلية، أو أن يُسمح لهم بالهجرة إلى مصر، إلا أن مسعاه هذا لم يؤدِّ إلى نتائجَ عملية[13]. ويورد

---

(11) ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العبر، المجلد السادس، بيروت 1979، ص 280.

(12) Daniel, N., *The Arabs and Mediaeval Europe*, Beirut 1975, p. 154.

(13) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 98.

ابنُ أبي نظيف الحموي ـ ضمن حوادث سنة 627هـ/ 1229-1230م ـ تفاصيلَ ذلك فيقول إنه «وصل إلى الكامل بحرَّان شخصٌ يقال له أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرمَّان من جزيرة صقلية، من أهل مشائخ غلو من جبال صقلية... والجزيرةُ كلُّها بيد الامبراطور إلا هذه الجبال التي فيها القلاع الخارجة عنه التي فيها هذا الرجل... وسببُ وصوله أن الامبراطور غدر بأصحاب الجبال هناك، وعِدَّتُها أحدَ عشر جبلاً،... وذكر هذا الحاج المذكور أن الامبراطور من جملة من أخذهم إلى البر الكبير [شبه الجزيرة الايطالية] وأخرجهم من أوطانهم، وأخذ أموالَهم، مائة ألف وسبعين ألفاً، وقتل من الشُطَّار مثلَهم، وخلتْ هذه الجبال. والذي يطلب من السلطان الكامل ردَّهم إلى أوطانهم، فإن كان الامبراطور لا يفعل، فيمكِّننا من الخروج إلى ديار مصر ولا يؤذي أحداً. فكتب له السلطانُ الكاملُ كتاباً إلى الامبراطور بذلك، وسار عائداً من حرَّان»[14].

ولما كان مسلمو صقلية قد تلقَّوْا مساعداتٍ من اخوانهم في افريقية، فإن أسطولَ فردريك الثاني عاث بجزيرة جربة، ونقل الكثيرين من سكانها إلى مستوطنة لوشيرة[15].

(14) التاريخ المنصوري، ص 194-195.

(15) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 96.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

القسم الثاني

صقلية العربية النورمانية

(827-1194م)

أ ـ صقلية في فترة السيادة العربية

(827-1091م)

عندما تفسَّخت الإمبراطورية الرومانية تحت وطأة غارات البرابرة، شهدت صقلية قرناً من الاضطرابات والقلاقل، إلى أن سقطت في أيدي جوستنيان وأباطرة الإمبراطورية الرومانية الشرقية [البيزنطية]. وبعد سقوط رافنا في أيدي اللمبارد، أصبحت سرقوسة القاعدةَ الرئيسيةَ للبيزنطيين في الغرب. ولعلَّ اللغةَ اللاتينيةَ بقيت لغةَ التخاطب هنا وهناك في أنحاء الجزيرة، إلا أن اللغةَ اليونانيةَ ظلَّت اللغةَ الرسميةَ للإدارة لمدة ثلاثة قرون بعد سنة 535م، وسادت الطقوس اليونانية في الكنيسة التي احتفظت بولائها لبطرق القسطنطينية.

ولم تنته السيادة البيزنطية على الجزيرة إلا بعد قيام المنازعات الحزبية في عاصمة الامبراطورية، وبعد أن اضطُرت الامبراطورية ـ بسبب حروبها ضد الفرس وفي شبه جزيرة البلقان ـ إلى سحب جانب كبير من جيشها وأسطولها من وسط البحر المتوسط، فحلَّ المسلمون محلها.

كان العربُ ـ بفضل فرسانهم السريعي الحركة ـ قد أوقعوا هزائمَ سريعةً ومتلاحقةً بالحاميات البيزنطية في شمال افريقيا، حتى إذا ما حلَّ عام 643م ـ

أي بعد عشر سنوات من وفاة الرسول (ص) ـ كانوا قد وصلوا إلى مدينة طرابلس الغرب. وفي سنة 652م نزلت في أرض صقلية ـ لفترة قصيرة من الزمن ـ قوةٌ عربيةٌ قادمةٌ من بلاد الشام. وقبل نهاية القرن السابع الميلادي كان العرب قد استولَوْا على قرطاجنة، وأخذوا في بناء دورٍ لصناعة السفن واقامة تسهيلات في موانىء افريقية يتسنَّى لهم منها شنُّ المزيد من الهجمات على أوروبا.

ولم تتعرَّض جزيرةٌ صقلية إلى هجوم إسلامي كبير إلا في عام 827م، وكان هجوماً انطوى على تحدٍ خطيرٍ لأوروبا المسيحية التي فقدت آنذاك سيطرَتها البحريةَ في البحر المتوسط. وقد تمكَّنَ الغزاةُ العربُ من الوصول إلى رومة ذاتها، وأجبروا البابا على إبرام اتفاق معهم. إن مدينة تونس لا تبعد عن جزيرة صقلية أكثر من مرحلة، وإن أيةَ دولة قوية في شمال افريقيا ـ احتذاءً بالقرطاجنيين والوندال من قبل ـ تجد ما يُغريها لمهاجمة هذه الجزيرة الغنية كلما أتاح لها انقسامُ النصارى الفرصةَ لذلك. وقد ساعد العربَ في سنة 827م قائدٌ متبرِّمٌ في الجيش الصقلي [هو فيمة Euphemius] تزعَّم تمرداً ضد الإمبراطور البيزنطي واستنجد بالأغالبة في القيروان.

وكان جيش المسلمين الذي غزا صقلية يضم عناصرَ من العرب والمغاربة والأندلسيين، ولعلَّه كان يضمُّ أيضاً بعض السودان. وعلى أثر نزول المسلمين في مازر ـ في الطرف الجنوبي الغربي من صقلية ـ عبروا الجزيرةَ من الغرب إلى الشرق، وحاصروا عاصمتَها سرقوسة. وبعد حصار طويل أُنقذت المدينة، ولعلَّ إنقاذها جاء بسبب تفشي الملاريا في المستنقعات المحيطة بالمدينة، فعاد المسلمون إلى رأس جسرهم في الجنوب الغربي من الجزيرة، بعد أن ظفروا بغنائمَ وفيرة. ووصلت نجدةٌ إسلامية في سنة 830م، فسقطت بلرم في أيديهم في العام التالي، وكانت المدينةَ الثانيةَ في الجزيرة. وفي سنة 835م استولى العربُ على جزيرة بنطلارية [قَوْصرة]. ولما كانت الإمبراطورية

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

البيزنطية مضطرةً إلى القتال في عدة جبهات، فإنها لم تتمكن من إرسال نجدات تُذكر إلى الجزيرة، بينما كان الامبراطور الغربي والبابا كلاهما أكثر اهتماماً بمحاربة نصارى آخرين منهما بمساندة النصارى البيزنطيين ضد المسلمين. بل إن بعض النصارى في ايطاليا شجَّعوا المغيرين، وساعد نصارى نابولي [نابُل] في سنة 843م المسلمين لمحاصرة مسِّينة في مقابل الحصول على امتيازات تجارية. ولما تمَّ للمسلمين السيطرة على مسينة، أصبحوا يتحكَّمون في مضيق مسينة، فحالوا بذلك دون دخول مراكب البيزنطيين عبر مضيق مسينة إلى غربي البحر المتوسط.

وعلى هذا النحو، تم اكتساحُ نصف الجزيرة خلالَ عشرين عاماً. وقد سقطت قصريانه Enna ـ المدينة القائمة على مرتفعٍ يتحكَّم في داخل الجزيرة ـ في سنة 859م، حينما قاد خائن نصراني المهاجمين إلى المدينة عن طريق أحد مجاريها. ولم يلبث العرب ان استولَوْا بعد ذلك على جزيرة مالطة. إن العربَ الفاتحين كانوا أقربَ إلى قاعدتهم من البيزنطيين، وكانت لديهم خبرةٌ أفضلُ في مثل هذا النوع من القتال، كما أنهم كانوا موحَّدين ويستهدفون غرضاً محدَّداً. ويستفاد من الروايات التاريخية أن العرب استخدموا مراكبَ قاذفاتٍ للهب [حرَّاقات]، ولعلَّهم كانوا على علمٍ بسرِّ «النار اليونانية»، وأصبح بوسعهم الآن استعمالُ ما في صقلية من نفطٍ ورواسبَ كبريتيةٍ لهذا الغرض. وكان في صالحهم أنه كان لديهم شعب متلهف للاستحواذ على أرض يستقر فيها. كما أن أساليبَ العرب القتاليةَ كانت أساليبَ فعَّالة. وقد سُمح لسكان المدن التي استسلمت للعرب بمواصلة ممارسة دياناتهم، أما المدن التي أبدتْ مقاومةً في وجههم، فكان رجالها يلقَوْن الموت، ويُسترقُّ نساؤها والصغار من أبنائها.

وقد دُمرت مدينة سرقوسة في سنة 878م بعد أن ظلَّت المدينةَ الرئيسيةَ في الجزيرة خمسةَ عشر قرناً. ويذكر أحدُ أبنائها ـ الراهب ثيودوسيوس ـ الطريقةَ

التي تمكَّن فيها العرب ـ باستخدام آلات الحصار الكبيرة وحفر أنفاقٍ تحت الأرض ـ من نقب أسوار المدينة. وقد قُتل معظم الأسرى، إلا أن رئيس الأساقفة سَلِمَ بعد أن هدى الفاتحين إلى الموضع الذي خُبِّئَتْ فيه كنوزُ الكاتدرائية، كما ظفر الفاتحون بغنائمَ وفيرة. وقد ذُكر بأنه لم يَبْقَ على قَيْد الحياة أحدٌ في مدينةٍ كانت في وقتٍ ما تضاهي أثينا والإسكندرية، وكانت تفوق رومة ثراءً وجمالاً آنذاك.

وبنهاية القرن التاسع الميلادي، تمَّ جلاءُ البيزنطيين جلاءً تاماً عن جزيرة صقلية، مع أنه بقي عدد من جيوش المقاومة المحلية المسيحية، ولكنه كان من المتعذر تقديمُ عَوْنٍ فعَّال لها من بعيد. وفي سنة 902م، استولى الأمير الأغلبي [ابراهيم الثاني] على آخر معقل منيع كبير وهو طَبَرْمينة Taormina وتركها طُعمةً للنيران. وعلى الأثر، أخذت المعاقل الأخرى في الاستسلام، وكان آخرها رُمطَّة Rometta في سنة 965م.

وقد أدى تقسيم الأراضي والغنائم إلى نشوب بعض المنازعات بين الفاتحين، وازادت الخلافات حدةً بعد قدوم موجة أخرى من الوافدين من افريقية (940/938م) للمشاركة في ثروات صقلية الأسطورية التي كانت مضربَ الأمثال، مما ألحق ضرراً كبيراً في الاقليم الجنوبي الغربي من الجزيرة.

وبعد قرون من الاستبداد والضرائب من جانب البيزنطيين، يبدو أن سكانَ صقلية ارتاحوا للتغيير الذي حدث في الجزيرة بعد قدوم العرب إليها. ومن الواضح أن الفتحَ لا بد وأنه جلب الدمارَ والفوضى ـ ولعلَّ بعض المناطق هُجرت بالمرة، مع أن اندثارَ سيلونتي Selinunte وغيرِها من المستوطنات اليونانية كان قد حدث قبل مجيء العرب أثناءَ غزوة الوندال للجزيرة، إن لم يكنْ حتى قبل ذلك التاريخ. وما إن استقرَّ سادةُ البلاد الجُدد حتى انتهجوا سياسةً تقوم على اللين والملاطفة. وتُركت بعضُ المدن مستقلةً في الواقع

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

دون الاحتفاظ حتى بحاميات فيها. ولعلَّ نظامَ الحكم الجديد كان أقلَّ ظلماً وعسفاً من حكم اللمبارد أو الفرنجة النصارى في جنوب ايطاليا. كما أبدى العرب تسامحاً دينياً فاق ما كانت تُبديه كنيسةُ القسطنطينية المناهضةُ لعبادة الصور (الإيقونات). وفي كثير من الحالات، أُبقي على النظُم المحلية، ومع أن كثيراً من الكنائس أصبحت مساجد، إلا أن النصارى إجمالاً كان بوسعهم العيشُ بمقتضى قوانينهم، وكان لهم ما للمسلمين من حقوق قانونية تتصل بسلامة الأشخاص والممتلكات.

وكان من الطبيعي أن يتعرَّض شعب مغلوب لبعض العقوبات. إن من الصعب معرفة المدى الذي طُبِّقت فيه الأنظمة، إلا أنه كان على النصارى ـ وكذلك اليهود وكانوا آنذاك في الجزيرة بأعدادٍ كبيرة ـ أن يضعوا علامات مميِّزة على منازلهم وملابسهم، وكانوا يدفعون ضرائبَ أعلى مما يدفعه المسلمون، وكان بإمكانهم إصلاحُ كنائسهم دون تشييد كنائس جديدة. ومع أنهم أُعطوا حريةَ ممارسةِ ديانتهم، إلا أنه لم يُسمح لهم بقرع أجراس الكنائس أو تلاوة الإنجيل على مسمع من المسلمين. وكان يُحظر عليهم تناولُ الخمر علَناً، كما كان عليهم النهوض إذا ما دخل المسلم، وإفساحُ الطريق للمسلمين في الطريق العام. وكان يُحظر على النصارى حملُ الأسلحة وركوبُ الخيول وتسريج بغالهم. ولم يُسمحْ لهم ببناء منازل تضاهي منازلَ المسلمين اتساعاً. ولم يُسمح للنصرانيات بالبقاء في الحمَّامات العامة حينما تتواجد نساءُ المسلمين فيها.

إن كل ذلك كان قاسياً، إلا أنه لا يمكن اعتباره بحالٍ اضطهاداً دينياً. ولم يكن ثمة تشجيع بوجه خاص على اعتناق الدين الاسلامي، لا سيَّما وأن أهل الذمة كانوا يؤدون الجزية، كما أن رجال الدين النصارى المحليين لم يتزعموا حركةَ مقاومةٍ دينية. ومع أن الكثيرين من الرهبان النصارى نزحوا إلى مقاطعة قِلَّوْريَّة Calabria [بجنوب ايطاليا]، إلا أن من المرجح أن نزوحَهم

كان بسبب المجاعة واختلال الأمن الناجميْن عن الحروب الداخلية. ويمكن القول إجمالاً إن علاقاتٍ مقبولةً من التسامح قامت بين الديانتين. وإذا كان معظم النصارى تخلَّوْا عن ديانتهم آخر الأمر، فإن ذلك كان نتيجةً لمرحلة طبيعية من التغيير خلال قرنين من حكم المسلمين للجزيرة.

إن السياسةَ الاقتصاديةَ المتفتحة التي انتهجها العرب ساعدتْ ـ قبل كل شيء ـ على اكتساب رضا أهل الجزيرة. ويبدو أن الضرائبَ كانت أخفَّ وطأةً من الضرائب في عهد البيزنطيين، ولعلَّ ذلك يرجع جزئياً إلى أن الضرائب كانت تُفرض وتُجبى بصورة أكثر كفاءة ودقة. وقد أسقط الحُكَّامُ الجددُ الضريبةَ التي كانت مفروضة على دواب النقل ـ وهي ضريبة كانت تعرقل الزراعة ـ واستبدلوها بضريبة الأرض [الخراج] التي جعلت من غير المُجدي تركَ الحقول بوراً دون فلاحة. كما أن موقفَ الإسلام من الرقيق كان أكثرَ تعاطفاً من موقف المسيحية، وآثر الإسلامُ العمالَ الذين يُبدون اهتماماً ايجابياً بزيادة الانتاج. وازدهرت التجارة، إذ إن صقلية عادت فاستفادت من موقعها المتوسط في قلب رقعة اقتصادية موحدة مترامية الأطراف كانت تمتد من الأندلس إلى بلاد الشام. كان الشمالُ الافريقيُّ موحَّداً بحيث كان يتسنَّى نقل الأخبار ـ عن طريق سلسلة من أبراج المراقبة ـ من الإسكندرية إلى سبتة في يوم واحد. وقد كانت هذه الرقعةُ الواسعةُ في ذروة رخائها آنذاك، إذ إن حكامَ المناطق الساحلية كانوا قد نجحوا ـ مؤقتاً ـ في السيطرة على البدو الرحل في الداخل، وجنت الواحاتُ الداخليةُ ثرواتٍ طائلةً من حركة القوافل عبر الصحراء. وكانت طرق القوافل تؤدي إلى المواطن الغنية بالذهب في السنغال، والسودان، وأراضي النيجر مما جعل عُملةَ افريقية أقوى العُملات وأجودَها في منطقة البحر المتوسط. وقد كانت التجارةُ حرةً بحيث إن الصكوك باسم مصارف المشرق للدفع في المغرب كانت تُصرف في جنوب الصحراء. ولما كانت صقلية تابعةً لشمال افريقيا، فإنها حظيتْ بنصيبها إلى

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

حدٍ ما في هذا الرخاء، في وقت تدنَّت فيه تجارة غرب أوروبا البحريةِ، وكانت فيها جزيرتا سردانية وكورسيكا في هبوط اقتصادي مستمر.

كما ساهمت صقلية في حضارة القيروان، التي كانت مركزاً عظيماً للفقه والعلوم، وصناعة الفخار المطعَّم الجميل، والأنواع الفاخرة من المنسوجات والسجاد.

وكان الزائرون لمدينة بلرمُ ـ عاصمةِ صقلية العربية ـ يُعجبون أيمَّا إعجابٍ بمشاهدتهم سكانَ المدينة الذين كانوا يضمُّون عناصرَ عديدةً كاليونان واللمبارد واليهود والصقالبة والفرس والتتر والسودان. وقد لاحظ الراهبُ ثيودوسيوس في القرن التاسع الميلادي بأن بلرمُ مدينة عظيمة، وكان يعرفُ سرقوسة اليونانية. وكان العرب يَفِدون إليها من الأندلس ومصر وبلاد الشام. وقد اشتهرت صقلية لدى التجار الفرس في القرن العاشر الميلادي بكونها جزيرةً غنيةً بالحبوب والماشية والعبيد. وقد أُعجب ابن حوقل التاجر البغدادي [زار صقلية سنة 362هـ/ 973م] بكثرة البساتين والجنان حول بلرم، وبالأراضي الخصبة المفلوحة في سائر أنحاء الجزيرة. وكان ببلرم مئاتُ المساجد، وهو عدد فاقَ ما رآه في أية مدينة أخرى باستثناء قرطبة. وقد انتقد ابنُ حوقل قذارةَ السكان وكثرةَ أكلهم البصل، مما أفسد حواسَّهم وغيَّر عقولهم وبلَّد معارفهم، ومع ذلك فإن بلرم هذه كانت في طريقها لأن تصبحَ احدى المدن الكبرى في العالم، لا تفوقها سوى بغداد ومدن قليلة أخرى. وقد استنتج البعض من رواية ابن حوقل أن سكانَ مدينة بلرمُ كانوا يتجاوزون ثلاثمائة ألف نسمة، ولكننا حتى لو أخذنا برقم مائة ألف نسمة ـ وهو الأرجح ـ فإن بلرمُ كانت أكبرَ من أية مدينة مسيحية، باستثناء القسطنطينية.

ونعلم من ابن حوقل ـ وغيره من كُتَّاب المسلمين الذين جاءوا بعده ـ عن وجود نظام ممتاز للري، وعن وفرة مياه العيون والأنهار. وكان بعضُ هذه الأنهار ما يزال صالحاً للملاحة، إلا أن الكثيرَ منها اختفى فيما بعد نتيجةً

للوسائل الزراعية المدمِّرة التي اتَّبعتْها الأجيال اللاحقة. إن العرب كانوا قد أدركوا في الصحراء الأهميةَ الحيويةَ للري، حتى لو كانت عملية الري تتم باستعمال دابةٍ أو جدولٍ لتحريك نواعير الماء. وقد جَلبوا معهم إلى الجزيرة بعضَ أساليب الري من بلاد الفرس، ولا بد أنهم أفادوا كذلك من ملاحظة بقايا الأعمال الهندسية الرومانية في شمال افريقيا، ومن نظام جَبْد ماء الري الذي كان الرومان قد استعملوه في صقلية. وقد أصبحت الجزيرةُ في العهد العربي بلاداً زراعيةً غنية. ففيها غرسَ العربُ أشجارَ الليمون والنارنج، كما أدخلوا إليها زراعةَ قصب السكر وطريقةَ عصره بالطواحين لاستخراج السكر. وعلى حد علمنا، فإن العرب كانوا أولَ من أدخل إلى صقلية بذورَ القطن، وأشجارَ التوت، وتربيةَ دودة القز، وزراعةَ النخيل، وشجرَ السمَّاك ـ لأغراض الدباغة والصباغة ـ ونباتَ البردي، والفستقَ الحلبي، والبطيخ ـ وهذه كلُّها أحدثتْ تغييراً جوهرياً في اقتصاد الجزيرة. ولعل الفضل يعود إلى العرب لإدخالهم زراعة الأرز إلى الجزيرة، كما يبدو أنهم جلبوا معهم نوعاً جديداً من القمح.

لا شك في أن ثمةَ شيئاً من المبالغة الشعرية في الأوصاف العربية لجزيرة صقلية بأنها جنةٌ مليئةٌ بالبساتين. إن كلمة (نافورة) قد تعني أحياناً ماجلاً أو صهريجاً، وعلى ذلك، فإنها قد تشير فقط إلى صهريج لخزن الماء لمنزلٍ بمفرده. ومع ذلك، فلا شك في أن الجزيرة شهدتْ قسطاً من التقدم الاقتصادي الحقيقي. فصهاريج وأبراج الماء من تلك الفترة ظلَّت قائمةً قروناً عديدة، ويمكن تمييزُها إلى اليوم. وقد اكتسبت معظمُ مصادر المياه أسماءَ عربية، وظلَّت تحتفظ بها على الدوام، وكذلك الحال بالنسبة للأوزان والمقاييس، فإن أسماءَها ما زالت تُسمَع في القرن العشرين ـ وهي تشمل مقاييسَ انسياب الماء، فضلاً عن المقاييس العادية للطول والحجم. وفضلاً عن الزراعة، كانت توجد صناعةٌ نشطةٌ لصيد الأسماك، ولعلَّ العربَ أدخلوا

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

طريقةً جديدةً معقَّدة لصيد سمك التونة. ومن المدهش أن ابنَ حوقل يذكر منجماً للحديد. ومن بين المعادن الأخرى التي كانت تُنتجها الجزيرة الفضةُ والرصاصُ والزئبقُ والكبريتُ والنفطُ وحامضُ الكبريتيك والكحلُ والشبّ. واشتهر في الخارج ملحُ الطعام الصقلي بنوعيْه الصخري والبحري، وكان يصدَّر إلى الأندلس ملحُ النشادر من موطنه قرب جبل إتنة [جبل النار]. وسُرعان ما أخذ فنُّ صناعة الحرير ونسجه يلعب دوراً بارزاً في اقتصاد الجزيرة.

وإذا انتقلنا من التعطيل والتخريب اللذيْن نجما عن الفتح، فثمة تحفظات افتراضية أخرى ينبغي ذكرها في الجانب السلبي من كشف الحساب. فمن المحتمل أن العرب ـ وهم أهل بداوة ـ شجعوا تربيةَ قطعان الماعز مما أعاق نموَّ أشجار جديدة في الغابات. وفي أثناء الفتح وأثناء إعداد الأرض للاستيطان، من الواضح أنهم أضرموا النار في المحاصيل والغابات. ونُقلت شحنات من الأخشاب إلى الخارج، لأن افريقية كانت تفتقر إلى موارد الأخشاب الصلبة، كما أن بناء المراكب اللازمة للاحتفاظ بالسيادة العربية البحرية في البحر المتوسط لعلَّه أدى إلى قطع أخشاب المناطق التي يمكن الوصول إليها من الغابات الصقلية. وقبل الفتح العربي، كان قد تمَّ التخلي إلى حد كبير عن زراعة أشجار الزيتون فيما بين عامي 400 و900م، ومن الممكن أن ذلك حدث بسبب التخريب المتعمَّد من جانب الجيوش الغازية، وانتقل إلى شمال افريقيا إنتاجُ زيت الزيتون الذي كان في السابق مورداً مهماً من موارد الثروة في صقلية.

ويرى ميشيل أماري ـ المؤرخُ الكبيرُ للمسلمين في صقلية ـ أن العرب قاموا بتوزيع الأراضي بعد تجزئتها إلى قطع صغيرة، إلا أن القول بأن المزارع أو العِزَب الواسعة latifundia اختفتْ ثم عادت إلى الظهور في القرن الثاني عشر للميلاد قولٌ لعلَّ فيه مبالغةً في تبسيط الأمور. فقد كان في الجزيرة طبقةٌ

من النبلاء الذين مُنحوا أراضٍ واسعةً، ومع ذلك فقد نتج عن نظام الإرث الإسلامي أن تجزَّأت الممتلكاتُ بين صغار الأبناء. وما زال باقياً في الجزيرة عددٌ كبيرٌ من الأسماء العربية للأماكن والمزارع الصغيرة، وكثيراً ما يدل ذلك على تجزئةٍ في الممتلكات. كما أن وجودَ فلاحة كثيفة قرب المدن ـ في مكان الزراعة الواسعة للحبوب، وهو مما تتميَّز به العِزَبُ الكبيرة ـ يدلُّ على انتشار المِلْكيات الزراعية الصغيرة، كما يدل كذلك على أنه وُجد إما نظام ثابت للمِلْكيات المؤجَّرة، وإما مِلْكيات حقيقية من قِبَل المزارعين. ولا بد أن انتشارَ المستوطنات في مناطق الريف ساعَد على تنمية الزراعة، ونموِّ القرى التي كانت في فترة السيادة العربية أكثرَ عدداً مما أصبحتْ عليه في أواخر القرون الوسطى.

كانت صقلية الإسلامية بادئ الأمر تابعةً للأغالبة، إلا أن حرباً أهليةً في أوائل القرن العاشر الميلادي وظهورَ الفاطميين الشيعة أطاحا بحكم الأغالبة. وفي سنة 909م، أصبح الفاطمي عُبيْد الله المهدي خليفةً في القيروان. ثم تحوَّل الفاطميون شرقاً وعلى رأسهم القائد الشهير جوهر ـ وهو كما يبدو من أصل صقليٍ نصراني ـ ونَقلوا عاصمتَهم إلى مصر في عام 969م. وكان من جراء ذلك، أن أصبحتْ صقلية أكثرَ استقلالاً. وقامت في الجزيرة عدةُ ثورات ضد الخليفة الفاطمي، بل إن مسلمي صقلية السنِّيين انضموا إلى النصارى في مهاجمة مدينة طرابلس الغرب. وفي منتصف القرن العاشر الميلادي، توطَّد حكمُ ولاة الجزيرة من أفراد الأسرة الكلبية، وقد عملوا على ربط طبقة النبلاء العسكريين بروابط المصلحة والرعاية؛ ومن بين أفراد هذه الأسرة ظهر الرجلُ الذي كان يُشار إليه أحياناً باسم «سلطان» بلرمُ.

ان انتقال الخليفة الفاطمي إلى القاهرة تلاه تدنٍ تدريجيٌ في الحضارة المزدهرة بالشمال الإفريقي الذي كانت تنتمي إليه جزيرة صقلية. وفي أوائل القرن الحادي عشر للميلاد، نزحت إلى صقلية من افريقية أعدادٌ من اللاجئين

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الذين كانوا يتضوَّرون جوعاً. ثم قام الفاطميون بالثأر من بني زيري وغيرهم من الحكَّام المحليين القائمين عليهم، فحرَّضوا قبائلَ البدو من بني هلال وبني سُلَيْم على مغادرة صعيد مصر والزحف غرباً في اتجاه برقة وطرابلس الغرب. كما ظهرت قبائلُ رحَّل أخرى في مناطق أبعد على ساحل البحر المتوسط نزحتْ عن مواطنها في الصحراء نتيجةً لعوامل سياسية واقتصادية ومناخية، وهؤلاء الوافدون الجُدد لم يُولوا تقديراً كافياً للحضارة المتقدمة التي وجدوها. وفي العِقْد السادس من القرن الحادي عشر للميلاد، كانت قبائل بني هلال وبني سُلَيْم تدمِّر المدنَ والمزارعَ في المنطقة المزدهرة بين القيروان ورأس بون [الرأس الطيب]، وكانت تنضم إليها أحياناً قبائلُ محليةٌ كانت تنظر نظرةَ عداءٍ إلى الزراعة وأهل المدن. واختفت الحكومةُ ذاتُ السلطة الفعالة، كما حلَّ خراب كبير بنظام الري القديم. وفضلاً عن ذلك، فإن طرقَ القوافل الرئيسيةَ قُطعتْ ولم يَعُدْ ذهب [السودان الغربي] يعبرُ الصحراءَ لتنشيط تجارة حوض البحر المتوسط. ولما هوجمت مدينةُ القيروان العريقة، قام حاكمُها الزيري بنقل عاصمته إلى مدينة المهدية الحصينة. وهكذا عُزلتْ صقلية الإسلامية، وسنحت الفرصةُ أخيراً أمام أوروبا المسيحية، لشنِّ هجوم مضاد.

ومن البوادر المبكِّرة لذلك، أن الأميرَ الكلبي - وقد واجه عصياناً من قبل الأسرِ المتنافسة في الجزيرة، وحرباً علنيةً مع بني زيري - أبرم معاهدةً مع الروم البيزنطيين. ولما قام القائد البيزنطي جورج مانياكيس Maniaces بالنزول إلى البر على رأس قوة كبيرة قرب مسينة، لقي بعض المساندة المحلية من قِبَل المسلمين. وشارك في هذه الحملة جنود روس من الحرس الفارانجي Varangian guard فضلاً عن عدة مئات من المرتزقة النورمان، الذين كان من بينهم هارالد هاردرادا، بطلُ الملاحم السكندناوية، وهو نفس الرجل الذي غزا انجلترا فيما بعد. ولا شك في أن هؤلاء النورمان لاحظوا ثراءَ البلاد وأذاعوا بين أصدقائهم فكرةَ القيام بمزيد من الغارات. واحتل

مانياكيس جانباً كبيراً من شرق صقلية لسنوات عديدة، وأحدث قدراً كبيراً من التخريب. كما حاول تُرميمَ تحصينات سرقوسة لاتخاذها رأسَ جسرٍ إلى القسطنطينية. إلا أن هذه كانت المحاولةَ الأخيرةَ من جانب بيزنطة لاستعادة صقلية، إذ إن دسائسَ البلاط في القسطنطينية لم تلبثْ أن أدَّت إلى استدعاء مانياكيس. إن توازنَ القوى في البحر المتوسط قد تبدَّل الآن في غير صالح كلٍ من القسطنطينية والقاهرة، وأصبحت القواتُ البحريةُ العدوانيةُ الحقيقية الآن قواتِ بيزة وجنوة. إن هذه القواتِ التابعةَ للعالم المسيحي الغربي هي التي أبعدت غزاةَ المسلمين عن جزيرتيْ سردانية وكورسيكا، ثم قامت بمهاجمة سواحل صقلية وافريقية. وأخذت صقلية تنتقل إلى طور جديد من الصراع بين الإسلام والمسيحية، وهو صراع تخلَّله صراع ثانوي بين الهلينية البيزنطية والكاثوليكية اللاتينية. ولما قام رجار النورماني بالنزول إلى البر قرب مسِّينة في سنة 1060م ـ منتهزاً فرصةَ هذا التوازن الجديد للقُوى ـ أصبحت أيامُ صقلية الإسلامية معدودة.

إن من الصعب تقييمَ دَوْر المسلمين في تاريخ صقلية. لقد دامت سيادتُهم على الجزيرة أكثرَ من قرنين، كما أنهم ظلُّوا لمدة قرن آخر أو أكثر يشغلون مناصبَ سامية في بلرم في عهد حكامها النصارى. وقد جلب المسلمون معهم ديانتَهم وقوانينَهم وآدابَهم وفنونَهم وعلومَهم، وبذلك جعلوا صقلية جزءاً من حضارة افريقية الزاهرة، كما أصبحت الجزيرةُ في عهدهم ملتقىً للثقافات العربية واليونانية واللاتينية. لقد جاء العرب ـ كالإغريق من قبلهم ـ بقصد الاستقرار في الجزيرة، لا لمجرد حكمها واستغلالها. وتوافدت على الجزيرة من شمال افريقيا والأندلس والمشرق أعدادٌ كبيرةٌ لَعلَّها كانت أكثرَ عدداً من أيٍ من فاتحي الجزيرة قبلهم أو بعدهم. ومع أن التقديراتِ الأولى للسكان تقوم على أدلة واهية، إلا أن بعضَ التقديرات تفيد بأن نصفَ مليون مسلم استوطنوا الجزيرة. وكان استيطانُهم أكثرَ كثافةً في الجهات الغربية

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

والجنوبية الشرقية من الجزيرة؛ وحتى في الجهات الأخرى لا بد وأن هجرةً كبيرةً للمستوطنين قد حدثتْ، واعتنق الكثيرون من أهل صقلية الدينَ الاسلامي. إن اعادة استيطان الريف الصقلي من قِبَل الوافدين المسلمين حقيقةٌ مهمة.

ولم يَبْقَ اليوم إلا القليل من الآثار الملموسة لفترة الحكم الإسلامي، ولو أنه ما يزال يُكشف النقابُ عن بعضها من آن إلى آخر. وقد دُمِّر الكثيرُ من المباني العربية أثناءَ الحروب الأهلية، أو نتيجةً للفتح النورماني، وكذلك الحال بالنسبة للمحفوظات العامة والخاصة، وهلكت موادُّ الكتابة بسهولة، شأنُها شأنُ أحجار البناء المساميَّة. وقد احتُفظ بالقليل من أشعار صقلية في الأندلس ودمشق، إلا أن من الصعب تمييزَ عَلَمٍ في الثقافة العربية الصقلية قبل وصول النورمان إلى الجزيرة. وقد كتب مؤرخو إفريقية أحياناً عن صقلية قبل عام 1060م، واستطاع أماري إعادةَ كتابة تاريخ الفترة ـ جزئياً ـ من المصادر المتأخرة، إلا أن الصورة مع ذلك تبقى غامضة. ولم يَبْقَ كبيرُ أثرٍ للنظام القانوني الإسلامي، إذ إن الجماعاتِ الخاضعةَ لحكم المسلمين سُمح لها بالاحتفاظ بقوانينها. وقد كان الأغالبةُ سنِّيين محافظين، ولم يرحِّبوا بأي تجديد ثقافي، بينما كان الأمراءُ الكلبيون يفتقرون إلى السلطة، فضلاً عن المقدرة التنظيمية والاهتمام المتنوِّر اللازميْن للرعاية الانتاجية. وفضلاً عن ذلك، فإن المؤرخين النصارى كانوا جهَلةً ومتحيِّزين فيما كتبوه عن هذه الفترة، إذ قلَّلوا من قيمة انجازاتها أو أغفلوا ذكرها. لذلك، فإن الآثارَ المعروفةَ للعرب في صقلية هي في غالبها آثار لما بقي من الحضارة العربية النورمانية فيما بعد. وقد اعتمد النورمان اعتماداً كبيراً على مقدرة العرب الصناعية والمِهْنية وتقاليدِهم الإدارية، وهذا الاعتراف بالماضي دليل قاطع على جودته.

وقد دلَّلت اللغةُ العربيةُ ـ كلغةٍ رسميةٍ في الدوائر الحكومية ـ على قدرتها

على البقاء، فظلَّت حيَّةً في الجزيرة لما يزيد عن قرن بعد الفتح النورماني. وليس ثمةَ ما يكفي من الأدلَّة التي تُعين على معرفة اللهجة العربية التي كانت سائدةً في صقلية، إلا أن الكثيرَ من الآثار اللغوية ما يزال من الممكن ملاحظتُها. ففي طبوغرافية صقلية يلاحظ أن كلمتي Gibel و Calta هما صيغتان عربيتان مألوفتان. ومن بين التغييرات الكثيرة في أسماء الأماكن أصبح اسم Enna قصريانه، ثم تحوَّل فيما بعد إلى Castrogiovanni. وتبدَّل اسم Lilybaeum فأصبح مرسى علي Marsala. وإلى اليوم ـ وبعد مرور تسعمائة سنة ـ لا تزال مئاتُ الكلمات والتعابير العربية متداولةً في صقلية، ولولا وصول مغيرٍ جديدٍ إلى الجزيرة يتكلم اللاتينية بعد عام 1060م، لظلَّت صقلية ذات لغة قريبة من لهجة جزيرة مالطة ولهجات شمال افريقيا. إن الغزوَ النورمانيّ هو الذي أعاد الصقليين ـ وبصورة دائمة ـ إلى فلَك أوروبا.

ب ـ الفتح النورماني لجزيرة صقلية

(1061-1091م)

في أوائل القرن الحادي عشر للميلاد، كانت هنالك عدةُ جماعات من المغامرين من مقاطعة نورماندي الفرنسية تجني مكاسبَ مُجزيةً من وراء تقديم خدماتها كجنود محترفين في جنوب ايطاليا. وكان بعضهم مرتزقةً لا غير، بينما آثر آخرون منهم حياةَ رؤساء قُطَّاع الطرق، يسلبون السلع ويسطون على الماشية ويُحدثون من الخراب والتدمير ما جعل اسمَهم مرادفاً للرعب. وقد عَرضوا أنفسَهم كمحاربين، وكانوا يحاربون مع هذا الجانب أو ذاك، أو حتى مع الجانبين في آن واحد. وقد استخدم البيزنطيون بعضَ هؤلاء النورمان في الحملة التي قادها مانياكيس في صقلية. وكانوا أحياناً ـ وبتشجيعٍ من البابا ـ يهاجمون النصارى اليونان في جنوب ايطاليا، كما أنهم كانوا في بعض الأحيان يجدون أن الإغارة على الولايات البابوية تعود عليهم بربح أوفر.

كان من بين هؤلاء المحاربين ستةٌ من أبناء تانكريد من أسرة هوتيفيل Hauteville، وكان أحدهم وهو روبرت جيسكارد شديدَ الطموح، وأشدهم بأساً، وكان ذا شعر أشقر، وعُرف بأنه «أطول من أكثر الرجال طولاً». وقد تمكَّن جيسكاد وأصغر إخوته رجار من اقتطاع أراضٍ لهما في مقاطعتيْ قِلَّوْريَّة Calabria وبولية Apulia بجنوب ايطاليا. وكان الأخوان في بعض الأحيان يحارب الواحدُ منهما الآخر، ولكنهما كانا في العادة متحالفيْن. ولما كانا يتمتعان بعبقرية حقيقية في القتال والإدارة، فإنهما تمكَّنا ـ عن طريق أعمال النهب والسلب دون رحمة ـ من الاستحواذ على ثَروات قامت عليها فيما بعد أُسرةُ حاكمة شهيرة.

وقد بلغ جيسكارد من القوة مبلغاً أسرَ معه البابا ليو التاسع عام 1053، وأبقاه رهنَ الأسر تسعة شهور. وفيما بعد، عرض زعيمُ قُطَّاع الطرق هذا أن يعيدَ سلطةَ البابا في رومة في وجه جماعات متصارعة من أهلها. وفي سنة 1059م، أذن بابا آخر هو نيكولاس الثاني لهذيْن الرجليْن من قُطَّاع الطرق ـ وكانا من المولعين بالقتال، ولو أن أعمالهما لم تجعل منهما مسيحَّيين حقيقيَّيْن ـ بأن يحكما كلَّ ما استطاعا الاستيلاءَ عليه من جنوب ايطاليا، ووافق جيسكارد في مقابل ذلك على أن لا يعترفَ بسلطة القسطنطينية الدينية. وكانت البابوية قد ادَّعتْ السيادةَ الإقطاعية على صقلية، وهو ادعاءٌ باطل يقوم على أساس خرافة مزدوجة مَفادُها أن قسطنطين الأول ومن بعده ملوكُ الأسرة الكارولنجية [أُسرة شارلمان] كانوا يمتلكون صقلية، ثم «وهبوها» للبابا. وقد قبل النورمان بأن تكون مقاطعةُ بولية إقطاعيةً بابوية، ولكنهم ـ عند عبورهم مضيق مسينة إلى صقلية ـ آثروا أن يقوموا بذلك كفاتحين لا يدينون بفضلٍ لأحدٍ عليهم.

كانت هذه فترةَ ضعفٍ بالنسبة لعرب صقلية، إذ إن أُسراً مختلفةً كانت تحاول إقامةَ إمارات مستقلة لها في مازر وجرجنت وسرقوسة، ولم يكن بمقدور افريقية الزيريَّة آنذاك تقديمُ عَوْنٍ يُذكر لهم. وكما أن بعض النصارى كان قد دعا العربَ إلى غزو الجزيرة في سنة 827م، فإن ابن الثُمنة وغيره من قادة المسلمين في سرقوسة وقطانية ساعدوا بنشاطٍ الهجومَ المسيحيَّ المضادَّ عام 1060-1061م. وبموجب اتفاق مع جيسكارد، عهد بفتح صقلية إلى أخيه رجار بصورة رئيسية. فبعد أن هزم رجار اليونانَ في قلورية، عَبَر مضيق مسِّينة على رأس نحو ستين فارساً فقط في بادىء الأمر، ولعلَّه كان يريد من وراء ذلك أن يستطلع طبيعةَ الأرض ويجرب عمليةَ نقل الخيول بحراً. ثم قام ـ بعد اختباره المقاومة العربية ـ بحملةٍ أكبرَ واستولى على مسِّينة. وأخذ بعد ذلك يشنُّ الغاراتِ ويُقيم حامياتٍ صغيرة، حتى إذا ما حلَّ عام 1064م كان رجار يسيطر على شمال شرقي الجزيرة، وعاد إلى جنوب ايطاليا مُثْقَلاً بالغنائم

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

التي اقتسمها مع أخيه الأكبر. ولعلَّه أصبح لديه آنذاك نحوُ ألف فارس. وكان للخبرة القيِّمةِ المكتسبةِ من عمليات الأخويْن المشتركة فائدتُها حينما غزا النورمان انجلترا بعد ذلك بعاميْن [بقيادة أمير مقاطعة. نورماندي وليام الفاتح عام 1066م].

إن البابوية لم تقدِّم لرجار المالَ أو الرجالَ للقيام بهذه الحرب الصليبية الأولى، والتي كانت أكثرَ الحملات نجاحاً ضد الاسلام، كما أن رجار لم يتلقَّ مساعدةً تُذكر من جنوة وبيزة المدينتيْن الايطاليَّتيْن اللَّتيْن أفادتا كثيراً فيما بعد من فتح صقلية. إلا أن النورمان عوَّضوا عما افتقروا إليه ـ في الإعداد والعون والخارجي ـ بما أبدَوْه من شجاعة ومهارة ـ ونظامٍ في بعض الأحيان ـ فضلاً عما كانت تجيش به صدورُهم دائماً من طموح للظفر بالمكاسب والسلطة. ومما ساعد النورمان كذلك تداعي الامبراطورية الفاطمية، وظهورُ السلاجقة الذين حالوا دون محاولة البيزنطيين استعادَة مركزهم في ايطاليا. وفي شمال شرقي صقلية، كانت توجد جماعة نصرانية سلَّمت للنورمان مدينة طروينة Troina الجبلية في الداخل، والتي اتخذها رجار عاصمةً له وأقام فيها أُسقفية، إلا أنه لما عاد الجنود النورمان إلى عاداتهم في ممارسة النهب والسلب، انحاز أولئك النصارى أنفسُهم إلى العرب، وحاصروا لعدة شهور حاميةَ رجار في قصبة المدينة. فقد تبيَّن لهؤلاء النصارى ـ فيما يبدو ـ أنَّ حكمَ العرب كان أقلَّ جَوْراً لهم، ولعلَّ رجار تلقَّن مما حدث درساً بأن يكون أكثرَ مهارةً وعطفاً في معاملاته مع من آزره أو استسلم له دون قتال.

وفي العِقْدِ السابع من القرن الثاني عشر للميلاد، أنشأ النورمان أسطولاً، إذ تبيَّن لهم أن تقدُّمَهم في الجزيرة كان يتوقف على سيطرتهم على البحر. وفي سنة 1071م، رسا أسطولُهم أمام مدينة بلرمٌ وعلى رأسه جيسكارد الذي كان بوسعه آنذاك توفيرُ الجنود المرتزقة وآلات الحصار. وبعد حصارٍ للعاصمة العربية براً وبحراً دام خمسةَ شهور، تقبَّل جيسكارد استسلامَ

المدينة، واعترف السكانُ بحكمه، وسمح لهم بممارسة ديانتهم وبشيءٍ من الاستقلال الذاتي. وفي أماكنَ أخرى كان جنودُه أكثرَ قَسْوة، حيث قتلوا الأسرى وباعوا النساءَ والأطفالَ عبيداً. ومما يُذكر أن توقُّعَ الحصول على عبيدٍ كان أحدَ المغريات التي اجتذب بها النورمان المغامرين الساعين وراء الغنائم للانضمام إلى جيشهم.

وبعد الاستيلاء على بلرمُ، أخذ النورمان في إقامة ادارة. وكانت بلرمُ من نصيب جيسكارد بوصفه دوق بولية، ولكنه لما كان مضطراً إلى العودة للدفاع عن ممتلكاته في جنوب ايطاليا، فإنه ترك رجار كونت صقلية وقلورية لإتمام افتتاح الجزيرة وإقامة حكومةٍ فيها. ورأى رجار الفائدةَ المترتبةَ على عرض شروط سخية على المسلمين لكي يتسنَّى له استخدامُ موظفين ومحاسبين من ذوي الدراية منهم في الجهاز الإداري. ولم تَفِدْ إلى الجزيرة في بادىء الأمر جموعٌ غفيرةٌ غازيةٌ للاستيطان فيها، وكان عليه أن يداريَ المزارعين في الجزيرة، ولذلك فقد سمح لكثير من العرب بالاحتفاظ بأموالهم وأراضيهم، وبقلاعهم في بعض الأحيان. ولا يقلُّ أهميةً عن ذلك الجنودُ المسلمون الذين شكَّلوا ـ دون التخلِّي عن ديانتهم ـ منذ البداية نواةً مهمةً في جيشه، بل واستخدمهم ضد أعدائه من النورمان وغيرهم من النصارى. وفي سنة 1075م، عقد رجار معاهدةَ صداقةٍ مع الأمير الزيري بإفريقية [تميم بن المعز] وأرسل شحناتٍ من قمح صقلية إلى المهدية.

إن المرحلةَ الأخيرةَ من الفتح النورمان للجزيرة كانت مرحلةً بطيئة ومدمرة. وكان على رجار أن يعود مراراً إلى قلورية لمساندة أخيه وجلب المزيد من الجند. وكان غيره من النورمان ينهبون ممتلكاته أحياناً أثناء تغيّبه للقتال، بل إن ابنه ثار عليه، إلا أن رجار ـ وبقسوة مذهلة معتادة ـ سَملَ أعينَ الثائرين عليه، أما ابنه فقد غرَّبه وأهانه دون أن يُلحق به أذى. ويبدو أن المساعدةَ التي تلقاها رجار من النصارى اليونان في شمال شرقي صقلية لم تتكرر في

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

بقية الجزيرة، ولا يردُ شيء يُذكر عن النصارى في أنحاء صقلية الأخرى. ولم تتوفر لرجار القواتُ اللازمةُ لملاقاة المسلمين في مصافَّة كبرى. وسقطتْ في يده الحصونُ واحداً تلو الآخر في كافة المناطق، إلا أن الحظَّ كثيراً ما عاكسه، ولعلَّه مُني بنكَساتٍ عسكريةٍ أكثرَ مما دوَّنه مؤرخه الرسمي الراهب مالاتيرًا Malaterra. وقد دُمِّرت بعض القرى، كما جرى تدميرٌ متعمَّدٌ للماشية والمحاصيل. وفي إشارة عابرة في وثيقة عن وقف أراضٍ على إحدى الأُسقفيات ذكرٌ لحدوث إخلاءٍ للسكان بالجملة: «حدَثَ تدميرٌ كبيرٌ للقلاع والقرى وقصور المسلمين... وعلينا الآن أن نرمِّم هذا الخرابَ الكبير». إن هذه الإشارةَ ـ وغيرها من التفاصيل ـ أورد معظمَها الكتَّابُ النورمانُ الذين كانت صقلية بالنسبة إليهم ولايةً نائية، والذين لم تتجاوز اهتماماتُهم الكونت رجار وبلاطَه. ولم ينشأ عن الفتح من الجانبين أسطورة ملحمية في الأدب، كما حدث بالنسبة لحركة الاسترداد الإسبانية في الأندلس. ويفيدنا مجملُ الأحداث أنه في سنة 1088م سقطتْ مدينة قصريانه Castrogiovanni المعقل الاستراتيجي الحيوي في الداخل، وأنه في سنة 1091م سقطت نوطُس Noto، وكانت آخرَ معقلٍ كبيرٍ للمسلمين يسقط في الجزيرة.

إن وصول النورمان أحدث تغييراً جوهرياً في الجزيرة التي أصبحت منذ استيلائهم عليها كاثوليكية بصورة رئيسية، وأصبحت تتبع أساساً مجموعةَ اللغات اللاتينية، كما أنها أصبحت تابعةً لغرب أوروبا ثقافياً، إلا أن كل ذلك حَدَث تدريجياً، إذ إن الغزاة النورمان لم يكونوا من القوة بحيث كان باستطاعتهم فرضُ نمط حياتهم، حتى لو كان لديهم ما يمكن وصفه بنمطٍ منظمٍ للحياة يمكنهم أن يفرضوه. بل إنه لبعض الوقت ازداد تأثير المسيحية اليونانية.

لقد جرى جدَلٌ كبير حول مدى بقاء العناصر اليونانية ـ اللاتينية في المجتمع أثناء فترة الحكم العربي. ومهما قيل عن صقلية قبل الفتح البيزنطي

لها في سنة 535م، فإنه بحلول عام 800م لا بد أن المدنَ والطبقاتِ المثقفةَ كانت يونانيةً [أرثوذكسيةً] في ديانتها، وكانت بعض آثار ذلك ما زالت ماثلةً عام 1060م. وقد اعتبر المؤرخون النورمان كافةَ غير المسلمين من السكان يوناناً، وأطلقوا صفةَ (لاتيني) على الطبقة الحاكمة الجديدة من نورمان وفرنسيين ولمبارد. وكان عددٌ من الأديرة اليونانية الفقيرة ما زال قائماً في الشمال الشرقي من الجزيرة، فضلاً عن دير واحد في الغرب، بينما كان ببلرم أُسقف أخير باقٍ هو نيكوديموس الذي كانت كنيسته قد حُوِّلت إلى جامع، ولكنه كان ما يزال يمارس أعماله الدينية في كنيسة منفردة في إحدى ضواحي المدينة. أما بالنسبة للمسيحية اللاتينية [الكاثوليكية] فلم يكُنْ لها أثر في الجزيرة.

وقد كان للنورمان تأثير على هذا المجتمع لا يتناسب بالمرة وأَعدادَهم. فلم يكن استيطانهم الجزيرة جملةً كاستيطان العرب لها، إلا أن تأثيرهم جاء من قدرة غير عادية على التكيُّف، ومن مهارتهم السياسية. لقد أدرك النورمان أنه كان لدى الصقليين ثقافة ونظام إداري يفوقان ما كان لديهم، فبادروا إلى اقتباسهما مُضيفين إلى ذلك كفاءةً وشعوراً بالاتجاه والهدف كان يُفتقر إليهما إلى حين قدومهم إلى الجزيرة. واحتُفظ ـ جزئياً ـ بتقسيم العرب للأرض، وظلَّ ما يتصل بامتلاك الأرض وشؤونها المالية يتم عن طريق (الديوان)، الذي حُرِّف اسمه بالصيغة اللاتينية إلى dohana أو douane. وطوال الفترة النورمانية، ظلَّت العُملة تُضرب وعليها كتابات بالكوفية، وظلَّ بعضها يحمل التاريخَ الهجري ويستعملُ نفسَ العبارات التي كان يستعملها الخلفاءُ، بما ذلك عبارة (محمد رسول الله). واتخذ أولُ والٍ نورماني على بلرمُ اللقبَ العربيَّ (أمير)، وهو اللقب الذي اتخذه فيما بعد كبيرُ وزراء التاج.

ومع أن الفتح كان عنيفاً وكثيراً ما كان مصحوباً بالقَسْوة، إلا أنه سُرعان ما أعقبته مصالحة. ومن المدهش أنه لم يَحدُثْ احتكاك أو تصادم يُذكر بين

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

النورمان ورعاياهم الجدُد، وكانت صقلية أكثرَ رضوخاً من الولايات الخاضعة للنورمان في جنوب ايطاليا. وكان على العرب واليهود دفع ضريبة خاصة [تقابل الجزية التي كان يدفعها أهلُ الذمة للمسلمين]، ومع ذلك، فإن القوانين التي أصدرها النورمان ـ على غرار القوانين العربية ـ نصَّتْ على أن يكون «لكلٍ من اللاتين واليونان والمسلمين واليهود قوانينهم الخاصة بهم» وأن يَمْثُلوا أمام قضاتهم. ومع أن ستةً آخرين من أفراد أسرة هوتيفيل شاركوا في الحملة الصليبية الأولى، فإن رجار تعمَّد بأن لا يرافقهم، وذكر مراقب إنجليزي زاره مع القديس أنسيلْم Anselm أن رجار لم يوافق على أن يجريَ تنصيرُ جنوده. لقد كان على المسلمين أن يقبلوا بوضعٍ دون وضعهم السابق، ولكن رجار سمح لهم ـ في وقتٍ كان التعصب الديني آخذاً في الازدياد في أوروبا ـ بحرية العبادة، وظلت ثقافتهم ـ كثقافة اليونان ـ تَلْقى تشجيعاً رسمياً، كما ظلَّت اللغتان اليونانيةُ والعربيةُ تُستعملان رسمياً في البلاط إلى جانب الفرنسية ـ النورمانية واللاتينية. ولا بد أن كثيراً من المسلمين نزحوا عن الجزيرة، إذ نجد في بلدان حوض البحر المتوسط أسماءَ أُسرٍ تدل على أنها مشتقة من أسماءَ صقلية. ولا بد كذلك أن بعض المسلِمين اعتصموا بالمناطق الجبلية في داخل الجزيرة، للتخلص من الأعمال الوحشية التي صحبت الفتح، ومع ذلك، فإن أعداداً كبيرةً منهم بقيت ودلَّلتْ على نشاطها، كما أظهرت الطاعةَ والامتثالَ للقانون. وقد أفاد الجيشُ والأسطولُ والخدمةُ المدنية إفادةً كبيرةً من تعاون المسلمين ونشاطهم.

إن هذا المزيج من التقاليد المختلفة ـ العربية والأوروبية الشمالية والرومانية واليونانية ـ من شأنه أن يجعل الفترة النورمانية متعددةَ الألوان. وقد استحال رجار ـ باستخدامه لهذه التقاليد بمهارة ـ من مغامرٍ فقيرٍ لا أرضَ له إلى حاكمٍ من أكثر الحكام نجاحاً في العالم، بحيث غدَتْ صقلية ـ وعلى مدى قرنٍ ذهبي ـ تنعم بما كانت تنعم به من رخاءٍ ومَنْعةٍ في عهد اليونان

القدماء. إن رجار قَدِم من شمال أوروبا حيث كانت الصلات الإقطاعية آخذةً في التطور كرابطة اجتماعيّة ووسيلة للحكم، ولكنه كان قد تعلَّم في جنوب ايطاليا كيفيةَ الجمع بين الصلات الارستقراطية للإقطاع وبين الفكرة الشرقية [البيزنطية] القائلة بأن الحاكم لا يحتل المقام الأول بين أناس متساوين ولا ينتخبه الشعب، بل هو سلطان تحيط به هالة من القُدْسية. وعلى ذلك، فإننا نجد جنباً إلى جنب مع منصب كبير قضاة الملك Justiciar وحاجب البلاط Seneschal الألقابَ الشرقيةَ [البيزنطية] Catapan و Logethete و Strategos؛ كما كان ثمة إلى جانب لقب فيكونت Viscount ألقابُ القاضي وأميرِ الأمراء والوكيل Baiulo.

كان العنصرُ البيزنطيُّ على وجه الخصوص هو الطابع المميِّز لحكومة رجار. وكانت صقلية ما تزال تشمل مقاطعةَ قلورية ذات الطابع اليوناني أساساً كما كان الحال في عهد جوستنيان، وكان السكان في عُدوَتيْ مضيق مسينة يتكلمون لهجةً يونانية واحدة. وكان رجار يؤْثر العيشَ في قلورية، وإلى الحد الذي كان فيه لحكومته مركز ثابت، فإن ذلك المركز كان المدينة اليونانية مليطة Mileto بمقاطعة قلورية، ففيها وجد الكثيرين من خيرة إداريه وسجلات الأراضي البيزنطية التي اتخذها مثلاً حذا حذوَه. وقد أخذ نظامَ مراسم البلاط عن بيزنطة، فضلاً عن كثير من العبارات المستعملة في دواوينه. والأهم من ذلك أنه في حين أن ملك انجلترا النورماني كان يعتمد على الرسوم الإقطاعية وعلى جيش إقطاعي مؤقت، فإن كونت صقلية النورماني كان باستطاعته أن يستخدم جنوداً من المرتزقة الدائمين، وأسطولاً من أقوى الأساطيل في زمنه.

وبينما أعاد رجار العملَ بتقاليد الحكومة اليونانية، فإنه في الوقت ذاته بدأ العملَ بسياسة حاسمة لإدخال اللغة اللاتينية، وذلك عن طريق إدخال طبقة حاكمة جديدة. ولما لم يكن رعاياه اليونان من المحاربين، فإنه لم يُنْعِمَ

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

عليهم بالإقطاعات ولم يُرقَّوا إلى منزلة الطبقة الارستقراطية أو الخاصة. ويبدو أن أحداً من كبار ملاك الأراضي أو كبار الأساقفة ورؤساء الأديرة لم يكنْ من أبناء الجزيرة الأصليين. وفي بادىء الأمر فضَّل رجار ـ لشغل المناصب الرئيسية ذات المسؤولية ـ النورمان والفرنسيين من وراء الالب، ثم أخذ تدريجياً يستخدم الإيطاليين أو «اللُّمبارد» الوافدين من شبه الجزيرة الايطالية. وكانوا يُمنحون أراضٍ في مقابل خدمتهم العسكرية، وكانوا أحياناً يفضِّلون أن يجلبوا معهم مستوطنين من أوطانهم الأصلية. وقد أظهرت دراسةُ اللهجات المحلية وجودَ مستوطنات كثيرة يُفترض أنه استقرت بها ـ فيما بين عامي 1090 و 1250م ـ عناصرُ لمباردية أو فرنسية أو ليجورية [من إقليم جنوة]، وقد لاحظ أماري وجودَ عشرات القرى ذات أسماء شبيهة بأسماء أماكن أخرى في ايطاليا. ولا يستطيع المرء إلا التكهُّنَ بحجم هذه الهجرة إلى الجزيرة، إلا أن ذلك يفسِّر كيف أن بلاداً كان معظم سكانها يتكلمون اللغةَ العربيةَ أصبحت بحلول عام 1200م بلاداً يتكلم معظمُ سكانها اللغةَ اللاتينية.

إن الوافدين الجدُد لم يجدوا قانوناً عاماً في صقلية، وفي الوقت الذي اتبعوا فيه الأعرافَ السائدةَ وسمحوا للسكان بالاحتفاظ بقوانينهم الخاصة، لم يكن بدٌ من أن تسودَ الأساليبُ الإقطاعية النورمانية في القطاع العام. فقد أدخلوا الفكرة العامة لنظام Curia، وهي جمعية من النبلاء يقدِّمون فيها النصح والمشورة، وربما كانوا يُبدون فيها أيضاً آراءهم في الأمور الإدارية. كما قُبلت ـ دون منازع ـ الآراء الإقطاعية الخاصة بمِلْكية الأرض بين الطبقة الارستقراطية. وبينما سار الفرنسيون على عُرف بلادهم واعترفوا بنظام إرث الابن البكر ـ دون سائر إخوته ـ لممتلكات أبيه، فإن المهاجرين اللمُبارد كانوا يفضِّلون قسمةَ الممتلكات بين كافة الأبناء، ولكنه كان على كل نبيلٍ أن يقبلَ بإن الإقطاعاتِ الممنوحةَ له لا تكون حيازتها حيازةً مطلقة، إذ إن الأرض كان يمنحها الحاكم بشروط ولصالح مستفيد معيَّن. وكان من الطبيعي أن يقوم

رجار بتوزيع الأراضي التي استولى عليها على شكل إقطاعات. وأحد الأسباب لذلك تمكينُه من تخصيص أوقافٍ للأديرة والأُسقفيات، وبذلك يتسنَّى له الشروعُ في عمليةٍ تدريجيةٍ للاستيطان، وهي عملية كان يُتقنها الدَيْريون من أتباع نظاميْ القدِّيسيْن باسيل وبنديكت. كما ان الإقطاعات كانت تُمنح كذلك مكافأةً لقاءَ تقديم المعونة العسكرية أو لمجرد كون رؤساء الإقطاع سيحملون عبءَ الادارة المحلية، ويفرضون على مُزارعيهم شكلاً من النظام القانوني. وقد وجدت العمليةُ عوناً من حركة من الأسفل، إذ إن الأناس العاديين الراغبين في الحماية من النبلاء الآخرين ـ أو حتى من الحكومة ـ كانوا يضعون أنفسهم وممتلكاتهم تحت رعاية رئيس إقطاعي. وسواء تمَّ ذلك طَوْعاً أو كَرْهاً، فإن الكثيرين من المزارعين ارتبطوا في نهاية الأمر بالأرض كعمال فاقدي الحرية.

ومع ذلك، فإن النظام الإقطاعي المطبَّقَ في صقلية لم يكن كاملاً كالنظام السائد في شمال أوروبا. فمن ناحية، كان الكونت رجار في مركز قوي بحكم الفتح، وعلى ذلك فإنه كان بوسعه أن يحتفظَ بمساحة كبيرة جداً من الأراضي لحسابه الخاص. ومن ناحية أخرى، لا بد أنه حدث إجمالاً نقصٌ في الأيدي العاملة على أثر الدمار الذي خلَّفه الفتح، ومن ثم فإن ذلك كان حافزاً لترك مُلَّاك الأراضي القائمين وشأنَهم، مما أدى إلى بقاء أراضٍ كثيرة خارج النظام الإقطاعي، ودون أن يكونَ لأصحابها أي التزام تجاه طبقة النبلاء الجُدد. وبينما كان على جيسكارد ورجار القيامُ بمزيد من التنازلات للبارونات في جنوب ايطاليا، فإن رجار حَكَم في صقلية بوصفه فاتحاً، وعلى ذلك، فإن التزاماته كانت أقل. ولعله تلقَّن من خبرته في مقاطعة قلورية درساً بأن لا يَمنحَ أكثرَ مما يجب. ومهما يكن من أمر، فإن إنعامه بالإقطاعات في صقلية كان على نطاق أقلَّ من إنعامه بها في جنوب ايطاليا. وكثير من الأراضي التي منحها لم تخوِّل صاحبَها الحقَ في توريثها. ولم يستحدث رجار سوى

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

كونتيَّتيْن اثنتيْن كبيرتيْن: كانت إحداهما في سرقوسة احتفظ بها في أسرته، ولم تكن كبيرةً ولم تلبث أن انتهت بانتهاء مدتها القانونية؛ واستحدث بعد ذلك كونتيةً ثانيةً امتدت من بطرنو Paterno إلى بثيرة Butera، وقد منحها لصهره ـ وكان من شمال ايطاليا ـ وعهد إليه بسلطة خاصة على المستوطنات اللمباردية الرئيسية. وفي سنة 1092، منح رجار مدينةَ قطانية الأُسقفَ الذي كان رجار قد استحدث أُسقفيته ورغب في تخصيصٍ وقفٍ لها. أما بقية المدن الرئيسية، فاحتفظ بها ضمن ممتلكاته الملكية الخاصة، وقد كانت مستقلةً عن الطبقة الارستقراطية المالكة للأراضي في الأرياف في العهديْن البيزنطي والإسلامي، ورغب رجار في إبقائها على حالها. وفضلاً عن المدن، كان من الأهمية بمكان الاحتفاظُ بالأراضي الساحلية تحت الإشراف الملكي، فسمح لبعض المدن بالاحتفاظ بالأراضي والامتيازات في مقابل تقديم خدمات: فكان على أسقف بطِّي Patti ـ على سبيل المثال ـ أن يقدِّم عشرين بحاراً، وكان على مدينة نيقوسية Nicosia بعد تأسيسها أن تقدِّم 296 بحاراً للخدمة في الأسطول، وأن تجلب الأخشابَ لدور صناعة السفن الملكية.

إن نظامَ الإقطاع الصقلي كان لذلك من حيث المنشأُ والهدفُ ينطوي على تعزيزٍ لسلطة الحاكم. وكان رجار حريصاً على الاحتفاظ ـ على وجه التحديد ـ بامتيازاته الملكية عند منحه إقطاعات من الأراضي. وقد أصرَّ على أن للمواطنين العاديين حقوقاً على البارونات، وإن من حقه كحاكم مساندتَها، كما احتفظ لنفسه بالسلطة الجنائية العليا في كافة القضايا تقريباً. ولما كان هو الذي منح ألقاب البارونات، فإنه احتفظ لنفسه بالحق كحاكم أعلى للبلاد بمصادرة الملكيات الشخصية. وكان أصحاب الإقطاعات يحتفظون بإقطاعاتهم في مقابل تقديم الولاء والخدمة، وهي عرضة للمصادرة في حالة عدم وفائهم بالتزاماتهم. وكانت الإقطاعات تؤول إلى التاج في حالة عدم

وجود وارث مباشر، وكان يكلَّف أحدُ وكلاء الملك بإدارة الإقطاع حينما يكون الوارث قاصراً دون سن الرُّشد.

إن موقفَ رجار من الديانة يدلُّ على أن الاعتباراتِ السياسيّة كانت تحتلُّ المقامَ الأول في تفكيره. كانت صقلية بلاداً إسلامية حينما وصل إليها، ولم يكن راغباً في إثارة عداوة رعاياه من غير النصارى دون مبرر. ولما كان النصارى الذين بقُوا في الجزيرة من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، فإن رجار أوقف على الأديرة اليونانية أوقافاً أكثرَ مما أوقفه على الأديرة اللاتينية. والمعروف أن نحو سبعين ديراً من أديرة القديس باسيل كانت قائمةً في صقلية النورمانية، وقد ظلَّت هذه الأديرة المركز الرئيسي للحياة الدينية. وكان رئيس أساقفة بلرمُ باديء الأمر يونانياً. ولا شك في أن رجار أخذ بعين الاعتبار أن بَطْرق القسطنطينية كان أبعد عنه من البابا وأضعف منه، وعلى ذلك فإن امكانية تدخله كمشرفٍ ديني كانت أقل، كما أنه كان يدرك دون شك أن التقليدَ القيصريَّ ـ البابوي في بيزنطة كان يعطي السلطةَ الزمنيةَ وزناً أكبر، ولعلَّه كذلك رأى أن في هذا التوازن الحكيم للرعاية وسيلةً نافعةً للضغط على رومة.

وفي الوقت ذاته، منح رجار الكنيسةَ اللاتينيةَ بعض الامتيازات وبشروطه الخاصة. وبحلول عام 1083م، كان قد عيَّن رئيسَ أساقفة للكنيسة اللاتينية في بلرم، وأُدخلت الطقوس الدينية الفرنسية. وقرر رجار ـ بمبادرة تامة منه ـ عددَ الأُسقفيات ومساحةَ كل أسقفية، وخصَّص لها دخولاً من أمواله الخاصة، وقام هو نفسه باختيار الأساقفة. وكان معظمُ الأساقفة الذين وقع اختيارُه عليهم من رجال الدين الفرنسيين: فأُسقف مازر من روان، وأُسقف سرقوسة من الرهبان البنديكتيين من بروفانس بجنوب فرنسا، وأُسقف قطانية من مقاطعة بريتاني [بشمال فرنسا]، مع أنه عيَّن كذلك أساقفةً من انجلترا ومن مقاطعة تسكانيا. ولعلَّه من الجدير بالذكر أن تلك الفترة الزمنية كانت فترةَ الصراع بين

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الملوك والكنيسة حول من يتولّى تقليدَ أصحاب المناصب الدينية، وهو الصراع الذي رفضت فيه الكنيسة في معظم أنحاء أوروبا أيَّ تدخل من جانب السلطة الزمنية العِلمانية في اختيار الأساقفة، إلا أن الأمر في صقلية كان يختلف عن ذلك. ففي صقلية ظلَّت الكنيسةُ تشكِّل إلى حد ما جزءاً من الامتيازات الملكية.

لم يعُدْ رجار إلى كنيسة رومة الأوقافَ الصقلية الواسعةَ التي كانت قد صادرتها الدولةُ البيزنطية، ومع ذلك فإنه كان سخياً جداً تجاه المؤسسات التي أنشأها، وربط أسقفياته الجديدة برومة لا بالقسطنطينية. وزار البابا إربان الثاني صقلية لتأكيد عمل رجار، لأن البابوية كانت في حاجة ماسة إلى مساعدة النورمان ضد الإمبراطورية الغربية [الامبراطورية الرومانية المقدسة]، ولما تمادى إربان فيما بعد وسمَّى أسقفَ طورينة Torina ممثلاً للبابا في الجزيرة، قام رجار بزجِّ الأُسقف في السجن، وحمل البابا على إلغاء تعيينه. وعلى الأثر صدر في سنة 1098م مرسوم بابوي يقضي بأن يكون لرجار وخلفائه ـ دون سواهم ـ سلطاتُ القاصد الرسولي Apostolic Legate في صقلية وقلورية كممثلين مفوَّضين للسُنَّة البابوية. وكان من شأن ذلك الاعترافُ بأن لرجار في الأمور الدينية سلطةً قريبةً من سلطة الإمبراطور البيزنطي. فكان بوسعه الادعاء بأن الأمورَ الدينيةَ ينبغي أن تُعرَض في نهاية الأمر على محاكمه دون أي حق بالاستئناف إلى رومة. وأصبح لحاكم صقلية ـ على أساس منصبه شبه الديني ـ الحقُّ في أن يضع في إصبعه خاتمَ الرعاوية، وأن يرتديَ الثوبَ الكهنوتي، وأن يحمل عصا الأُسقف. وقد أمدَّه الجمعُ بين السلطتين المدنية والدينية بقوةٍ خاصة، كما جعل من الصعب فيما بعد قيامَ معارضة ومؤسسات تمثيلية.

لقد كرَّس رجار حياتَه للفتح بحيث لم يتوفر لديه الوقتُ الكافي لإعادة تنظيم الحياة الاقتصادية. ويبدو أنه لما فرغ من إخضاع البلاد، أمر بإجراء

تحقيقٍ في مِلكية الأراضي. إن هذا الاحصاء الأوَّلي للأشخاص والممتلكات كان شبيهاً بما يُعرف في تاريخ انجلترا باسم Domesday Book، [وهو السجل الذي أُعدَّ في عهد ملك انجلترا وليام الفاتح لبيان الأراضي ومالكيها] إلا أنه كان يقوم على الأسلوب المتَّبع في الديوان. وفي سنة 1093م، أُعلن النتائجَ في مازر، حيث دعا أصحابَ الإقطاعات التابعين له إلى اجتماعٍ سلَّمهم فيه كشوفاً تشتمل على وصفٍ للأراضي، وعدد الأقنان أو عبيد الأرض، والمباني القائمة فيها.

ولما كان رجار قد احتفظ لنفسه بالجزء الأكبر من كافة الأراضي المفتوحة، فإن أُسرته غدتْ ثريةً جداً، إذ إن معظمَ المدن تقريباً وبعضاً من أفضل الأراضي الزراعية كانت من نصيبه. وحينما كان يمنح الأراضي للآخرين، فإنه كان يحتفظ لاستعماله الخاص بالمناجم والملاَّحات، وبالغابات إجمالاً. وفضلاً عن ذلك، فإنه كان يجبي الرسومَ المستحقةَ من أتباعه العسكريين، ويحصل على العمال والخدمات من مستأجري أراضيه، كما أنه تمتَّع بالطبع بنتاج أراضيه الخاصة وببعض الضرائب العامة. كان القمحُ المصدرَ الرئيسيَّ لثروة صقلية، وكانت تُصدَّر كميات كبيرة من القمح إلى شمال افريقيا حيث تسبَّبتْ الغزواتُ القبليةُ في نقص كبير في الطعام. ولعلَّ الضرائبَ المفروضةَ على صادرات الحبوب في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد كانت تشكِّل بالفعل مصدراً مهماً للإيرادات. وكانت صقلية تحظى بمزية فريدة في هذا المجال: فمناخها وتربتها كانا ملائمين لزراعة نوع صلب جداً من القمح، لعلَّ العربَ هم الذين أدخلوا زراعتَه من شمال افريقيا. إن هذا القمحَ الصلبَ كان يعطي غلَّةً ضئيلةً، وكان من العسير طحنُه، إلا أنه كان يحتوي على نسبة عالية جداً من البروتين، وكان ينمو نمواً حسناً في المناخ الحار، ولا يحتاج إلا إلى القليل من الأمطار. وكان قبل كل شيء صالحاً جداً للخزن دون أن يفسد، وعلى ذلك، فإنه كان مثالياً للحفظ والخزن، لمواجهة حالات

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

المسغبة، ولتزويد المراكب به لملّاحيها.

ولا يُعرف إلا القليل عن مناطق المرتفعات، ذلك لأن كافة المدن في صقلية العربية والنورمانية ـ باستثناء قصريانه ـ كانت على الساحل أو قريبةً منه، ولا يتوفر إلا القليل من المعلومات عن طريق الوثائق والحفريات. ويمكن للمرء أن يفترض بأن الارستقراطيةَ الإقطاعيةَ تكيَّفتْ بسهولة في عالَمٍ ذي مزارعَ واسعة latifundi من القمح، ومن المؤكد أنه في بعض المناطق التي كان بها في وقتٍ ما مستوطناتٌ عربيةٌ كثيفة حلَّتْ مزارعُ النبلاء والأديرة لتربية الماشية تدريجياً محلَّ البساتين والجِنان، وساعد على ذلك تناقصُ السكان بسبب الحرب والمجاعة والترحيل. ولم يكن من غير المألوف في عام 1100م ظهورُ قرى صغيرة للأسواق تضم الواحدةُ منها نحوَ مائة أسرة، إلا أنه عاد فأصبح من النادر أن تجدَ في صقلية قرىً صغيرة ومزارعَ منعزلة. وما من شك في أن طول فترة الحروب شجَّع الاتجاهَ إلى تجمع سكان الأرياف معاً في قرى كبيرة كانت ـ في أغلب الأحيان ـ نائيةً عن أماكن عملهم.

وطالما كان ثمة نقص في الأيدي العاملة في المزارع، اضطر رجار وباروناته إلى اجتذاب فلاحين جدُد، وإلى إغراء الفلاحين الموجودين على البقاء بإيجاد ظروف مناسبة لفلاحة الأرض. وبعد أن استولى رجار على جزيرة مالطة، عَرَض أن يبني قرية للأسارى النصارى الذين أُفرج عنهم فيها، وأن يزوِّد المستوطنين برأس المال، وأن يخفِّض الضرائب، إلا أن هذا العرضَ لم يكن كافياً مع ذلك لاجتذابهم للبقاء فيها. وكان على كل مالك ناجح للأرض أن يؤكدَ الحقوقَ المشتركةَ التي كان يتمتع بها مستأجرو أرضه بالنسبة للأراضي الجبلية ومناطق الغابات. وثمة شهادة مؤرخةٌ في عام 1092م ـ على سبيل المثال ـ تمنح أحدَ الأديرة وتابعيه الحريةَ التامةَ في بعض الغابات والحقول، حيث يمكنهم استعمالُ الأنهار وجمعُ ثمار الجوز والبلوط، كما يمكنهم أخذُ ما يحتاجونه من الأخشاب لعمل المحاريث وبناء المنازل أو

لأغراض الوقود. وكان كثير من العرب يَحْيون حياةَ الرعاة الرحَّل، لذلك فإن الحقوقَ الخاصةَ بالرعي كانتْ أكثرَ الأعراف القديمة شيوعاً. وكثيراً ما كانت ثمة حقوق خاصة بالصيد وصيد الأسماك وجمع التبن، وحتى بقطع الحجارة، وزراعة الأشجار في الأراضي العامة والخاصة على حد سواء. وهذه الامتيازات العامة لا بد وأنها كانت مهمةً في المجال الاقتصادي بالنسبة لمعظم سكان صقلية. ومن المحتمل أنها جعلت حالةَ العمال الزراعيين أسهلَ بكثير مما أصبحت عليه فيما بعد، حينما أُنقصت قدرة المزارعين على المساومة ضد البارونات، في وقتٍ لم يَعُدْ فيه ملك قوي يحمي مصالحَهم.

إن النجاحَ الذي حقَّقه رجار في علاقته بالكنيسة، وعدمَ ظهور أية مقاومة خطيرة له، يدلان على المدى الذي بلغه في تهدئة صقلية وقلورية قبل وفاته سنة 1101م. وكان من حسن حظ البلاد أنه لم يكن يشارك طموحاتِ أخيه جيسكارد في شرق أوروبا. واستطاع أن يقدِّم مهوراً كبيرة لبناته اللاتي تزوجتْ إحداهن من كارلومان ملك المجر، وتزوجت أخرى من كونراد ابن الامبراطور الغربي هنري الرابع. ومع أن رجار اشتهر في أرجاء العالم المسيحي بثرائه وقوته، إلا أن الدولةَ النورمانيةَ كانت تفتقر إلى الشعور بالبقاء. لقد كان رجار حاكماً يتنقل كالرَّحل ـ مَثَلُه مَثلُ آبائه الفايكنج ـ وأمضى وقته متنقلاً من مقاطعةٍ إلى أخرى تصحبه إدارته وخِزانته. وقد أوصى بأن يُدفَن لا في صقلية بل في مليطة Mileto بمقاطعة قلورية، وتَرَك لخلفائه مهمةَ تنظيم مملكةٍ مستقرةٍ قاعدتها بلرمُ العاصمةُ العربيةُ السابقة.

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

ج ـ المملكة النورمانية

تولّت زوجة رجار الثالثة أدليد Adelaide الوصايةَ على العرش بعد وفاته، وكانت من شمال ايطاليا، وبسبب صلاتها العائلية فإنها شجّعت هجرةَ اللمبارد إلى الجزيرة، وبخاصة إلى شرقها وشمالها الشرقي. وكانت الكنيسةُ اليونانيةُ ما تزال تحظى بالرعاية كالكنيسة اللاتينية في فترة وصايتها على العرش. وهي التي اتّخذتْ بلرمُ عاصمةً، إذ إنها اكتشفت بأن صقلية أكثرُ استقراراً من قلورية، كما أنها مصدرٌ أفضلُ للإيرادات. وقد وجدتْ أدليد في مسلمي بلرمُ ـ كما في رجال الدين اليونان ـ سنداً مفيداً ضد الطموحين من الإقطاعيين. وكانت بلرمُ قد أصبحت في فترة الحكم العربي للجزيرة أكبرَ مدينة في جنوب ايطاليا، ودخلت الآن في أكثر الفترات ازدهاراً في كل تاريخها.

ولا تُعرف اللحظةُ التي تسلّم فيها الابنُ رجار الثاني مقاليدَ الحكم من والدته، الا أنه لا شك في أن ذلك كان قبل سنة 1113م، حينما ارتكبتْ أدليد حماقةَ الزواج من بولدوين ملك بيت المقدس. العِيان من روعة أسطولها حينما توجهت إلى الأراضي المقدسة، ومن صفائح الذهب والفضة التي غُطِّيتْ فيها مقدمة سفينتها، ومن سجادها المصنوع من خيوط الذهب. ولا شك في أن هذا الزواج مثّل لصقلية خسارةً كبيرةً في الثروة. وكان بولدوين لا يَهمُّه من الزواج سوى مَهْرِها، وذلك لتمكينه من تسديد ديونه ودفع مرتبات جنده. وكانت له زوجة أخرى، فكان من السهل عليه ـ بعد أن أنفق هذه الأموال ـ إقناعُ البابا بفسخ هذا الزواج الجديد. ومن

الممكن أن رجار قد شجَّع هذا العمل الطائش من جانب والدته، مؤمِّلاً من وراء ذلك في أن يرث عرشَ بولدوين. إلا أنه قبل انقضاء وقت طويل، كان قد جعل من مقاطعته الصقلية مملكةً قائمةً بذاتها.

لم يحكم رجار الثاني صقلية وقلورية فحسب، بل إنه في عام 1127م ورثَ مقاطعةَ بولية بعد وفاة وارث عمه روبرت جيسكارد، وأعلن في عام 1130م أن كافةَ جنوب ايطاليا أصبح يشكِّل جزءاً من «مملكة صقلية» الجديدة. وكانت المملكة تمتد شمالاً حتى الولايات البابوية حيث كان الحد الفاصل نهر ترونتو Tronto في الجانب الأدرياتيكي، ونهر جاريليانو Garigliano في الجانب المُطلِّ على البحر التيراني. وبادر رجار ـ بكل جرأة ـ فاتخذ لنفسه لقبَ «ملك صقلية وايطاليا» Rex Siciliae et Italiae.

إن هذا الملك ـ وهو أول ملك لصقلية ـ كان من أبرز ملوك أوروبا في القرون الوسطى. وقد تحدَّى بنجاحٍ البابا وإمبراطوريْ الإمبراطوريتين الشرقية والغربية. واستحوذ على امبراطورية في شمال افريقيا، بل إنه كان يستهدف العرشَ الامبراطوريَّ في القسطنطينية ذاته. كان هذا الملكُ ـ حسبما وصلَنا من معلومات ـ طويلَ القامة، جَهْوريَّ الصوت، وذا طموح لا حدَّ له. وكان يعمل بجدٍ كبير: دقيق في عمله، يتحلَّى بالصبر، ويحظى بموهبة القدرة على الإلمام بتفاصيل الأمور وجزئياتها. إن مؤرخيه ـ وهم من رجال الدين ويمقتون أفكاره الخاصة بالمساواة بين الأديان ـ لم يُنصفوه دائماً، ولكن يبدو أنهم لم يجانبوا الصوابَ بنعتهم إياه بأنه كان يُخشى أكثر من أن يُحبَّ. وهم متفقون على أنه كان ممسكَ اليد، ولا ضميرَ له، وانه كان لا يعرفُ الشفقةَ أو الرحمة، إلا أنهم لم يستطيعوا إنكارَ حدة ذكائه وشخصيته المهيمنة. وقد قال أحدهم إن رجار كان يبدو بأنه ينجز في منامه أكثرَ مما ينجزه غيره في يَقْظَتِه.

إن مملكة رجار كانت تختلف عن الممالك المألوفة في شمال أوروبا. ولا بد أنه تتلمَذَ في شبابه على أيدي أساتذةٍ من اليونان، وكان مُلِمّاً باللغتين

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

اليونانية والعربية، إلا أنه كان يؤْثر استعمالَ اليونانية حتى في مراسلاته الدبلوماسية مع السلاطين العرب. واشتهر عنه أنه كان يحتفظ بالحريم، وقد خُصِّص جناح في قصره للنساء والخصيان، ولكنه بينما كان الخصيان في القسطنطينية عادة من الرهبان النصارى، كان خصيانُ رجار من المسلمين. وقد تولى طاهٍ عربيٌّ الإشرافَ على مطابخ القصر. ونسمع الكثيرَ عن اهتماماتِ الملك الفنية والفكرية، ولعلَّ هذه (أو ما اشتهر عنها) أُذيعتْ عمداً لجعله يبدو وكأنه يختلف عن العاديين من بني البشر، ذلك لأن بهاءَ بلاطه لم يكن لمجرد الغرور أو الترف، بل كان أيضاً دعايةً مقصودةً لفكرة الملكية ذات الصفة شبه المقدسة. وقد بُهر المعاصرون له تماماً لرؤية أراضي حجرات القصر مغطاةً بالسجاد متعدد الألوان، ولرؤية الخدم يرتدون الثيابَ الحريرية، والطعامَ وهو يُقدَّم في طباقٍ من ذهب.

وكان كبير وزرائه يحمل لقباً فخماً هو (أمير الأمراء). وبحلول عام 1125م، كان أمير أمرائه جورج الأنطاكي[1] الذي كان قد تعلَّم فن السياسة في بلاد الشام، وأثناء خدمته في بلاط أمراء بني زيري في المهدية. وكان جورج الأنطاكي يُتقن اللغةَ العربيةَ مع أنه كان مسيحياً يونانياً يتبع الكنيسةَ الأرثوذكسية. ولعلَّه لم يكن من قبيل الصدفة أن رجلاً بارزاً كهذا الرجل من المنشقِّين عن كنيسة رومة كان يخدم رجار حينما بدأ نزاعَه مع البابا، أو أن رجلاً من المتمرسين في مبادىء جوستنيان ساعد في تحويل رجار من كونت إلى ملك.

وقد لاحظ عدد من المؤرخين أن التقاليدَ العربيةَ والبيزنطيةَ ـ أو حتى الإنجليزية النورماندية ـ كانت العنصرَ الرئيسيَ في إدارة رجار، ولعلَّ مساهمَة جورج الأنطاكي كانت مساهمةً حاسمةً في هذا السبيل. وكان كبارُ موظفي

(1) عن جورج الأنطاكي، انظر بحثنا ضمن هذه الدراسات بعنوان (العلاقات بين جزيرتيْ جربة وصقلية)، هامش 11.

الدولة من اليونان، مع أن الكثيرين من صغار الموظفين كانوا من المسلمين. وظلّت العُملة تشتمل على كتابةٍ عربيةٍ ضمن النقوش الثلاثية اللغة، ولكنها كانت تنزع إلى النماذج البيزنطية. وكانت بعضُ الوثائق الرسمية ما تزال تُدوَّن بالعربية وتحمل التاريخَ الهجري، وكانت إلى جانبها وثائقُ لاتينية تقلِّد العباراتِ المستعملةَ في الديوان البابوي، ووثائق يونانية تؤرخ بخلق العالم. إن الطبيعةَ الثلاثيةَ للإدارة في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد يدل عليها مخطوط مصوَّر لبطرس الإيبولي Peter of Eboli، حيث يُشار في الرسم بوضوح إلى الكَتبة العرب واليونان واللاتين. إلا أن معظم الأختام الملكية كانت باليونانية. وقبل كل شيء كانت فكرةُ السلطة الملكية تحذو ـ عَمْداً ـ حذوَ فكرة جوستنيان، وأصبح هذا التأثيرُ الشرقيُّ مع مضي الوقت أكثرَ ظهوراً وبروزاً، إلى أن أصبحت صقلية أكثرَ غرابةً في أعين الغربيين حتى من المملكة الصليبية في بيت المقدس.

ومما يرمز إلى هذا التطور التتويجُ الذي تمَّ ببذخٍ أُسطوري عام 1130م في المسجد الجامع سابقاً، والذي حُوِّل إلى كاتدرائية بلرمُ. وكان رجار قد استدعى بعضَ أتباعه الاقطاعيين إلى سالرنه Salerno وأبلغهم أنه يرغب في أن يكون ملكاً، ثم دعاهم إلى اجتماع عام في بلرمُ يضم رجالَ الدين والنبلاءَ والشعب، فتمَّ ذلك، ورحبوا باقتراحه. وهكذا فإن بلوغَ مرتبة الملك عن طريق الفتح تأكد الآن بنوعٍ من الانتخاب. وعلى هذا النحو تكوَّنت المملكة regnum ـ والتي يُعترف بها عموماً على أنها «المملكة» من الطراز الأول ـ والتي تميَّزت بصفة خاصة لم تعرفْها الممالكُ الإقطاعيةُ الأخرى. فقد كانت أغنى وأكثرَ تمدناً منها، كما تمتَّعت بأكثر مما تمتَّعت به غيرها من الممالك من نظام وسلام داخلي. وكان ملكُ هذه المملكة أكثرَ من كونه الأول بين بارونـاته، بل خُلقتْ صورة واهمة بأنه كان ملكاً ـ كاهناً استمدَّ سلطتَه من الله وحدَه، بحيث يُعَدُّ القيامُ عليه انتهاكاً للمقدَّسات. وقد اقتضت مراسمُ

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

البلاط أن يقوم رعايا رجار ـ بما فيهم الأساقفة ـ بالسجود أمامه إجلالاً. وتُظهره أختامُه مرتدياً ملابسَ ملكٍ شرقي [بيزنطي] basileus. كما تصوِّره لوحةٌ فسيفسائيةٌ في بلرمُ مرتدياً العباءةَ الإمبراطوريةَ ولباسَ قاصد رسولي، وهو يضع التاجَ اليونانيَّ على رأسه، ولا يتسلَّمه من البابا أو من الإمبراطور، بل يتسلَّمه مباشرةً من السيد المسيح نفسه.

إن قوانينَ المملكة تبيِّن بوضوح أن مصدرَها شرقي. وفي الوقت الذي انتهج فيه رجار سياسةَ والده بالسماح للجماعات المختلفة من رعاياه بالخضوع لأنظمةٍ قانونيةٍ مختلفة، فإنه أصدرَ مجموعة قوانين تسري أحكامُها على سكان المملكة المتباييني الأجناس، ورأى أن تقومَ هذه القوانين على أساس التشريع «الروماني» الذي كان مألوفاً لدى اليونان في صقلية. ولم يَظْهر في دولة غربية اهتمامٌ كالذي أُبدي لجلال شخص الملك وسلطاته كمشرِّع. ولعلَّ ذلك كان على سبيل الدعاية النظرية أكثرَ منه سياسةً عملية، ومع ذلك ـ وحتى في التفاصيل الدقيقة كاللوائح الخاصة بالزواج والبغاء وحقوق رجال الدين الخاصة باللجوء، والتحجير على اليهود والكفار اقتناءَ عبيدِ أرضٍ نصارى، ومزاولة مهنة الطب على سبيل المثال ـ فإن الكلماتِ ذاتها في الغالب كانت مقتبسةً من قوانين جستنيان.

كان رجار ـ فضلاً عن كونه ملكاً ـ رئيساً إقطاعياً أعلى، وبهذه الصفة كانت تربطه صلةٌ خاصة بالنخبة العسكرية مالكة الأرض من النورمان واللمبارد. ولم يَقُمْ رجار ـ بخلاف والده ـ دائماً بقيادة قواته شخصياً، إلا أن أصحابَ الإقطاعاتِ لم يُسمحْ لهم باتخاذ ذلك ذريعةً لتأكيد زعامتهم الخاصة، وأُنقصت سلطتُهم بوجود جيش محترفٍ قوي إلى جانب الجنود الذين يقدِّمهم رؤساءُ الإقطاع. وكانت الإقطاعات تتمُّ حيازتها عادة في مقابل الخدمة العسكرية، كما أن انخراطَ الفرسان في الجيش في صقلية كان نظرياً لمدة تسعين يوماً في السنة بدلاً من الأربعين يوماً المعتادة. ولم تكن ثمة حاجة

لإعطاء البارونات سلطةً سياسيةً كبيرةً، إذ كانت توجد طبقة قديرة من الكَتبة تَعتمدُ على الملك اعتماداً كلياً. وبالمثل، فإنه حُدَّ من ظهور القضاء الإقطاعي، لوجود قضاة ملكيين متجولين يتولَّوْن تطبيقَ القوانين الملكية. وبموجب مفهوم القانون الروماني، فإن الولاءَ المطلقَ كان للملك، لا للرئيس الإقطاعي الوسيط. وقد دَمَّر رجار القلاعَ المملوكةَ بصورة خاصة، وحظَر على النبلاء أن يحارب الواحدُ منهم الآخر. ولم يتردَّد في إعدام بعض رفاقه في السلاح ومصادرة ممتلكاتهم، ذلك لأنه كان من المعترف به أن الإقطاع تفويضٌ للسلطة العامة، وهو تفويض يمكن فسخُه وإلغاؤه. وللتأكد من أنه لم يقُمْ أحد من تابعي رجار ـ أثناءَ حداثة سنه ـ باستغلال ضعف الحكومة، فقد خُوِّل الديوانُ سلطةَ مطالبة كل بارون بإبراز السَندات التي تُثبت هذا التملكَ والخدمات المترتبة على ذلك، وإذا كانت السنداتُ الأصليةُ قد تآكلت أو أفسدتها الديدان، فإنه قد يُطلب نسخها من جديد على ورق متين من القطن.

وكان البرلمان أساساً مؤسسةً إقطاعية. فقد تطوَّر من التقليد التيوتوني [الجرماني] الذي خَوَّل المحاربين الرئيسيين واجباً ـ بل حقاً ـ في تقديم المشورة للملك، وقد يكون التخويل يمنحهم حتى حقَّ انتخاب الملك في المقام الأول. إلا أن جمعية نبلاء رجار لم تكُنْ تقييداً لسلطة الملك، بل كانت منبثقةً عن الإرادة الملكية. ويبدو أن الموافقةَ البرلمانيةَ لم تكن أمراً لا بد منه، ومن المستبعد أن يكونَ البارونات في البرلمان قد قاموا بأكثر من الإصغاء والموافقة. ولعلَّه كان يدعوهم إلى الاجتماع لا لشيء سوى إضفاء مزيدٍ من الجلال على إصدار القوانين، والإيهام على الأقل بأن الحكومةَ كانت أكثرَ من سلطة استبدادية. وكان البرلمان يدل على مناسبة أكثر من دلالته على أنه جمعية للشعب، واستخدم الملكُ مثلَ هذه المناسبة للتأكد من أن رعاياه الرئيسيين كانوا على علمٍ بالإرادة الملكية، وأنهم قاموا بنقل رغباته إلى مَواطِنهم. إن من المستبعد أن يكون حاكمٌ له هذا القدرُ من

الطريق الى السنّة . http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

السلطة قد واجه مشاكلَ تُذكر مع الكنيسة. وقد صدر بحق رجار قرارُ الحرمان في عددٍ من المناسبات، إلا أن من الواضح أن هذا لم يُزعجْه كثيراً. واستغلّ انقسامَ البابوية للحصول على موافقة المنافس للبابا على اتخاذه لقب ملك، ثم قام بأسر البابا الشرعي إنوسانت الثاني حينما تقدَّم جيش بابوي لصد العدوان النورماني، وحصل بهذه الطريقة على اعتراف البابا، وعلى سحب قرار الحرمان ضده. وفي المقابل، قبل رجار حقَّ البابا في تقليد الأساقفة، ولو أنه من الناحية العملية لم يدَعْ هذه الصلةَ الإقطاعيةَ تعني أيَّ إنقاص من حقوق سيادته.

وفي قلورية وصقلية، اعتبرَ رجار تنظيمَ شؤون الكنيسة امتيازاً ملكياً بحكم منصبه الوراثي كقاصدٍ رسولي. إن هذا الامتياز كان يَلْقى معارضةً في رومة، ولكنه لو أقدم البابا على فسخ اتفاقية عام 1098م، لبادرت الحكومة إلى سحب المخصَّصات الملكية التي كانت المصدرَ الكلِّيَّ تقريباً لإيرادات الكنيسة في صقلية. وفي الواقع فإن رجار استمر في اختيار الأساقفة، بصرف النظر عما إذا قام البابا بترسيمهم أم لا. وسنَّ رجار القانونَ الخاصَّ ببيع الآثار المقدسة، والارتداد عن الدين، ومعاقبة من يمارس أعمال السحر. وقد تمادى في إحدى المناسبات حينما سمح ـ ولعلَّه أصدر تعليماته ـ للارشمندريت نيلوس دوكسوباتريوس التابعِ لدير القديس باسيل بكتابة هجوم عنيف ضد سيادة رومة. وقد كان هذا الكتابُ عملاً تاريخياً كبيراً، فضلاً عن كونه جَدلاً دينياً مؤدَّاه أن البابا لا يتجاوز في مرتبته غيرَه من البطارقة، وأن الولاءَ الدينيَّ لصقلية وجنوب ايطاليا ينبغي أن يكون للقسطنطينية.

وما إن أثبت رجار أن كنيسته هي كنيسة قومية، وأنه سيُبدي تسامحاً نحو الأديان غير المسيحية ـ حتى في عصرِ الحروب الصليبية السائد ـ حتى دلَّل على أنه ليس مارقاً عن الدين. فقد اهتم بتشييد الكنائس، واعترف القديس

برنارد بأن رجار كان راعياً سخياً بالرغم من الصدام الذي وقع بينهما حول السياسة، وبالرغم من أنه نَعته بطاغية صقلية. وفضلاً عن ذلك، ومع أن رجالَ الدين اليونان كانوا أكثرَ علماً من اللاتين، فإن رجار فضَّل الأخيرين في الأموال التي أوقفها. وما إن نال رجار اعترافَ البابا في عام 1139م، حتى كفَّ عن تأسيس أديرة يونانية، وشُجِّعت الأديرةُ الباسيليةُ القائمة على تغيير ولائها تدريجياً.

وأصبحت صقلية مرة أخرى قوةً في أوروبا ومركزاً لإمبراطورية متوسطية. ويكاد رجار يكون الملكَ الوحيدَ في أوروبا المسيحية الذي لم يُبْدِ اهتماماً بالحركة الصليبية، بل استغلَّ الحملةَ الصليبيةَ الثانيةَ إستغلالاً متزناً غيرَ عاطفي كذريعة لوضع حامية في جزيرة كورفو. وفي عام 1147م، قام جورج الأنطاكي على رأس أسطول ـ لعلَّه كان يضمُّ جنداً مسلمين لا يقلُّون عن عدد الجند المسيحي ـ بغزو بلاد اليونان ذاتها، بل وقيل إنه برز متحدياً أمام القسطنطينية. وقد كانت هذه الحملةُ مجزيةً بوجه خاص، لأنه جرى فيها نهبُ مدن أثينا وثيبس Thebes وكورنث، واختُطف كثير من عمال المنسوجات الحريرية لدعم صناعة النسيج في بلرمُ.

ولحل المشاكل الاقتصادية والاستراتيجية التي كانت تواجه رجار في إقامة رأس جسر في شمال افريقيا. وفي سبيل ذلك، استغل بنجاحٍ الخلافاتِ القائمةَ بين المسلمين، وبعد استيلائه على جزيرة جربة في سنة 1135م، اتخذها قاعدةً قامت منها سفنه بشن الغارات على المواصلات البحرية مع مصر. وفي عام 1146م، استولى جورج الأنطاكي على مدينة طرابلس الغرب، ففتك بسكانها، وأحدث في المدينة تخريباً كبيراً. ثم سقطت المهدية في عام 1148م، وبعدها سوسة وصفاقس، إلى أن تمَّت لرجار السيطرةُ على الساحل بكامله إلى رأس بون [الرأس الطيب]، وسيطر في الداخل حتى مدينةِ القيروان. إن هذه السياسةِ كانت تنطوي على قَدرٍ كبيرٍ

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

من المخاطرة، إذ إنها كانت تَعْني التخلِّيَ عن مشروع والده الخاص بقيام تجارة سلمية. إلا أنها كانت دون شك مخاطرةً مدروسةً، إذ انطوت على اعترافٍ سياسيٍ بأن الكثيرَ من مدن إفريقية كانت في بعض السنوات تعتمد في وارداتها من الطعام على جزيرة صقلية. وشجَّع رجار هجرةَ الصقليين إلى مدينة طرابلس الغرب. بل إنه سمَّى نفسَه «ملكَ افريقية». وقد تمكَّن من استرضاء كثير من المسلمين المحليين بسهولة، ذلك لأنه سمح باستمرار العمل بما كان قائماً من القوانين ونظام القضاء، ولم يكلِّف الأهالي بدفع غير الجزية.

وفي داخل صقلية ذاتها، قامت حكومة كفؤة باستغلال المصادر الكامنة للثروة بطريقة لم يكُنْ بوسع أي حاكمٍ جاء بعده أن يضاهيَها. إن وفرةَ العُملة ساندها ثانية ذهبُ افريقيا، وظهرتْ عُملة الدوقة لأول مرة في التاريخ. ونشط الأسطول التجاري بفضل الدعم الملكي، بينما احتفظ الأسطول بالسيطرة على البحار، وكان يجبي ضريبةَ العُشْر على السفن التي تعبر البحرَ المتوسط. ويبدو أن زراعةَ القطن تقلَّصتْ، ولعلَّ ذلك يرجع إلى نزوح المزارعين العرب، إلا أن صناعة الحرير تلقَّتْ حفزاً من العمال اليونان الوافدين المهرة، ومن متطلبات مراسم البلاط. ولا تزال توجد في فيينا عباءةٌ رائعةٌ من الحرير، وعليها كتابة مطرَّزة بالعربية تنصُّ على أنها من صُنْع دار الطراز الملكية ببلرمُ عام 3-1134م [528هـ]، وكانت دارُ الطراز هذه في داخل القصر ذاته، وكان يعمل فيها صاغةُ الذهب وصانعو المجوهرات، فضلاً عن عمال نسج الحرير. واستمر تعدينُ الحديد والملح والكبريت، كما أن صيد المَرْجان كان صناعةً صقلية قائمة. وقد ساهم صيد السمك مساهمةً كبيرةً في الإيرادات الملكية، وكان سمك التونة المملَّح من صقلية ـ مع البسكويت المصنوع من القمح الصقلي ـ طعاماً منتظماً للبحارة في سائر أرجاء البحر المتوسط. وقد أوردتْ لوائحُ خاصةُ النقاطَ على الساحل التي كان يُسمح

بصيد سمك التونة فيما بينها عند وصول أفواج الأسماكِ إليها في شهر مايو، كما أوردتْ عددَ القوارب وصائدي الأسماك الذين يُسمح باستخدامهم، وحدَّدت الرسومَ المستحقةَ عنها للملك.

وإلى جانب زراعة القمح، ترد إشارات ـ لدى كتَّاب القرن الثاني عشر للميلاد ـ إلى البرتقال والليمون والبطيخ واللوز، وتزوِّدنا بمعلوماتٍ عن البساتين حول بلرمُ، وعن الآلات المستعملة في الري. ويتحدث الجغرافي العربي الإدريسي ـ ولو أنه يبالغ أحياناً في روايته ـ عن عشرات الأماكن التي كانت تكثر فيها أشجار الفاكهة. وكان شجر الحناء والصمغ يُزرع لأغراض الصباغة. وكانت الغاباتُ الصقليةُ لا تزال تقوم بدوْرٍ اقتصادي مهمٍ كمصدرٍ للحطب وأخشاب البناء، واستعمل البابا انوسانت الثاني الخشبَ الصقليَّ لإصلاح سقف كنيسة القديس جون لاتيران John Lateran، كما أن خشبَ صقلية كان لا غنىً عنه للأسطول الملكي.

ولعلَّه لم يكن لملك آخر في أوروبا ما كان لرجار من إيراد كبير، وذاع بين الناس أن دخله من مدينة بلرمُ كان يزيد على ما يحصل عليه أبناءُ عمومته النورمان من انجلترا بأسرها. وكانت السلطةُ الملكيةُ عادة قويةً بحيث ضمنت دفعَ الضرائب، ولعلَّ بعضَ وسائله في فرض الضرائب كان يتعذَّر تطبيقُها في مكان آخر. وكان ثمة إيراد لا يُستهان به من الحمَّامات العامة العديدة التي أخذها النورمان عن العرب، وكانت غير معروفة في أوروبا الإقطاعية. وزاول الملكُ أعمالَ التجارة لحسابه الخاص. كما أن إيراده من الزراعة لا بد وأنه كان كبيراً، وحيث إن الحكومة المحلية لم تؤلْ بعد إلى الارستقراطية الإقطاعية، فإن رجار احتفظ بأرباح المحاكم. ولما كان باستطاعته الإصرارُ على احترام القوانين، فإن المواطنين العاديين لم ينزعوا ـ كما حدث فيما بعد ـ إلى أخذ حقوقهم بالقوة. واستفادت التجارة من ذلك، كما استفادت من انتشار السلام النسبي في هذه الفترة. أما في جنوب ايطاليا، وفي أثناء

مكتبة شاملة http://www.way2sunnah.net/books الطريق الى السنّة

صراع رجار مع البابا وضد الثورات في بولية، فإن قرىً تعرَّضتْ للحرق من طرف الجانبين، كما أُحرقت المحاصيل، ودُمِّرت كروم العنب والزيتون، إلا أن الزائرين الأجانب لاحظوا أن أميراً لم يكن لديه مثلُ جزيرة صقلية من حيث استتبابُ السلام والازدهار حتى قيل «إن الأمن كان يسود غاباتِ الملك كما يسود في بلاد أخرى في المدن الآهلة بالسكان».

وفي العِقدِ السادس من القرن الثاني عشر للميلاد، قال الإدريسي عن بلرمُ ـ بشيءٍ من المبالغة ـ إنها «المدينة السَنِيَّة العظمى، والمحلةُ البهيةُ الكبرى، والمِنبرُ الأعظمُ الأعلى على بلاد الدنيا، وإليها في المفاخر النهاية القصوى... والمياهُ بجميع جهات المدينة مخترقة، وعيونُها جارية متدفقة، وفواكهها كثيرة، ومبانيها ومتنزَّهاتها حسنة، تُعجز الواصفين وتبهر عقولَ العارفين، وهي بالجملة فتنة للناظرين». لقد كانت مدينة بلرم مدينةً غنيَّةً تعجُّ بالحركة، وكانت أغنى وأكبر بكثير من رومة التي كان النورمان قبل ذلك بسنوات قليلة قد دمَّروا معظمَها بالنيران. وفي الطرف الآخر من الجزيرة، تحوَّلت مسينة من قرية صغيرة ـ بفضل توطيد الملك للسلام ـ إلى مركز مهم للتجارة. وكان لمسينة ميناء يُعَدُّ من أكبر وأعمق الموانىء في البحر المتوسط وأسهلِها حماية، وكانت المنطقةُ المجاورةُ للمدينة غنيةً بالأخشاب اللازمة لإصلاح السفن. وكان مضيق مسينة الضيِّق يقع على الطريق الرئيسي بين غرب أوروبا والشرق، وبعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس في سنة 1099م، ازدهرتْ مدينة مسينة كنقطة تجمعٍ وقاعدة تموينٍ لتزويد الصليبيين بالمواد الغذائية والخيول. وكانت مسينة ـ بالنسبة للسفن الفرنسية والإسبانية على وجه الخصوص ـ محطةً في منتصف الطريق إلى المشرق. وكانت تقيم في المدينة جالية يهودية كبيرة، كما أن عدداً من مدن ايطاليا الشمالية أخذت تقيم مكاتبَ وأرصفةً لها في المدينة.

إن صقلية رجار وخلفيْه كانت قبل كل شيء ملتقى كبيراً للثقافات.

فالملابس البيزنطية الصنع كانت تُطرَّز بالحروف العربية ويرتديها الحكام النورمان القادمون من انجلترا. وكانت المباني اللاتينية ذات النمط الباسيليكي تعلوها قباب يونانية، وتكسو جدرانَها الداخليةَ الفسيفساءُ الرائعة، بينما قام العمال العرب بتصميم زخارف الكنائس بصور ذات مدلولات خفية غامضة، مستمدةٍ من الأساطير الفارسية. وكانت المصنَّفاتُ ما تزال تُكتب في بلرمُ باللغتين اليونانية والعربية. وأما اللغتان الفرنسية واللاتينية فكانتا تُستعملان في البلاط، وكانت العاداتُ الإقطاعيةُ الغربيةُ هي السائدة بين طبقة البارونات. وأما الفنون والعلوم ـ مَثلُها مَثلُ المراسم في البلاط والأساليب الإدارية ـ فيبدو أنها كانت جزءاً من عالَمٍ مختلفٍ بالمرة، كما يبدو أن رجار كان يؤْثر حديثَ المسلمين المتعلمين على حديث الرهبان النصارى. ولا شك في أنه لم يُدخل ما يُذكر على الفنون والعلوم الصقلية، باستثناء التسامح، والابتهاج بالتقاليد الأخرى، وباستثناء الرعاية المميِّزة، إذ إن الحضارةَ النورمانيةَ لم تتميَّز بأصالتها بشكل خاص، وحتى قبل الفتح النورماني للجزيرة، كانت المباني المسيحيةُ تَستعمل أحياناً الأشكالَ الإسلامية. ولكنها كانت تحتاج إلى ملكٍ غير عادي تماماً لديه الذوقُ والمالُ لأعمال الفن على هذا النطاق.

ولما نزحت الطبقاتُ العربيةُ المثقفةُ وأصبح اليونان أقليةً تدريجياًبمضيِّ الزمن، اتضح أن هذه التقاليدَ الثقافيةَ كانت قد امتزجتْ، إلا أنها لم تكنْ قد اندمجتْ وانصهرتْ تماماً قط. والحق أنها كانت تعتمدإلى حد ماعلى أناس لم يكونوا ممَّن وُلدوا في الجزيرة. وما إن حلَّ منتصف القرن الثاني عشر للميلاد حتى ظهرت بوادرُ تشير إلى أن التسامحَ الدينيَّ الذي سَمح بهذا التمازج بين الأساليب كان آخذاً في التلاشي. إن الفنَّ النورمانيَّ ـ العربيَّ كان خَلْقاً غيرَ طبيعي من جانب نظام استبدادي متنور، ولم يكن تداخلاً متبادلاً حقيقياً قابلاً للبقاء من تلقاءِ نفسه. إن الشعراءَ العربَ لم يتأثروا باللاتينية بل ظلُّوا يطرقون الموضوعاتِ التقليديةَ التي جُلبتْ من إفريقية

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

والأندلس. كذلك فإن العلماءَ البيزنطيين استعملوا قوالبَ وموضوعاتٍ جُلبتْ دون تبديلٍ من القسطنطينية. والافتقار إلى أي جَمْعٍ وتوليفٍ حقيقي بين هذه العناصر المختلفة جعل تلك الثقافةَ عُرضةً للسقوط، وشيئاً عابراً، ولذلك فإن تأثيرَ فرنسا وروما سيطر تدريجياً في الفن كما سيطر في الديانة واللغة. وأدخل رجار إلى الجزيرة الجماعاتِ الديْريةَ من الرهبان البنديكتيين والأُغسطينيين والداويَّة Templars والاسبتارية Hospitallers، ودخلت إلى الجزيرة معهم أفكارٌ معماريةٌ من وراء جبال الألب. وكان البارونات ورجالُ الدين من شمال أوروبا معتادين على بناء قلاع إقطاعية رمزاً وضماناً لسلطتهم، وسُرعان ما أخذ أساقفةُ جرجنت في استعمال الحجارة لهذا الغرض بانتزاعها من المعابد اليونانية القديمة. وبذلك أصبح الإقطاعُ مهيمناً في المعمار هيمنتَه في السياسة والعلاقة الاجتماعية.

إلا أن الفنَّ والمعمارَ النورمانيَّ ـ العربيَّ بقي بالفعل ظاهرةً ثقافيةً حيَّةً طوال معظم القرن الثاني عشر للميلاد. ويتبيَّن من أشغال الخشب والفسيفساء والنقود والملابس والنحت والكتابة كيف أن مزجاً متبايناً للأساليب يمكن أن يصبح أسلوباً قائماً بذاته تقريباً. إن الفسيفساءَ البيزنطيةَ في شرق أوروبا دُمِّر معظمُها أثناءَ الغزوات التركية التالية، ولذلك فإن ما تبقَّى منها في صقلية يُعدُّ من أجمل الأمثلة على الفن البيزنطي في القرن الثاني عشر للميلاد. إن كنيسةَ القديس يوحنا شفيعِ النُسَّاك St. John of the Hermits ـ التي شيَّدها رجار في العِقدِ الرابع من القرن الثاني عشر للميلاد ـ تكاد تبدو بقبابها الحمراء الخمس مسجداً بقدر ما هي كنيسة، ولعلَّه تمشياً مع هذه الخلفية الخاصة بمحاولة الجمع والتوفيق، فإن كلمة «نُسَّاك» «hermits» قد تكون تحريفاً لاسم الإله هيرميس Hermes ابن زيوس Zeus، وهو إله العلوم والكيمياء القديمة اليونانية. وتعود إلى نفس الفترة الكنيسةُ التي عُرفتْ فيما بعد باسم مارتورانا Martorana التي بناها الأمير جورج الأنطاكي لتكون ديراً للراهبات

اليونانيات، وأوقف عليها مكتبةً قيِّمة. وهي مبنيَّـة على شكل صليب يـوناني، وقد نُقشت حول أسفل القبة ـ بحروف عربية ـ عباراتُ ترنيمةٍ مسيحيةٍ يونانية، وهذا يعني أنه إما أن ذلك كان مجرد أسلوبٍ في الزخرفـة، وإما أن النصـارى لا بد وأنهم كانوا يعرفون العربية.

إن الكاتدرائية العظمى في مدينة جفلوذي (شفلودي) Cefalu بناها رجـار لتكون كنيسةً أغسطينيةً ملحقةً بالأسقفيـة اللاتينيـة الجديـدة التي أنشأهـا أثناءَ نزاعه مع البابا إنوسانت، وقد دشَّنها صديقُه البابـا المنافسُ لبـابا رومـة، وكان رجالها من الفرنسيين. وبخلاف كثيرٍ من الكنائس الأخرى في صقلية، كـانت هذه كنيسةً مبنيَّةً على الطراز المعماري الرومانسكي Romanesque ولها جناح كما جرت العادة في الغرب اللاتيني. ويُظهر البُرجان على جانبيْ واجهة البناء تأثيرَ الطراز المعماري الشمالي أو ـ على الأقل ـ طراز بولية المعماري.

إلا أن أعـظمَ أثرٍ معمـاريٍ خلَّفه رجـار الكنيسـةُ الملَكيـةُ في بلرم. وقـد شُيِّدت هذه أيضاً في العِقدِ الرابع من القـرن الثاني عشـر للميلاد، كمـا ينصُّ على ذلك نقشٌ على ساعة مائية وُضعتْ في جدار الكنيسة. ولصحن الكنيسة الغربي أقواسٌ مدبَّبة عربية، وقبةٌ بيزنطية، في حين أن داخـلَ الكنيسة مكسـوٌّ بـالفسيفساء والـرخام الملوَّن. إن الفسيفسـاءَ قد رُمِّمتْ إلى حـد كبير أو حتى استُبدلتْ، إذ إن الملوك الذين حكَموا فيما بعد كانوا يفضِّلون الجدرانَ البراقةَ على الغشاء الأخضر (الزنجار) الـذي يخلِّفه تقـادمُ العهد عـادةً على السطح. وهذه الكنيسة ـ بخلاف كثير غيرها من الآثار الباقية ـ كانت دائمـاً تتعهدهـا يدُ الإصـلاح لتبقى في حالـة جيدة، وقـد سلمتْ مع أن القصـر كثيراً مـا تعرَّض لأعمال النهب. ولا بد أن الفسيفـاءَ من تصميم صُنَّاعٍ يـونان، وقـد استعملوا فيها الصورَ اليونانيةَ فضلاً عن اللاتينية. ويَظهرُ مقابل القديس بطرس ـ أُسقفِ رومـة ـ أسقفُ بيت المقـدس القـديس يعقـوب، وقـد رأى البعضُ في ذلـك إيضاحاً بـالصورة لمقـولة دوكسوباتريـوس بأن البـابا لم يكُنْ أعلى مقـاماً من

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

البطارقة الشرقيين. ومن بين النقوش على خشب السقف الشبيه شكلاً بقرص العسل رسومُ الجن المجنَّح، والحوريات المحجَّبات، ولاعبو الشطرنج وعلى رؤوسهم العمائم، وسيداتٌ يمتطين الفِيلَةَ، ومحاربون على ظهور الإبل - وبعضُها يرجع في تأثيره إلى الأساطير الهندية والفارسية. ولعلَّ رجالَ الدين لم يلاحظوا أبداً هذا السقف - بعد أن امَّحى طلاءُ الذهب عنه - في الضوء الخافت، ولذلك فإنه بقي على حاله.

كان بلاطُ رجار كذلك مركزاً للعلوم. وكان للملك اهتمامٌ خاصٌ بعلميْ الفلك والتنجيم؛ وساعتُه المائيةُ من صُنعٍ عربي. ويذكر راهبٌ انجليزيٌ زار البلاطَ النورمانيَّ أن الملكَ استخدم غوَّاصاً لدراسة مضيق مسينة وتياراته الغادرة، التي كانت قد نشأتْ عنها أسطورة سكيلاَّ Scylla وتشاريبديس Charybdis[2]. وقد بذل رجار الثاني جهداً كبيراً لتنظيم تدريس الطب، وأجبر الأطباءَ على اجتياز امتحانٍ يُعِدُّه الخبراءُ بحضور أحد موظفي الملك. وفي أثناء حكم رجار وابنه وليام تُرجمت إلى اللاتينية مؤلفاتُ أفلاطون وإقليدس وبطليموس، وكان من الممكن لهذه الأعمال أن تكونَ ذات تأثير كبير على الحياة الفكرية الغربية لو قُدِّر لها الانتشارُ في أوروبا. وفي بلاط رجار، تُرجم لأول مرة كتاب المجسطي Almagest لبطليموس. أما كتاب الإدريسي في الجغرافيا [كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق] فكان أهمَّ ما صدر في الآداب العربية الصقلية. ولا شك في أن ثمة شيئاً من التزلف فيما ذكره الادريسي من أن الملك - وعلى مدى خمسَ عشرةَ سنة - ساهمَ في تفاصيل إعدادِ الكتاب، إلا أن اهتمامَه البالغَ أمرٌ لا يمكن إنكاره. وقد استفيد من

---

(2) كانت سكيلاَّ Scylla في الأساطير اليونانية حوريةً استحالتْ إلى وحش بحر كان يُعتقد أنه يُغرق البحارةَ الذين يعبرون مضيقَ مسينة. وكان اسمها يقترن بصخرة قرب الساحل الإيطالي. أما تشاريبدس Charybdis فكان في الأساطير الكلاسيكية وحشاً يبتلع السفن، ويقترن اسمه بدوَّامة قرب ساحل صقلية الشمالي مقابل موقع سكيلاَّ على الساحل الايطالي. (المترجم).

خبرات المسافرين كلَّما أمكن ذلك، واستُدعي الخبراءُ من أماكنَ قاصيةٍ لتقديم معلوماتهم. وقد اشتهر هذا الكتاب الرجاري في افريقية الاسلامية، مع أنه كان لا يُعرف عنه إلا القليلُ في أوروبا.

وفي مجال الآداب والمعارف، لم يصدُرْ عن العرب في صقلية إنتاج كهذا الانتاج. وكانت هنالك كتابات في العلوم والطب والفقه والدراسات القرآنية، وتشتمل قائمةٌ مؤرخة في حوالى سنة 1150م على أسماء أكثرِ من مائة شاعر من أُسرٍ عربيةٍ صقلية، مع أن الكثيرين منهم كانوا قد نزحوا عن الجزيرة[3]. وقد وُلد أشهرُ هؤلاء الشعراء ابنُ حَمْديس في حدود سنة 1056م في سرقوسة من أسرةٍ نبيلةٍ، وعاش فيما بعد في الأندلس وشمال افريقيا. وقصائده مفعمة بالحنين إلى «جنة المباهج»، وإلى خمور صقلية ورياضها اليانعة، كما أنها تعكس كذلك كراهيتَه للبرابرة [النورمان] الذين غَزَوْا الجزيرةَ وحلُّوا محلَّ بني قومه فيها.

ولم يَبْقَ إلا النزرُ اليسيرُ من هذا الشعر. كما أننا لا نعرف الشيءَ الكثيرَ عن الشعراء المغنِّين الفرنسيين الذين وفدوا على بلاط رجار يُنشدون الحكاياتِ عن رولاند وغيره من كبار الفرسان أصحاب شارلمان، واتُّخذت صقلية في بعض الحالات مسرحاً لأحداث هذه الأساطير. وكان جيرفيس من مدينة تيلبري بانجلترا Gervase of Tilbury يرى أن الملكَ آرثر Arthur[4] لم يمُتْ بل كان يستجمُّ من جراحه على سفوح جبل إتنة [جبل النار]، وأن صبياً يعمل في اسطبل أُسقفِ قطانية عَثَر ذاتَ يوم على مخبئه السري. وقد اختفت

---

(3) المقصود بذلك كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهاني الكاتب (ت 597هـ/ 1200م) الذي خصَّ شعراء صقلية في الجزء الثاني من القسم الرابع من الكتاب بباب عن محاسن فضلاء جزيرة صقلية. (المترجم).

(4) قاد هذا الملك الأسطوري للبريطانيين في القرن السادس الميلادي مقاومةَ السكان الكيلت ضد المغيرين من قبائل السكسون، ولعلَّ اسطورته كانت تقوم على أساس شخصية تاريخية حقيقة. وكان آرثر زعيم الفرسان في مؤتمر المائدة المستديرة بمدينة كاميلوت التي كان يوجد فيها قصره وبلاطه. (المترجم).

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

هذه الحكاياتُ فيما بعد، مع أن اسم مورجان لي فايMorgan le Fay خلَّدتْه عبارةُ (قَدَرِ مورجان Fata Morgana) التي تعني سراباً خادعاً في مضيق مسينة. إلا أن كبار الفرسان لا يزالون ـ بعد ثمانية قرون ـ أبطالاً معروفين في الأساطير الشعبية الصقلية. ولم تَبْق اللغةُ الفرنسية ـ النورمانية لغةَ تخاطبٍ أو كتابةٍ بالدرجة التي بقيت فيها في انجلترا اللغةُ النورمانيةُ المعاصرةُ لها، إلا أنه لا شك في أن الشعرَ الفرنسيَّ والعربيَّ معاً كانا حافزيْن للأدب الصقلي الجديد والمثير باللسان الدارج، وهو الأدب الذي أخذ في الظهور في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد.

د ـ تفسُّخ مملكة صقلية النورمانيّة

إن المحكَّ لنجاح رجار جاء في عهد ابنه وليام الأول (حَكَم 1154-1166م) الذي ورث العرش لموت إخوته الثلاثة الأكبر منه. وليس من السهل معرفةُ أسباب العداء الشديد الذي أبداه نحو وليام المؤرخُ المعاصرُ له فالكاندس Falcandus. ومع أن وليام كان محارباً شجاعاً، إلا أنه كان يفتقر إلى ما كان يتميَّز به الملوكُ النورمان الآخرون من قوة في الشخصية وانكبابٍ على العمل. وفي حين أن رجار كان يوقِّع على كافة القوانين تقريباً الصادرةِ عن الديوان الملكي، فإن ابنَه كان جندياً أكثرَ منه سياسياً، وكان يميل إلى إرجاء اتخاذ القرارات، وإلى الحكم عن طريق الوزراء، منصرفاً إلى المباهج الشرقية بقصور أُنسه في ظاهر بلرمُ. وقد احتفظ ـ حتى أكثر من أبيه ـ بحاشيةٍ من المسلمين. وانتشرتْ حكاياتٌ عن حظاياه، وعن بذخ ولائمه، وانغماسه المفرط في الملذات، مع أن كثيراً من هذا النقد قد يكون مبعثه الحقد أو الحسد. ولما كان المؤرخ فالكاندس ومعظم البارونات معادين له، فإنه عُرف دائماً باسم وليام السيِّيء The Bad.

وقد جاء ارتقاؤه العرش في فترة عصيبة. ففي السنوات الأخيرة من حكم رجار، حدث بعض الاضطراب الذي دلَّ على نموٍّ معارضةٍ اقطاعيةٍ وتوترٍ عِرْقيٍ معاً. إن قائد الأسطول فليب الخصيّ [المهدوي] كان قد أُحرق بتهمة الخيانة. ولعلَّ ذلك مثَّل نجاحاً تكتيكياً لعنصرٍ لاتيني يصبو إلى السلطة في الإدارة. وقد ظلَّت صقلية تنعم بالرخاء، إلا أن الامبراطوريْن الغربيَّ والشرقيَّ والبابويةَ كانوا كلّهم على استعداد لاستغلال معارضة البارونات في الداخل،

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

في الوقت الذي كان فيه موطئُ القدم الصقلي في شمال افريقيا آخذاً في الانهيار أمام تقدم الموحدين من جبال المغرب الأقصى. ففي سنة 1156م، هُزم النورمان في صفاقس، ثم سقطتْ في أيدي الموحدين طرابلس الغرب فالمهدية في سنة 1160م. ولم تُمكِّن مواردُ جزيرةٍ صغيرة كصقلية من الوقوف ـ في آن واحد ـ أمام تحدٍ قوي من شمال افريقيا، وخيانةٍ في الجزيرة، وحرب مع البابا والبيزنطيين. ومع ذلك، فإن الهزيمةَ على أيدي الموحدين أضرَّت بصلةٍ اقتصاديةٍ قوية، ومكّنتْ قوةً بحريةً أخرى من تهديد الملاحة قرب سواحل صقلية.

عقد وليام في سنة 1156م اتفاقاً في بنفنت Benvento مع البابا الانجليزي أدريان الرابع، وبذلك تخلَّص من أحد أعدائه المحتَملين. ومع أن وليام كان دون أبيه أو ابنه نشاطاً في تشييد الكنائس، ومع أنه كان متسامحاً مع المسلمين، فإنه اعترف في الاتفاق المذكور ـ بحكم الواقع ـ بالقوة النامية لبابويةٍ تمَّ إصلاحُها. فقد وافق على أن يتمَّ انتخابُ الأساقفة على أيدي رجال الدين، ولم يحتفظ لنفسه إلا بحق النقض (الفيتو). وأكد أدريان من جانبه شَغْلَ وليام لمنصب القاصد الرسولي بالنسبة لجزيرة صقلية فقط، وتخلَّى عن أي حقٍ في إيفاد قاصدين رسوليين آخرين، أو النظر في أية شكاوى يقع استئنافُها من جانب أساقفة صقلية، واعترف الملك في مقابل ذلك بالبابا رئيساً اقطاعياً له بالنسبة لأراضيه في جنوب ايطاليا.

أما البارونات، فإنهم كانوا يكوِّنون مشكلةً أكثرَ صعوبة، إذ كانوا أقوياءَ اقتصادياً واجتماعياً، وكانوا يتطلَّعون إلى الظفر بسلطة سياسية. فقد شَكَوْا بأن القانونَ والإدارةَ في عهد رجار كانا في أيدي محترفين من أصل وضيع، وكذلك الحال بالنسبة للجيش والأسطول، مثلما غاظهم أن رجار كان يقابل المعارضةَ بالتغريب ومصادرة الممتلكات. وحيث إن وراثةَ النساء كان مسموحاً بها، فإنه كان قد حمى مصالحه الإقطاعيةَ بإصراره على أنه لا يتمَّ

زواجُ أخواتِ أو بناتِ تابعيه الإقطاعيين دون موافقته، وأخذ بعض النبلاء يَشْكُون من أن الحقوق الملكية بالنسبة للوصاية على القُصَّر والزواج كانت تُستعمل أحياناً لحمل أبنائهم على العزوف عن الزواج أو ـ بحكم أن الزواج كان يجيء متأخراً ـ إلى انقطاع الأمل في قدوم وارث، مما جعل ممتلكاتهم تؤول إلى التاج. كما أن رجار كان قد حظر بناءَ القلاع دون الحصول على موافقته، ولم يُؤدِّ ذلك إلى جعل العصيان صعباً فحسب، بل إنه قوَّضَ السلطةَ التي كانت للبارونات على مستأجري أراضيهم.

وكان كثير من هؤلاء البارونات رجالاً عنيفين وطموحين. فقد كانوا ـ كما كان أمراء بيت هوتيفيل في الأصل ـ قُطَّاعَ طرق بحكم نشأتهم ومزاجهم، وبخاصة أولئك البارونات الذين كانت لهم أراضٍ في جنوب ايطاليا، فقد كانوا يَمْقتُون سلطةَ الحكومة القائمة في بلرم. وبعد سنة 1154م، انتهز البارونات الأكثرُ طموحاً من بينهم وجودَ ملكٍ أقلَّ شعبيةً وكفاءةً لإحداث تبديل في توازن القوة في الداخل. كما أنهم حرَّضوا على قيام حركة من التعصب العرقي ضد المسلمين، ومن الواضح أنها لم تكُنْ حركةً دينيةً لأنه يبدو أن الأساقفةَ وقفوا إلى جانب الملك وموظفيه المسلمين. كذلك فإن بعضَ المدن ـ التي حَسِبتْ أنها تضرَّرتْ نتيجةً لحكم رجار المركزي والقائم على نمط حكم الأب لأفراد أسرته ـ كانت على استعدادٍ للاستفادة من أي ضعف حكومي، والمطالبة بدساتيرَ وحرياتٍ مدنية.

كان كبيرُ وزراء وليام ـ وقد ورثه عن أبيه ـ مايو Maio من مدينة باره Bari ـ وهو من موظفي القصر المحترفين ـ مما كان سبباً في سخط الأرستقراطية الإقطاعية. إن المصدرَ الرئيسيَّ لمعلوماتنا عن مايو النقدُ المغرض من جانب أعدائه، ومع ذلك فلعلَّه كان من الشخصيات العظيمة في صقلية النورمانية. وقد نعته البارونات بأنه ابنٌ حديثُ النعمةِ لتاجرِ زيت، وأنه كان يتطلَّع إلى اغتصاب العرش، وأنه كان يُغوي الشابات بل وزوجةَ الملك، في حين أنه

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

كـان يبدو سيـاسياً مثقفـاً وحصيفاً، وكـان راعياً للشعـر والفنـون، وكـان يؤمن بأفكار رجار الخاصة بالمَلكية القوية، ويرى أن ادعاءاتِ الطبقة الارستقراطيـة كانت تساعد بالفعل على تقويض مركز صقلية في حوض البحر المتوسط وفي شمال افريقيا. ولما كان مايـو أميراً لـلأمراء، فقـد وقعتْ على عاتقـه مسؤوليةُ الاستمرار في استخدام الخبراء الماليين العرب، ورفض إنقاصَ سلطة موظفي الحكومة المركزية.

قـام البارونـات في سنة 1155م بثـورة على هذا الـرجل، صحبتْهـا أعمـالُ شَغبٍ في بلرمُ ـ لعلَّهـا كانت بتحـريضٍ منهم ـ إلا أن الملك أخمدهـا ونكَّل بالقائمين بهـا ليكونَ في ذلـك عبرة. واستمـرت المعارضـةُ الارستقراطيـةُ في قلورية وفي المستوطنات اللمباردية في صقلية، وبعـد ذلك بخمس سنـوات، نظَّم أحد البارونات ـ مـاثيو بـونيلُّس Matthew Bonellus ـ ثورةً أكثـرَ نجاحـاً طُعن فيهـا مايـو وقطعت جثتـه إرباً إرباً على أيـدي الغـوغـاء ببلرم. ومـا إن اكتشف القاتل وأشياعه عجزَ الملك عن الثأر لمـا حدث، حتى مَضَـوا فقبضوا على الملك وليـام نفسه، ونصبـوا ابنَه الصغيـرَ ملكاً. ونُهب القصـر، وفُتحت السجون، ونُهبت الخِزانة، وأُلقي بالمال بين أيدي العامة. كما أُحرقت بعضُ السجـلات التي كـانت تشتمـل على التفـاصيـل الخـاصـة بـأسمـاء ممتلكي الإقطاعات، وبالخدمات المنصوص على وجوب أدائها في مقابلها. ولا بد أن وثائقَ ثمينةً أخرى تشهد بعظمة صقلية النورمانية قـد دُمِّرت آنـذاك. إن هدفـاً رئيسياً واحداً للثائرين دلَّ عليه نهبُ متاجـر المسلمين، في حين ذُبح كثيـرون من فتيان القصر، وتقاسمت الأيدي نساءَ الحريم. لقد تأذَّى من هـذه الأعمال المـوظفـون وجبـاةُ الضـرائب والتجـار، وحـدث اغتصـاب عـام للأراضـي من أصحابها العرب. ويبدو أن المستوطنين اللمبارد ـ على وجـه الخصوص ـ هم الذين انتهزوا هذه الفرصةَ للقضاء على المستوطنات الإسـلامية في الأريـاف، وبـذلـك تمَّ تفـريـغُ شـطرٍ كبيـرٍ من شـرق صقليـة من العـرب وغيـرهم من

المستوطنين في شمال افريقيا. ولم يرحم الثائرون ضحاياهم على أساس السن أو الجنس. ولعلّه، على أثر هذه الأحداث، نزح عن صقلية الإدريسي ومعظمُ من كان في الجزيرة من المثقفين العرب.

ولم تلبث أن تفرَّقت كلمةُ الثائرين، ويبدو أن وليام الأول لقي تأييداً شعبياً قوياً. ولم يلبث وليام ـ بمساعدة الأساقفة والجند المسلمين وبعض عناصر السكان في بلرمُ ـ أن اقتصَّ من الثائرين ونكَّل بهم. فنُهبت ودُمِّرت بثيرة Butera وبيازة Piazza وغيرهما من المستوطنات اللمباردية. أما بونيلُّس فقد فُقئت عيناه وعُوقب، وصودرت أمواله وقلعته. وأعيد الفتيان إلى الحكم، وثأر المسلمون من أولئك الذين سطَوْا على أموالهم، إذ إن الكراهياتِ العرقيةَ والطبقيةَ قضت الآن على التوازن المتسامح الذي ساد في عهد رجار.

ولما توفي وليام الأول في سنة 1166م، قال أحدُ المراقبين المتحزبين إنه لم تَندُبْه وتبكي عليه سوى النساء المسلمات. وفي السنوات الأخيرة من حكمه، استُبعدتْ الأُسر الإقطاعيةُ الكبيرة مرةً أخرى من السلطة السياسية، وبُذلتْ محاولة لإعادة العمل بالسجلات الإقطاعية والضريبيَّة في الديوان، والتي كانت تشكِّل عنصراً أساسياً لسلطة الملك وثروته. وتوقف عن العمل القسمُ اليونانيُّ بالديوان الملكي. وسيطر المسلمون على الخِزانة، ومع ذلك فإن بادرةً تنذر بالسوء تمثَّلت في حظر حمل السلاح على غير النصارى. كان البارونات قد قتلوا آخرَ وزيرٍ عظيم في صقلية النورمانية، إلا أن الطبقةَ الإداريةَ من المكتبيِّين كانت ما تزال تشتمل على كثيرين آخرين من جنوب ايطاليا، فضلاً عن أفراد يونان وفرنسيين وإنجليز. وظلَّت الصلةُ وثيقةً بين انجلترا النورمانية وصقلية النورمانية. فشقيق ملك انجلترا وليام الفاتح ـ أودو من بايو Odo of Bayeux ـ دُفن في كاتدرائية بلرمُ، وكان توماس براون ـ الذي التحق فيما بعد بالخزانة الإنجليزية ـ لسنوات عديدة شخصيةً مألوفةً في بلرم، وكذلك جون من لنكولن، ورتشارد من هيرفورد، وهربرت من

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

مـدلسكس؛ أما رتشـارد بـالمـر ـ صـديق القـديس تـومـاس بيكيت Thomas Becket ـ فقد أصبح أسقفاً لسرقوسة، وشغـل كل من وولتـر الملقَّب بصاحب الطاحونة ـ وولتر أفاميليو Offamilio ـ وأخيه بارثولوميو Bartholomew منصبَ رئيس أسـاقفـة بلرم. إن هؤلاء الـوافـدين الجـدُد عـزَّزوا العنصـرَ الـلاتينيَّ ـ الفـرنسيَّ القائمَ حتى أصبحت معـرفةُ اللغـة الفرنسيـة مؤهلاً أسـاسيـاً للحيـاة العـامة. وبمضيِّ الـوقت، أصبحوا سَنـداً قويـاً للبارونـات من أصل فـرنسي ـ نورماني ضد المكتبيين العلمانيين المحترفين.

إن الأديرةَ اللاتينيةَ كذلك سبقت الأديرةَ اليـونانيـةَ كوسيلة رئيسيـة للثقافـة، بالرغم من أن بعضَ الكتب المهمة كانت ما تزال تُترجم من العربية واليونانية. فالأمير يوجينيوس Eugenius ـ فضلاً عن كونه سياسياً ـ كان عالِماً مـرموقـاً في الفيزياء والرياضيات، وهو الذي ترجم كتابَ البصريـات Optics لبطليمـوس، كمـا أن قائـدَ الأسطول والمستشـار الأكبرَ أريستيبـوس Aristippus قام بـأولى الترجمات لأفلاطون في القـرون الوسـطى، أما الآدابُ فلم تعُـدْ في معظمهـا بالعربيـة أو اليونـانية، فـأريستيبوس كـان لاتينياً، ويكـاد يكون من المؤكـد أن فـالكانـدُس كان كـذلك لاتينيـاً، وهو من أبـرز المؤرخين وأصحاب الأسلوب البارع في الغرب في القرون الوسطى. وبعد أن كانت الحياةُ الفكـريةُ علميـةً في معـظمها في بـلاط رجار، فقـد طغتْ عليها الآن الـدراساتُ الكـلاسيكيـة والإنسانية.

خَلَـف وليام الثاني أباه وهو في الثالثةَ عشرةَ من عمره، وشهد عهدُ وصاية أمه مارجريت النافارية على العـرش توالِيَ أحـزابٍ على السلطة. فقد حكمت بادىء الأمر عن طريق رجل أثير لديهـا هو بـطرس/ بدرو المسلم، وكـان في الأصل عبداً أعتقه زوجُها. وكان الجيش يساند بطرس، إلا أنـه كان عليـه أن يحكُم بتآلفٍ قلقٍ مع الأسقف الإنجليزي بالمر ـ الذي كـان إلى حد مـا يمثِّل صقلية الإقطاعية ـ ومع ماثيو من سالرنه، وهو محامٍ كان قد تدرَّب على يـدَيْ

مايو. واستغلَّ كثير من البارونات حكْم الملكة وعادوا من المنفى لاسترداد ممتلكاتهم، وإعادة بناء قلاعهم. ولم يلبث بطرس أن فرَّ إلى المغرب الأقصى [والتحق بالموحدين قائداً لأسطولهم] لتجنب الصراع الذي كان آخذاً في الازدياد بين الوصية على العرش وبين الارستقراطية المالكة للأرض.

وكما فعلت أديليد في سنة 1101م، اتجهت مارجريت في سنة 1166م إلى الاستعانة بأقاربها. فقد جُلب كثيرٌ من الفرسان من موطنها في اسبانيا، كما جُلب آخرون من فرنسا، واستُحدثت تسعةُ مناصبَ لكونتات جدُد. وقد أصبح ابنُ عمها ـ الشاب ستيفن من لابيرش ـ كبيرَ وزرائها في سنة 1167م، وتولَّى مهمةَ تأديب ابنها وليام بيتر من بْلُوا Blois الذي أصبح فيما بعد رئيسَ شمامسة مدينة باث [بانجلترا]. وكان ستيفن قوياً وكفؤاً، ولذلك فإنه لم يكن محبوباً. ومما أزعج النبلاءَ والموظفين الوطنيين قيامُ ستيفن بفرض الأعراف الإقطاعية الفرنسية ومنحه إقطاعاتٍ ومناصبَ لكثيرٍ من الغرباء. ومما زاد في التقليل من شعبية ستيفن أنه ـ كما يبدو ـ كان لا يرتشي، بل والأسوأ من ذلك أنه سَجَنَ أحدَ كبار موظفي الديوان الذي اشتهر بالفساد والارتشاء، كما أمر بجلد حاكمِ قلعة بلرمُ علَناً لإدارته ـ بصورة غير مشروعة ـ شركةً مربحةً للدعارة. وكتب بيتر من بْلُوا ـ بأسىً ـ إلى أهله في فرنسا عن قسوة أهل صقلية وغدرهم، وعبَّر عن حنينه لعالَمِ انجلترا الأكثرِ هدوءاً، ولهوائها العذب العليل، وللنبيذ الفرنسي والطعام الانجليزي الجيد، في حين أن صقلية أعطتْه الملاريا، ولم يوافقْه طعامُها، كما أن زلازلَها وبراكينَها تدلُّ على أنها اختيرت لتكون معبراً إلى الجحيم. وجاء الدليل على وجهة نظره هذه في سنة 1169م، حينما دمَّر زلزالٌ هائلٌ مدينةَ قطانية، واكتسحت موجةٌ مَدِّيَّةٌ أسوارَ مدينةِ مسِّينة.

ولما راجت شائعةٌ بأن ستيفن كان ينقل الأموالَ إلى فرنسا، كان من السهل إثارةُ أعمال شَغبٍ في مدينة مسينة، صحبتْها أعمالٌ وحشيةٌ شنيعة. وكانت هذه آخرَ ثورة لليونان في شمال شرقي صقلية قبل اندماجهم ببقية السكان،

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

إلا أنه كان في جملة الثائرين مسلمون وكاثوليك، كما انتهز بعضُ النبلاء الإقطاعيين الفرصةَ لتدعيم مراكزهم ضد الحكومة، التي كان يسيطر عليها الوافدون الجُدد من الفرنسيين والإسبان. ولم تلبث هذه الأعمالُ أن استحالت إلى تمردٍ عام. وفرَّ ستيفن إلى بيت المقدس في سنة 1168م ـ كما فرَّ بيتر إلى فرنسا ـ بينما استولى الإنجليزي وولتر أُفاميليو على السلطة، واستغلَّ رعاعَ بلرمُ لحمل كهنَةِ كاتدرائية بلرمُ على انتخابه رئيساً للأساقفة.

بقي وولتر لمدة عشرين عاماً في مركز السلطة مع أخيه بارثولوميو وانجليزي ثالث هو الأسقف بالمر. وكانت هذه الفترةُ فترةَ هدوءٍ نسبيٍ في صقلية. وقد بلغ وليام سنَّ الرشد في سنة 1172م، إلا أنه لم يجرؤ على تحدِّي رئيس الأساقفة علَناً. وعُرف وليام باسم وليام الطيب The Good، وهو لقب نُعت به لأن البارونات والمؤرخين رضُوا عنه، وبسبب هذا الرضا ـ دون أي نقدٍ من جانبهم ـ فإن من الصعب على المرء معرفةَ كُنْهِ شخصيته. وقد اشتهر بالعدل واللين والبعد عن الجشع، كما اشتهر باحترامه لما أصبح معترفاً به على أنه القوانينُ الأساسيةُ للمملكة. وكانت سنواتُ حكمه سنواتِ رخاءٍ إلى حدٍ ما، ومع أن الملك لم يكُنْ ورعاً بشكل ملحوظ، إلا أنه أسرف في تشييد الكنائس. وكان رجالُ الإقطاع راضين بأن ما كان عليهم أداؤه من الضرائب اقتصر على المناسبات الإقطاعية المعترف بها، كمناسبة تولِّيهم إقطاعاتهم مثلاً أو إذا رُزق الملك مولوداً ذكراً أو عند زواج ابنته. ومع ذلك، فقد بذل المزيد من الجهد لتجديد المستندات الإقطاعية المحتفظ بها في ديوان التحقيق dohana de secretis، كما ظهر ديوانٌ أكثرُ تخصصاً وهو dohana baronum، وكان يحتوي على قوائمَ بإقطاعات البارونات والتزاماتهم تجاه الناتج[5]. ولا

(5) احتفظ النورمان بالديوان المالي العربي المسمَّى ديوانَ التحقيق، وأطلقوا عليه باللاتينية الدارجةِ اسم Dohana de secretis. ويَعتبر أماري هذا الديوانَ وغيرَه من الدواوين، كالديوان المسمَّى dohana baronum، تقليداً للنظُم الفاطمية، بينما يرى غيرُه من الباحثين أنها من أصل نورماني بَحْت، وأنها شبيهة بالنظُم المماثلة في إنجلترا النورمانية. (المترجم).

شك في أن ذلك كان إلى حد كبير من عمل المحامي ماثيو. وقد ساعد ذلك الحكومةَ على اكتشاف أي اغتصابٍ للأراضي الملكية أو استحواذٍ - بصورة غير مشروعة - على إقطاعات كان ينبغي أن تؤولَ إلى الملك. إن هذه السجلات قبل كل شيء - والتقاليدَ المكتبيةَ التي مكَّنتْ منها - أبقتْ على صقلية النورمانية مملكةً غنيةً وقوية.

وقد عاش وليام الثاني حياةَ ملكٍ شرقي. فقد لاحظ زائروه أنه كان راعياً للشعراء العرب، وأن جوارِيَه كنَّ من المسلمات، وانه كان يحتفظ بحرَسٍ من [العبيد] السودان. وفي أثناء فترة حكمه تناقص عددُ المسلمين في الحكومة، إلا أنهم كانوا ما يزالون يسيطرون على الإدارة المالية. وفي وقت كان فيه التعصبُ آخذاً في الازدياد في العالم المسيحي الغربي [بسبب الحروب الصليبية]، كانت المساجدُ ما زالت قائمةً في بلرم. وبالرغم من حوادث الشغب العنصرية التي وقعت هناك في أوائل العِقدِ السابع من القرن الثاني عشر للميلا، فإن الكثيرين من المسلمين كانوا لا يزالون يسكنون في المدينة، وكان لهم قضاتُهم ومَحاضرهُم. بل إن النصرانياتِ في بلرم حاكَيْنَ النساءَ العربياتِ في زِيِّهنَّ وتحجُّبِهنَّ[6](وبعد ذلك بستة قرون لاحظ الزائرون وجودَ هذه الظاهرة)، ولم يستنكف الملكُ نفسُه من ارتداء الملابس العربية. ويبدو أنه لم يكترثْ كثيراً بشؤون الدين، فالرحالةُ العربيُّ الأندلسيُّ ابنُ جبير سمع أنه أثناء حدوث زلزال كبير، طلب وليام من كل من في قصره الصلاةَ لمعبوده[7]. ومع أن أعمال الشغب التي حدثت في سنة 1161م بيَّنت

(6) يقول ابن جبير في رحلته «وزيُّ النصرانيات في هذه المدينة [بلرم] زي نساء المسلمين: فصيحات الألسن، ملتحفات، منتقبات... وبرزن لكنائسهن... حاملاتٍ جميعَ زينة نساء المسلمين من التحلِّي والتخضُّب والتعطر». (المترجم).

(7) حدث هذا الزلزال عام 69!!م. يقول ابن جبير في رحلته «وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك [صاحب صقلية الملك وليام الثاني]. فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم. ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به، تسكيناً لهم». (المترجم).

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

أنه لم يعُدْ في استطاعة معظم المسلمين الشعورُ بالطمأنينة والأمان، ومع أن الكثيرين منهم كانوا ينزحون عن البلاد، فلعلَّ معظمَ سكان جرجنت وسرقوسة وقطانية (إلى وقت حدوث الزلزال) كانوا ما يزالون من غير النصارى، وكان من عادة رؤساء الأديرة النصارى أن يطلبوا من عبيد أرضهم أن يحلفوا بالقرآن الكريم.

ومع ذلك، فإن تنصيرَ أهالي البلاد كان يسيرُ قُدماً، وكان رهبانُ دير كلوني ورهبان القديس بنديكت يكدِّسون الأوقافَ الكثيرةَ لهذا الغرض. إن أعظمَ أعمال الرعاية للكنيسة التي قام بها وليام كان تشييدُه دَيْر مونريال Monreale البنديكتي الضخم. ولعلَّ الملكَ كان يستهدف من ذلك ايجادَ مؤسسة منافسة لرئاسة أُسقفية بلرمُ التي كان يشغلها وولتر، إذ إن رئيسَ دير مونريالِ عُيِّن رئيساً ثانياً لأساقفة صقلية، مع أن دائرة أُسقفيته كانت لا تبعد أكثرَ من خمسة أميال عن بلرم. وكان على وولتر أن يسمح بإنقاص أُسقفيته، وبالتنازل عن مصادرَ كثيرةٍ للإيرادات لتكون وقفاً على دير أراد الملكُ اتخاذَه تربةً ضخمةً للأُسرة المالكة. لذلك فقد عانتْ مواردُ المملكة من هذه الأعباء. وأصبح رئيسُ دير مونريال أكبرَ مالك للأرض بعد الملك نفسه، وأُعفي هو وكنيستُه من دفع الضرائب، وأُغدقت عليه القلاعُ والقرى، بل ووُهبَ مدينةٌ بكاملها في مقاطعة بولية النائية. وكانت أراضيه تشتملُ على مطاحنَ للغلال، وعلى مصنعٍ للسكر من قصب السكر. وكان يمتلك مصائدَ خاصةً لصيد سمك التونة، كما مُنح حقَّ الصيد بخمسة قوارب في ميناء بلرم. وكان للرهبان وخدمِهم الحقُّ بالمطالبة باستضافتهم دون مقابل في سائر أنحاء المملكة، والحقُّ كذلك بالإعفاء من دفع رسوم عبور مضيق مسينة، وكانت لهم حريةُ رعي مواشيهم ومواشي مستأجري أراضيهم أثناءَ انتقال القطعان بين مراعيها الصيفية ومراعيها الشتوية. وأخيراً، فإن رئيسَ دير مونريال عُيِّن القاضيَ الوحيدَ في أراضي الدَيْر الواسعة، ومُنح سلطاتِ الحكم في القضايا الجنائية والمدنية.

وفي مباني دير مونريال، تلاقت أساليبُ المعمار الشرقي والغربي. فصحنُ الكنيسة كان في أساسه لاتينياً، والرواقُ المعمَّدُ كان يناسب العاداتِ الديريةَ السائدَة في الغرب، أما النافورة الرخامية المزيَّنة وأعمدُة الرواق فكانت عربية، وأما التيجان المائتان المنقوشة فوق هذه الأعمدة فيبدو أنها تبيِّن التأثيرات المتباينةَ للصنَّاع التسكانيين والبوليين والبيزنطيين والعرب والبروفنساليين. وكان الديرُ يحتوي في داخله على نحو سبعين ألف قدم مربع من الفسيفساء الملوَّنة، وهي تحكي قصةَ الكتاب المسيحي المقدس لجمهورٍ لا يعرف القراءَة والكتابة. إن هذه الفسيفساءَ تنتمي إلى التقليد التصويري (الإيقوني) للطقوس اليونانية، ولعلَّ هذا العملَ الضخمَ الذي أُنجز بهذه السرعة وبهذا الأسلوب المتساوق ما كان ليتمَّ دون جلب ورشة اختصاصيةٍ كاملةٍ من بلاد اليونان؛ ومع ذلك، فإن النقوشَ على الفسيفساء كانت باللاتينية [لا باليونانية]، ونشاهد أقدمَ رسم للقديس الغربي القديس توماس بيكيت الذي لم يُرسَّم قديساً [بعد وفاته] إلا في سنة 1173م. إن هذه أكبرُ وأهمُّ مجموعة للفسيفساء وصلتْنا من أوروبا في القرن الثاني عشر للميلاد.

إن بناءَ هذا الدير الضخم، وكذلك قصريْ القُبة والعَزيزة ـ اللَّذيْن شُيِّدا على الطراز العربي ـ وبِركَهما ـ فضلاً عن تشييد كاتدرائية جديدة في بلرمُ ـ يدلُّ على مبلغ الثراء الذي كانت تنعم به صقلية، وعلى أن هذه الثروةَ كانت مركَّزةً في يَديْ الملك. إلا أن وليام كان يعيش على رأس ماله. ففي الوقت الذي كانت فيه المدنُ البحريةُ بايطاليا تجمع ثرواتٍ جديدة، لم تحقِّق التجارةُ الصقليةُ تقدماً، بل إنها مُنيتْ بضربة لفقدان تونس وطرابلس الغرب. وظهرت بوادرُ معارضةٍ سياسيةٍ من جانب المراكز التجارية كمسينة وبلرمُ. وكانت المدنُ الصقليةُ يحكمُها وكيلٌ ملكي، يتولى الديوانُ فحصَ حساباته، ومع أن المدنَ قد تكون وَجدتْ أحياناً أن هذا الوضعَ في صالحها، إلا أنها كانت ناقمةً لافتقارها للحكم الذاتي البلدي، كما أنها

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

تُركتْ عاجزةً في وجه رؤساء الإقطاع كلما ارتقى العرشَ ملكٌ ضعيف، أو كلما كان صاحبُ العرش دون سن الرشد.

ولعلَّ وليام الطيب أنفق الأموالَ أكثرَ من زيادته للإيرادات، ولكن الموارد التي تكدَّست قبل عهده لم تأت عليها الحربُ الأهلية. فقد كتب هيوجو فالكانْدُس ـ ذلك الخادمُ المُلغز للعرش ـ بحماسٍ أشدَّ بكثير مما أبداه بيتر من بْلُوا في إطراء الريف الغني بالبطيخ والرمان وقصب السكر وأشجار النخيل وجميع أنواع المحاصيل. وتحدَّث عن المباني الرائعة في بلرم، والأشجار الدائمة الخضرة، والعيون الوفيرة المياه. ووصف كيف أن النواعيرَ كانت ما تزال تملأ المواجل والصهاريجَ التي كانت تنساب مياهُها عبر قنواتٍ لسقي حقول أشجار الفاكهة والخضروات. كما أن ابنَ جُبيْر ـ الذي مرَّ بصقلية بعد تحطُّم المركب الذي كان يستقلُّه بالقرب من مسينة في سنة 1184م ـ ذَكرَ كيف أن الملك وليام خفَّ بنفسه لمساعدة ركاب المركب المتحطم بالمال. ويبدو أن مسينة بدتْ موحشةً لابن جبير، إلا أن أسواقَها كانت عامرة، وكان باستطاعة غريبٍ مثلِه أن يتجوَّل فيها بأمانٍ نهاراً وليلاً. وكان باستطاعة المراكب الكبيرة الرسوُّ بمحاذاة الرصيف. كما ان ابنَ جبير أُعجب أيَّما إعجاب بمدينة بلرمُ ـ بطرقاتها الفسيحة، ومنازلها المبنية من الحجر الملوَّن، ومساجدها وقصورها الفخمة، كما لاحظ أن المنطقةَ المحيطةَ بالمدينة كانت مزروعةً وخصبة.

توفي وليام الثاني في سنة 1189م، ولما يتجاوز السادسةَ والثلاثين من العمر. ويظهر في رسمٍ له على فراش الموت يحفُّ به طبيب ومنجِّم يضعان عمامتيْن على رأسيهما، ويرتديان ملابسَ عربية. ولم يخلِّف وليام عَقِباً، وكان هذا أمراً خطيراً في مجتمعٍ كان يعتمد على وجود زعيم قوي ووارثٍ للعرش غير منازع. إن الوارثة الرسميةَ له كانت عمَّتُه كونستانس التي وُلدتْ لرجار الثاني بُعيْد وفاته، وهي سيدة كان قد زوَّجها وليام من ملك ألمانيا هنري من

أسرة هوهنشتاوفن، والذي أصبح فيما بعد الإمبراطور هنري السادس، وكانت سنُّه لا تتجاوز نصفَ سنِّها. إن وليام كان في حاجة للمساعدة الألمانية، إذ إنه كان قد قام بعددٍ من الحروب الطموحة التي كانت المصالح الصقلية تمثِّل الحدَّ الأدنى فيها، والتي كلَّفت في الأرواح والأموال أكثرَ بكثيرٍ مما كان جده الأكبر قد أنفقه في فتح صقلية. كان وليام يطمح إلى أن يصبحَ امبراطورَ الدولة البيزنطية، إلا أن حروبه في بلاد اليونان ذهبتْ أدراجَ الرياح. أضفْ إلى ذلك أن مائتي مركب ـ بقيادة قائده اليوناني ـ هُزمتْ على يد صلاح الدين [الأيوبي 569هـ/ 1174م]. وللحصول على تأييد دبلوماسي، فإن وليام أعدَّ لذلك هذا الزواجَ الذي لم يوفَّقْ في التخطيط له، والذي أدى بالفعل إلى تسليم مملكته لألمانيٍ سوف يستخدم ثروتَها لمساندة مصالحَ لا صلةَ لصقلية بها، وتوريطها في النزاع المستمر بين البابوية والإمبراطورية. ونتيجةٌ أخرى كانت الانقسامَ الداخلي، إذ إن وراثةَ هنري عن طريق امرأة عارضها كثيرون من الفرنسيين ـ النورمان الذين كانوا يطبِّقون مباديءَ القانون السالي Salic law[8]، مما أدى إلى نشوب حرب أهلية. وفي عهد أسرة هوتيفيل، كان شخصُ الملك الرابطةَ الوحيدةَ بين العناصر المختلفة في المجتمع، وبظهور الصراع على الوراثة بعد سنة 1181، اختفى كلُّ مظهر من مظاهر المصلحة والخير العامَّيْن.

كان البارونات بادىءَ الأمر قد أُقنعوا ـ أو أُجبروا ـ بأن يُقسموا يمينَ الولاء للملكة كونستانس، إلا أن بعضَهم بادر في سنة 1189م إلى الالتفاف حول الابن غير الشرعي لشقيق وليام. لقد كان ارتقاءُ تانكريد Tancred العرشَ جزئياً عملاً تمَّ بالقوة، إلا أن من الواضح أن بعضَ الصقليين كانوا يؤْثرون رجلاً محلياً ونورمانياً، ولعلَّ بعضَهم رأى كذلك أن الانتخاب ينبغي أن يُقدَّم

(8) نسبة إلى جماعة من الفرنجة ـ (سالي) ـ استقرت في الأراضي المنخفضة في القرن الرابع الميلادي، ثم استولتْ على مناطقَ واسعةٍ من بلاد الغال (فرنسا)، وبخاصة في شمالها. (المترجم).

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

على الحق الوراثي. وقد تمَّ «انتخاب» الملك من قِبَلِ جمعية من الأساقفة والنبلاء والشعب في بلرم، وحتى خصومُه أقرُّوا بأنه كان ثمةَ عنصرٌ شعبيٌ في صالحه. ومن العوامل المساعدة كذلك أن بلرم كانت تخشى أن تفقدَ وضعها المركزي في الحكم إذا ما آل العرشُ إلى ملكٍ ألماني، وان تانكريد تقرَّب من الطبقة البرجوازية في المدن بمنحه قوانينَ لها. وقامت البابوية بمساندته، لأن كافةَ الباباوات كانوا يخشَوْن أن يؤديَ قيامُ اتحادٍ بين جنوب ايطاليا وألمانيا إلى تطويق الولايات البابوية. ولعلَّ بيزنطة ساندتْه كذلك، فابنه على الأقل كان قد تزوج من ابنة الامبراطور الشرقي، وكان تانكريد نفسُه يتكلَّم اليونانية. والأهم من ذلك أن تانكريد رشَّحه المستشار ماثيو ضد رئيس الأساقفة وولتر، وضد أولئك البارونات الذين كانوا منذ البداية من أنصار زواج هنري وكونستانس. ولا شك في أن بعضَ الرؤساء الإقطاعيين أيدوا المرشَّحَ الألمانيَّ لا لشيءٍ إلا أن ملكاً بعيداً قد يتيح لهم مزيداً من الاستقلال، وكان يَسُرُّهم أن يَرَوْا صراعاً على العرش، إذ إن ذلك من شأنه اضعاف الملكية وإتاحةُ الفرصة لهم لإعادة بناء قلاعهم وضم أجزاء من الأراضي الملكية.

إن قيامَ ثورةٍ شعبيةٍ ضد المسلمين كان عاملاً مزعجاً في هذه اللحظة. فالعناصر العربية في صقلية ـ أكثر بكثير من العناصر اليونانية ـ كانت تتحدّى الذوبان والاندماج، وكانت تشكِّل جماعةً قلقةً بل وخطرةً أحياناً. وكان بقيةُ الصقليين يحسدونهم على ممتلكاتهم من الأراضي، وعلى المناصب التي كانوا يشغلونها في الدولة، كما استاء البعضُ من معتقداتهم الدينية، وأزيائهم الغريبة. وفي أية لحظة كانت تقع فيها أزمةٌ سياسيةٌ أو اقتصادية، كان من المرجح أن يصبحَ هؤلاء المواطنون المختلفون عن بقية المجتمع كبشَ فداءٍ وهدفاً للطامعين وذوي الثارات الخاصة. فنشبت لذلك حربٌ أهليةٌ ضد المسلمين بعد سنة 1189م، وأُجبر الكثيرون منهم على الاعتصام بالجبال. كما نزح الكثيرون إلى افريقية، ولا بد أنه كان من بين هؤلاء من كان قد بقي

في بلرم من التجار والصنّاع العرب. كما أن مناطقَ زراعيةً أخرى قد خَلتْ من سكانها. وهُجرت الجنانُ الزاهرةُ في أرباض المدينة، وهي الجنان التي كانت موضعَ إعجاب ابن جبير قبل ذلك بعشر سنوات. أما أولئك الذين لم يتمكنوا من النزوح إلى الخارج، فكانوا في الغالب يلتحقون بالعصابات في المناطق الجبلية، وهي العصابات التي غَدتْ عبئاً باهظَ التكاليف على المجتمع الصقلي. ومع أن بعضَ النازحين عاد في آخر الأمر ـ بل وحصل على عملٍ في عهد تانكريد ـ فإن الثقةَ بين أجناس السكان لم تَعُدْ قطُّ إلى سابق عهدها.

ونشأتْ لتانكريد مشكلة أخرى حينما وصل ملكُ انجلترا رتشارد قلبُ الأسد في سنة 1190م ومعه ملك فرنسا وجيش من الصليبيين. وطالب رتشارد بخشونة بأن تُدفعَ إليه التركةُ التي كان قد أوصى بها لصالحه وليام الثاني، كما احتجَّ بأن شقيقته جوانا Joanna ـ أرملةَ وليام ـ أُبقيتْ حبيسةً في صقلية، وبأن مَهْرَها قد احتُجز بغير وجه حق. وبقي الإنجليز في الجزيرة ستةَ أشهر إلى أن أمكن تسويةُ هذه الأمور. ولم يكن الإنجليز قد اعتادوا على مستويات المعيشة العالية في مسينة، ولاحظوا أن المواطنين كانوا يتقاضَوْن منهم أثماناً باهظة. وقد بدا لهم أن معظمَ أهل مسينة كانوا إما من اليونان وإما من المسلمين. ولما أخذ الصليبيون يتحرَّشون بالنساء المحليات ـ «وكان ذلك بقصد مضايقة الأزواج أكثرَ منه بقصد إغواء زوجاتهم» ـ تعرَّض للاغتيال الجنودُ الإنجليزُ الذين كانوا يسيرون عزَّلاً من السلاح. وقد نجا رتشارد نفسُه بأعجوبة ذات مرة بعد أن سلك مسلكَه الفظَّ المعتاد. وعلى ذلك فإنه بادر ـ ثأراً ـ إلى احتلال مسينة ونهبها وإحراق الأسطول الصقلّي الراسي في الميناء. وخَفَق العلمان الانجليزي والفرنسي لمدة شهر فوق المدينة. واضُطّر تانكريد إلى شراء السلم، إذ إنه كان في حاجة إلى مساعدة الإنجليز ضد منافسه الألماني، وأهداه رتشارد ـ وقد نال بُغيَته ـ سيفَ آرثر [السحري] المسمَّى

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

إكسكالبور Excalibur، ثم استأنف حملتَه الصليبيةَ [في اتجاه المشرق].

إن هذه التنازلاتِ المفروضةَ بالقوة دلَّتْ على مدى الضعف الذي انتاب سلطةَ النورمان في المملكة. فلم يعُدْ بوسع ملك صقلية أن يخاطبَ ملكيْ انجلترا وفرنسا على قدم المساواة. وللتأكد من تأييد الكنيسة، كان على تانكريد التنازل عن مزيد من امتيازاته كقاصدٍ رسولي، كما كان عليه تقديمُ هباتٍ سخيةٍ للأنظمة الدَيْرية والمدن. وكان تتويجه في حد ذاته تنازلاً آخر للمبدأ الانتخابي، ولذلك فإنه مثَّل مرحلةً أخرى في استحواذ البارونات على السلطة.

وفي هذه الأثناء، كان هنري السادس يطمع في ثروة صقلية كوسيلة لتوسيع نطاق طموحاته في جنوب أوروبا والبحر المتوسط. إن ذلك كثيراً ما راود أفكارَ أباطرة الإمبراطورية الغربية، وكان الزواجُ من كونستانس يقدِّم الذريعةَ، كما هيَّأ التحالفُ مع القوتين البحريتين جنوة وبيزة الوسيلةَ لتحقيق ذلك. وفي سنة 1191م، غادر هنري المانيا متوجهاً إلى رومة لكي يُتَوَّج امبراطوراً، وبعد ذلك بثلاث سنوات، زحف على رأس جيشه جنوباً للحصول على ميراث زوجته. وفي هذا الوقت كان رتشارد ـ ملك انجلترا ـ قد وقع أسيراً في المانيا، فلم يكُنْ بوسعه مساعدةُ تانكريد بل وكان على الإنجليز أن يدفعوا فِدْيةً كبيرةً لتخليص ملكهم من الأسر، مما ساعد على تمويل حملة هنري. وبحلول سنة 1193، كان تانكريد قد نجح في توطيد مركزه إلى حدٍ ما، بل وإنه نجح في أن يُعيدَ جزئياً الموظفين المسلمين، إلا أنه توفي في سنة 1194م. وتُوِّج ابنُه الصبي في بلرمُ باسم وليام الثالث. وكانت هذه هي المرة الثالثة في القرن الثاني عشر للميلاد التي تتولَّى فيها ملكةٌ الوصايةَ على العرش والحفاظَ على تقاليد بيت هوتيفيل. إن ما تبقَّى من الأسطول الصقلِّي ـ ولعلَّ مراكبَه كانت أقلَّ عدداً من مراكب أُسطوليْ جنوة وبيزة ـ لم يحاول منع هنري من عبور مضيق مسينة، ورحبت مسينة بالألمان، وكذلك

فعل النصارى في قطانية كوسيلة للتخلص من الحامية الإسلامية في مدينتهم. وسارع معظمُ النبلاء إلى إعلان خضوعهم. ومن الواضح أن كثيرين من أهل صقلية كانوا راضين عن هذه الحملة الغازية، لإتاحتها الفرصةَ لهم لتعزيز مصلحةٍ اقليميةٍ ما. أما الألمان فإنهم بُهروا بما رأوه من ثروات الجزيرة وبهائها. كما دُهشوا للطريقة التي كان الصقلِّيُّون ـ بصورة غريبة ـ يسجدون فيها أمام الإمبراطور وجباههم على الأرض. وفي بلرمُ، قام فتيان القصر بتسليم هنري مفاتيحَ الخِزانة، وقام هو في يوم عيد الميلاد [25 ديسمبر سنة 1194م] بتتويج نفسه ملكاً على صقلية.

كانت صقلية في نظر ملكها الجديد تابعةً لألمانيا، وتمثِّل أقصى زاوية في امبراطورية مترامية الأطراف. ويبدو أن الوثائقَ الخاصةَ بعهد تانكريد دُمِّرتْ عمداً على أساس أنها غير قانونية، وبالتالي فإنها غير ضرورية. ونُقل من صقلية ما غُنم من أسلابٍ مع مَهْر الملكة كونستانس ـ وهي أموال تجمَّعت عبر أجيال ـ وذُكر أن مائةً وخمسين بغلاً ـ موقرة بالكنوز ـ عبرتْ جبال الألب [إلى المانيا]. وبهذه الطريقة وجَدتْ ملابسُ الملك رجار المرصَّعةُ بالجواهر طريقَها إلى أحد متاحف مدينة فيينا. ولعلَّ ثمةَ شيئاً من المبالغة في التهمة الموجهة إلى هنري بأنه كان جشعاً ووحشياً إلى أبعد الحدود في وصوله إلى السلطة. ومن ناحية، فإن هذه التهمةَ تبيِّن بوضوح مدى سخط الإقطاعيين على حكم ملكٍ قويٍ، وضد شخص قام ـ بالرغم من تأييدهم له بادىء الأمر ـ بإنقاص منزلة النبلاء المحليين، ولم يقُمْ باستشارتهم، وضدَّ شخصٍ قام بالفعل بمحاسبتهم على افتئاتهم على الامتيازات الملكية وبمطالبتهم بتقديم الأدلَّة التي تدعم مطالبهم الخاصة بالامتياز. ولعلَّ العداءَ الذي لا شك فيه نحوه كان يرجع جزئياً إلى غرابة لهجته وعاداته الشمالية. وبدلاً من أن يحاول هنري مراضاة رعاياه، فإن الانطباع الذي تركه كان بالتأكيد انطباعاً عن رجل لم يأت إلى الجزيرة إلا للاستحواذ على غنائم الحرب. وقد

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

استخدم جنوده لجباية الضريبة، ووهب قادته الألمان اقطاعات صقلية، وحصل فرسان النظام الدَيْري التيوتوني [الألماني] على الأراضي التي صودرت من النظام الديري البنديكتي. كما أنه في مقابل الحصول على مساعدة الأسطول الجنوي، وعَدَ جنوة بامتلاك سرقوسة كولاية مستقلة تقريباً. وأشدُّ ما حدث طغياناً هو أن أسرةَ تانكريد ـ التي استسلمتْ بموجب عهدٍ بالأمان ـ أُودعت السجنَ فوراً ومات الصبي السيِّءُ الطالع وليام الثالث في ظروفٍ غامضة، والأرجح أنه قُتل.

إن البلاد التي تقبَّلتْ بهذا الخنوع وصولَ هنري سُرعان ما ثارتْ عليه، إلا أن الإمبراطور قمع الثورةَ بسهولة عن طريق الجند الذين كان قد جنَّدهم للقيام بحملة صليبية. ويذكر المؤرخون الإيطاليون أن ضحاياه جرى خصيُهم أو أُحرقوا أحياء أو أُلقي بهم في زيت مغليّ، وان قَسْوتَه لم ترحمْ أو تستثنِ رجالَ الدين والنساء، أو الكثيرين ممَّن يُستبعد أن يكون لهم ضلعٌ في القيام عليه. وذُكر انه وُضع على رأس أحد أفراد أسرة هوتيفيل تاجٌ حارٌ جداً، وسُمِّر برأسه وهو حي. وفي وسط هذه الأعمال القمعية، وفي سنة 1197م، مات الإمبراطور نفسُه وهو في الثانية والثلاثين من العمر، ولعلَّ موتَه كان نتيجةً لإصابته بالملاريا أثناء قيامه بالصيد في المستنقعات. ونُقل جثمانه إلى الكاتدرائية الجديدة في بلرمُ، وهي الكاتدرائيةُ التي كان قد انتهك حرمتَها بإخراجه بقايا جثمان تانكريد منها.

الأمبراطور فردريك الثاني "أعجوبة الدنيا"

(1194-1250م)

كان فردريك الثاني ـ صاحب صقلية ـ من جانب والده من أسرة هوهنشتاوفن من مقاطعة سوابيا [الألمانية]، أما من جانب والدته كونستانس، فقد كان نورمانديا وحفيداً للملك العظيم رجار [الثاني]. وكان قد قضّى فترة صباه في عالم القصر الملكي الغريب في بلرم، حيث تُوجَّ ملكاً وهو في الثالثة من عمره. وفي الفترة التي كان فيها فردريك قاصراً، اغتصب أفرادٌ مهامَّ القانون والإدارة العامة، وبخاصة عقب وفاة والدته الملكة كونستانس في سنة 1198م، بعد تعيينها البابا إنوسانت الثالث وصياً على ابنها. ومع أن إنوسانت كان أحد الباباوات العظام، إلا أنه لم يستطع أن يفعلَ الشيء الكثير لحماية مصالح الصبي تحت وصايته، إذ إن عدداً متتابعاً من البارونات الألمان ـ وقد أصابوا الثروات من الهبات التي منحها لهم الملك المتوفّى هنري ـ تحدَّوْا سلطة البابا ووضعوا أيديهم على بلرمُ وعلى الملك الصغير.

ولم يكن بأقلَّ خطورةً من ذلك بحال ـ بما كانوا يشكِّلونه من خطر على الكنيسة والدولة ـ العربُ المسلمون الذين بقُوا في المناطق الداخلية من صقلية، وفي جنوبها الغربي. ففي سنة 1197م ـ وكما حدث من قبل في سنة 1161م وسنة 1189م ـ نشبتْ ثورات عنصرية أثناء الفوضى التي أعقبت وفاة

هنري، ولم تتخلف الأقلية المضطهَدة عن الرد على المعتدين. وعلى إثر اختفاء خصيان البلاط، أصبح الكثيرون من المزارعين ورقيق الأرض من المسلمين الباقين يتبعون رؤساءَ إقطاعيين من النصارى كانوا أقلَّ مراعاةً لمشاعرهم وأكثرَ اغتصاباً لأموالهم. وفضلاً عن ذلك، فإن ضرائب العُشْر tithes لتجهيز حملات البابا إنوسانت الصليبية أثارتْ سخطاً كبيراً بين هذه الجماعة الغريبة. وكان بعضهم قد فقدَ ـ جملةً ـ وسيلةَ عيشه في سنة1189-1190م، ولا بد أن عشرات الألوف منهم قد نزحوا إلى شمال افريقيا، وانتهز آخرون الفرصة التي أتاحتها الحربُ الأهليةُ للتنقل على شكل عصابات عبر الجزيرة، يَسْطون على الطعام، ويحاولون استرداد ممتلكاتهم المغتصَبة. ولما اشتد ساعد ثورتهم، أخذوا في الاستيلاء على القلاع والقرى. واستولى الثائرون على جرجنت Girgenti لأنهم كانوا في حاجة إلى ميناء يمكِّنهم من الاحتفاظ بمواصلاتهم مع افريقية، وأصبحت كاتدرائية المدينة ثكنةً عسكرية، ووقع أسقُفها أسيراً في أيديهم لمدة عام. كما أن رئيس دير مونريال Monreale ـ على مقربة من بلرمُ ـ فقدَ سيطرته على جانب كبير من أراضي ديْره الواسعة، وقامت جماعة من عصابات المسلمين بنهب مستشفىً للبُرْص في أحد أرباض بلرمُ ذاتها. وكما حدث للعصابات التي ظهرت فيما بعد في التاريخ الصقلي، فإن هذه الجماعةَ استغلَّها رجالُ السياسة الذين كانوا ـ في هذه الحالة ـ البارونات الألمان، الذين نعموا بالرخاء من انتشار الفوضى والثورة.

ولما تسلَّم فردريك مقاليدَ الحكم في سنة 1208م، كانت أولى المشاكل التي واجهتْه هي القضاء على هؤلاء العصاة، ذلك لأن سلطةَ الدولة بأسرها كانت في خطر. وقد بلغ الرعبُ الذي أحدثه المسلمون وشركاؤهم حداً رفض معه المزارعون الانتقال خارج قراهم لفلاحة الحقول. وفضلاً عن ذلك، فإن فردريك تعرَّض إلى ضغط قوي من قِبَل الكنيسة. وكان رجالُ

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

الكنيسة قد أقرضوا الدولةَ أموالاً ضخمة في عهد البابا إنوسانت، فطالبوا الآن بمساعدة الملك حينما فرَّ عبيدُ أراضيهم villeins، وتم الاستيلاء على أراضي الكنيسة وإيراداتها. وكان فردريك مضطراً إلى مغادرة صقلية في سنة 1212م، ولم يعُدْ إليها ثانية إلى أن رجع امبراطوراً في سنة 1220م، فشنَّ حينئذ حرباً شاملةً للسيطرة على ثغر المسلمين في داخل الجزيرة March of the Saracens، وهي منطقة كان الزعيم المسلم (مرابط) Morabit [محمد بن عباد العبسي][1] يتصرف فيها تصرفَ ملكٍ مستقل. فطالب فردريك بارونات صقلية بالخدمة العسكرية في سلسلة متوالية من الحملات. وقد لجأ إلى إحراق المحاصيل جملةً فعمل بذلك تدريجياً على حمل أعدائه على الاستسلام أو الموت جوعاً.

وكان لزاماً على فردريك كذلك اخضاع البارونات وغيرهم من الرعايا المتنفذين في محاولةٍ منه لاسترداد سلطة الدولة. وكان جيرفاس من تيلبري Gervasse of Tilbury ـ الذي كان يقيم في صقلية ـ يخشى سكان هذه البلاد الغنية السيئة الطالع المخادعين والمولعين بالحرب، فقد وجدهم ـ كغيره من بعده ـ «ماكرين في إيقاع الضرر، صامتين عند الإساءة إليهم». وكان كثير من النبلاء ورجال الكنيسة ينتهكون بصورة غير مشروعة الحقوقَ الملكيَة، كما أن البابا كان قد أنعم برتب البارونية على أصدقائه. وكان البيزيون قد أقاموا وكراً للقرصنة في سرقوسة، مع أن هذا الوكر انتزعه من بيزه فيما بعد الجنويون الذين أقاموا مقاطعةً مستقلةً في جنوب صقلية الشرقي، كما استولَوْا على جزيرة مالطة. وكانت الأراضي الملكية ـ والتي كان النورمان يعتمدون عليها إلى حد كبير في إيراداتهم ـ آخذة في التقلص تدريجياً.

---

(1) عن القائد العربي الصقلّي محمد بن عباد العبسي، انظر ـ في موضعه ـ بحثنا بعنوان (السياسة العربية للامبراطور فردريك الثاني)، وكذلك المقالة بعنوان (مقاومة بطولية لفتاة عربية من بني عبس في جزيرة صقلية) ضمن هذه الدراسات.

ولدى عودة فردريك من المانيا، في سنة 1220م، عكسَ هذا الاتجاهَ في الحال. فقد أمر بتدمير كافةِ القلاع الخاصة التي شُيِّدت منذ سنة 1189م، وحُجَّته في ذلك أن تحصينَ القلاع امتياز ملكي حتى في أراضي البارونات، وأضاف بأنه لا يُسمح بترميم القلاع القديمة دون الحصول على إذنٍ منه بذلك. وأعيدت صياغة القوانين النورمانية الخاصة بالإقطاع على وجه الدقة. وأصبح لزاماً على التابعين الاقطاعيين vassals تقديمُ صكوكِ تملُّكهم للتثبُّت من صحتها أو رفضها، وكان من الممكن الغاءُ أية منحة اقطاعية تمَّ الحصول عليها منذ سنة 1189م. كما أصبح لزاماً إعادةُ الأراضي الملكية إلى ما كانت عليه، وتولَّى كبار القضاة الملكيين حقوقَ العدالة التي كانت قد اغتُصبت، ووُضعت ثانية قيودٌ على حق البارونات في تحويل مِلْكية إقطاعاتهم أو تأجيرها من الباطن، إذ لم يكن لهم سوى حق الاستعمال، بينما احتفظ الملك بحق مصادرة الملكية الشخصية. ولم يعُدْ يحق للوَرثة أن يرثوا ممتلكاتٍ دون دفع رسوم الوراثة والاعتراف بهذه الحقوق الملكية، ولا يجوز للأرامل أو البنات الزواج دون الحصول على الموافقة الملكية.

لم يُبْدِ فردريك من الاستبداد والتسلط في أي جزء آخر من امبراطوريته ما أبداه في صقلية، إذ بينما كان في المانيا ملكاً اقطاعياً، فإنه في صقلية تصرَّف تماماً وفق مدلول لقبيْه ـ اغسطس وقيصر ـ بل إن عُملته في صقلية سميت أغسطاليس Augustales، وحاكتْ في تصميمها عُملاتِ رومة القديمة. وحينما دعا برلماناً إلى الانعقاد في سنة 1221م، أحسَّت البلاد بوجود سلطة موجِّهة تعيد إلى الأذهان سلطةَ الملك رجار. وحظَر المَيْسر وغيره من ألعاب الحظ (اليانصيب)، وكان على المواطنين العودةُ إلى بيوتهم قبل قرع جرس المساء الثالث، وكان على اليهود ارتداءُ ثياب مميِّزة، وكان على البغايا أن يُقمن خارج أسوار المدينة، كما مُنعن من ارتياد الحمامات العامة إلى جانب النساء العفيفات. ويلمحُ المرءُ من ذلك رغبةً استبدادية في التحكم حتى في

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

السلوك الخاص للأفراد، وكان فردريك عاقداً العزم على أن تكون هذه القوانينُ منفَّذةً من قِبَل الجميع. بل إنه حاول أن يمنعَ الزواج من الأجانب.

إن تقاليد القانون الروماني كانت حيةً تماماً في صقلية، ومع أن العدالة عن طريق التعذيب كانت قائمة، ومع أن رجال الإقطاع كانوا ما يزالون يحتفظون بمكانتهم الاجتماعية والعسكرية، فإن الملك مع ذلك استخدمَ فقهاء في القانون، وسياسيين من طراز جورج الأنطاكي، ومايو، وماثيو السالرني. وأسَّس في نابُلِ [نابولي] جامعةً لتدريب المحامين والإداريين، وحظَر على كلٍ من الطلبة والأساتذة الالتحاقَ بمدارسَ أجنبية، حيث لم يكن بمقدوره التحكمُ بالمناهج الدراسية. وكان من بين هؤلاء الفقهاء القانونيين بيتر ديلا فينا Peter della Vigna، الذي كان بوصفه الكاتبَ الأول في محاكم صقلية، المؤلف الرئيسي لكتاب Liber Augustalis الذي تضمَّن مجموعة قوانين سنة 1231م اشتملت على القوانين النورمانية السابقة، وأَضْفَتْ عليها بُعْداً إضافياً كدستور تتجسَّم فيه السلطةُ المطلقةُ لبيت هوهنشتاوفن المَلكي. وبينما كان رجار الأول يسمح بأن يتقاضى اللمبارد واليونان والعرب والفرنجة كلٌ حسب قوانينهم، فإن فردريك أراد أن يضع نظاماً أكثر توحيداً. وقد صدر الكتابُ بلغة لاتينية أنيقة، وذلك في حد ذاته آيةٌ على بداية عهد جديد، مع أنه ظهرت له ترجمة يونانية لفائدة الجماعات التي تتكلم بهذه اللغة، والتي كانت ما زالت باقيةً في المملكة.

إن قوانين فردريك ـ بشموليتها وتفاصيلها، وقبل كل شيء بفكرتها عن السلطة الملكية ـ تبيِّن الصفةَ الفريدةَ لجزيرة صقلية في غرب أوروبا. إن المملكة تسلِّمها الإمبراطور من الله تعالى، ولا يجوز لرجال الدين التدخلُ في الأمور الدنيوية. ويُحتفظ للملك بالنظر في القضايا الجنائية ـ مع قيامه بتنازلٍ قد يبدو على العكس من ذلك ـ ومع أنه يجوز للأساقفة والبارونات النظر في

القضايا البسيطة ـ بعد الحصول على إذن بذلك ـ فإن الاستئناف من اختصاص محكمة الملك. وقد قُسِّمت الجزيرة إدارياً عند نهر سالسو، وأُلحق شرق صقلية بمقاطعة قِلّوْريَّة بجنوب ايطاليا، وكان يُخصَّص لكل قسم كبيرُ قضاةٍ كان مسؤولاً كذلك عن الضرائب المباشرة والجيش. وكان كبار القضاة هؤلاء يبقَوْن في مناصبهم سنةً واحدة، ويُشترط فيهم أن يكونوا من غير رجال الدين، وأن يكونوا غرباءَ عن الولايةِ، وكان يُعهد إليهم بالتأكد من أن المحاكماتِ تتمُّ على أساس تقديم بيِّنات صحيحة. وكان لا يُسمح بحمل السيوف إلا لمن هم في خدمة الملك وبلاطه، ولا يجوز لموظفٍ ملكيٍ قبولُ هدية من أناس تحت سلطته. ويخضع للعقاب كلُّ من سبَّ اسم الجلالة ومريم العذراء، وكلُّ من يتردد على الحانات بانتظام، أو يُعدُّ أدوية الحب. وكانت الزانيات يُعاقبن بجدع أنوفهن، وكان يُجلد علنَاً الأزواج الذين يتساهلون في أمر زناء زوجاتهم. ولا يجوز اللجوءُ إلى التعذيب إلا مع من هم من أصل وضيع أو مع الأشرار الذين كان يستأجرهم البارونات لإرهاب المناطق الريفية. ولا يجوز لشخص مزاولةُ مهنة الطب دون الحصول على رخصة حكومية، ودون أن يكون حاملاً لشهادة جامعية. وكان المسلمون واليهود تحت الحماية الملكية، وكان يُسمح لليهود بتقديم القروض مقابلَ فائدةٍ لا تتجاوز نسبة 10 في المائة، وكان الربا جريمةً بالنسبة لمن يمارسه من غير اليهود.

ولما فرغ الفقهاءُ القانونيون من إعداد هذه المجموعة من القوانين، دعا فردريك إلى عقد مؤتمر عام في مدينة (ملفي Melfi) في سنة 1231م، وفيه كان بوسع كبار رعاياه ـ على الطريقة الإقطاعية الصحيحة ـ أن يُنصتوا إلى مقترحاته وأن يُقرُّوها. إن هذا النوعَ من البرلمان أخذ يصبح أداةً منتظمةً للحكم. فقد تمَّ تعيينُ كبار رجال الكنيسة والبارونات وغيرهم من المواطنين البارزين للاجتماع مرتين سنوياً في كل ولاية، لدراسة كل شيء امتداداً من

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

تهمة الزندقة إلى الشكاوى ضد موظفي الدولة، بينما كانت تجتمع مجالسُ أخرى ـ أكثرُ عموميةً ـ من حين إلى آخر لمساندة فرض الضرائب وإعلان القوانين. إن حضور هذه البرلمانات كان التزاماً أكثر منه امتيازاً. وبجلول العِقْد الرابع من القرن الثاني عشر للميلاد، تأصَّلتْ عادة دعوة عدة مواطنين من سكان المدن الرئيسية إلى جانب رؤساء الإقطاع، ومع أن هؤلاء المواطنين كانوا في بادىء الأمر يُرشَّحون من قِبَل وكلاء الملك، فإنهم أصبحوا في نهاية القرن يُنتخبون في كثير من الحالات من قِبَل نوع من الجمعيات العامة.

بَيْدَ أنه لم يُسمح بأن يكون للمدن حكوماتُها الذاتية، إذ إنه لم يُسمح لسكان المدن بالإفلات من شبكة السلطة الامبراطورية. وكانت صقلية ما تزال بلاداً غنيةً إلى حد ما، حيث كان للمرء أن يتوقع وجود حياة مدنية نشطة، إلا أنها في الواقع لم تعرف شيئاً شبيهاً بالوحدات الإدارية (الكوميونات) التي كانت قائمةً في شمال ايطاليا. ومع أن هذا قد يعكس مجردَ الافتقار إلى إنشاء المؤسسات المدنية، فإنه كذلك كان مستمداً من أن الملكية النورمانية كانت من الاستبداد والقوة بحيث لم تكن في حاجة إلى تشجيع المدن ضد البارونات. ونظراً لعدم وجود تقليد بالحرية المدنية civic، فإنه لم تكن ثمة حاجة إلى رشوها بالمال للخضوع، عن طريق منحها صكوكاً بالحرية. فالحكم الذاتي الجماعي كان من شأنه أن يؤدي إلى إنقاص الامتيازات الملكية. وفي بعض الأحيان القليلة ـ كما في جفلوذي Cefalu مثلاً حيث كان الأسقف يتمتَّع بالسلطة ـ حصل المواطنون على شيء من المساهمة في اختيار وكيلهم bailiff، أما في مسِّينة فإن الوالي ـ ويحمل اللقبَ اليوناني strategoto ـ كان يتمُّ تعيينُه من قِبَل التاج، وكذلك الحال بالنسبة لصاحب قصبة بلرمُ. وكانت كل مدينة تهيمن عليها قلعةٌ ملكية، كما بنى فردريك معاقلَ في نقاط استراتيجية في الداخل. ولم تكن هذه المعاقل قلاعاً للإقامة

فيها، بل كانت معاقلَ عسكرية. ويبدو أنه تمَّ جلبُ مهندسين وبنائين فرنسيين لتشييدها، وقد بقيت قلعةُ أرسينو Ursino في قطانية وقلعةُ مانياكيس Maniaces في ميناء سرقوسة إلى يومنا هذا، وهي تُظهر بعضَ العناصر لهذا النمط الشمالي من الفن المعماري العسكري.

وكانت مسِّينة ـ أكثر من غيرها من مدن صقلية ـ قد خبرتْ درجةً من الاستقلال. فقد كان لمسِّينة مصالحُ تختلف عن مصالح صقلية الزراعية، وجعلتْ منها اتصالاتُها بالعالم الخارجي مدينةً أكثرَ عرضةً للقلاقل والاضطرابات من غيرها من المدن. وكان أهل مسِّينة قد قاموا على وليام الثاني في سنة 1168م، كما قاموا على تانكريد في سنة 1194م. وفي مقابل تأييدهم للغزوة الألمانية، سمح لهم هنري [السادس] بإقامة ميناءٍ حر يتمتع برسوم جمركية تفضيلية. وقد اغتنم الجنويون واللمبارد والبيزيون والفلورنسيون والقطَلان تلك الفرصةَ لفتح ـ أو إعادة فتح ـ مستودعاتٍ للسلع فيها، ووقع عليها اختيار الملكة كونستانس لتكون مقراً للحكومة في سنة 7-1198م. وبهذا الموقع المركزي للاتصال، وبحافزٍ من اضطرارها لمقاومة جيوش متنافسة في فترات متعاقبة من الفوضى، نما في مسِّينة شعور مدني قوي، وظهرتْ فيها طبقة من التجار كان بوسعهم أحياناً العمل معاً، كما جعل لهم وزناً سياسياً، وابتكروا من آن إلى آخر امتيازات، وتحصلوا على مستنداتٍ مزوَّرة للتدليل عليها. فقد ادَّعَوْا بأن لهم الحقَّ في تعدين الحديد، وفي أخذ الأخشاب من أي مكان لسفنهم، وفي مزاولة صيد الأسماك في أي مكان، وفي اختيار قضاتهم، وفي عدم الاعتراف بسلطة أي محكمة خارج أسوار مدينتهم.

وقد أبطل فردريك كثيراً من امتيازات مسِّينة المزعومة، باعتبار أنها لا تتمشى مع فكرته الخاصة بقيام دولة ذات سلطة مهيمنة. وقد قوبل هذا العمل بالاستياء، وكذلك فرضه للضرائب، وبخاصة على تجارة الحرير. والأمقتُ

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

من ذلك، أن حكومته الصارمة جعلت التملص من دفع الضرائب أصعب من أي وقت مضى، وكان التخلف عن دفعها يؤدي أحياناً إلى الحجز على الممتلكات الشخصية. ولذلك فقد نشبت ثورة أخرى في مسينة في سنة 1232م. وأحضر فردريك جيشاً من جنوب ايطاليا، وتمَّ إعدامُ زعماء الثورة أو حرقهم. كما وقعت اضطرابات في كلٍ من قطانية وسرقوسة، إلا أنه يبدو أنهما حالتا دون غضبه بمبادرتهما إلى الاستسلام. وحينما حاولت شنتورب Centuripe مقاومَته، دُمِّرت عن آخرها ونُقل سكانها إلى مدينة جديدة سُمِّيت ـ تفخيماً ـ أوغسطة Augusta. ولما كان فردريك يؤمن بأن سلطته مستمدة من الله تعالى، فإنه اعتبر التمرد عملاً آثماً يستحق أقصى العقوبات.

لقد ربط فردريك المدنَ بالدولة حتى مع أن هذا قد يبدو بأنه يضحِّي بالاقتصاد من أجل المصلحة السياسية. فقد لقَّنه تاريخ صقلية بأن الرخاء يأتي من وجود ملكية قوية، وكان مُحقاً في ذلك إلى حد ما، إذ إن الأحداثَ التي وقعتْ فيما بعد بيَّنت أن نموَّ صقلية الاقتصادي توقَّف، بينما أصبحت الجماعاتُ البحريةُ الحرةُ في ايطاليا مغامرةً وغنية. وساعد إخضاع فردريك للمدن على التأكد من أنه لم تعُدْ توجد قط أيةُ طبقة من التجار أو الموظفين المدنيين في وضع مستقل ونشط، بحيث توازن الأرستقراطيةَ المالكةَ للأرض، وكان هذا الافتقارُ إلى تحدٍ للارستقراطية عاملاً أساسياً في تدنِّي صقلية السياسي والثقافي والاقتصادي. وكلما أخفقت الحكومة المركزية، كلَّما ملأ النبلاء ـ لا المدن المحلية ـ فراغَ السلطة. لذلك فإن تجارة صقلية سيطرتْ عليها مدن أجنبية كبيزة، وجنوة، والبندقية، ومَلْف Amalfi ولوقة Lucca. وقد أظهر التجارُ الأجانبُ في المقام الأول بأن ثمةَ مكاسبَ يمكن جنيُها في صقلية، ثم إنهم ثانياً عملوا على نقل تلك المكاسب من البلاد دون إثراء المشاريع المحلية.

ولا شك في أن الامبراطور أراد مساعدةَ التجارة والزراعة، إلا أن المرء

يشكُّ فيما إذا كان تشجيعه لهما لم يكن يستهدف بصورة رئيسية الحصولَ على مزيد من الضرائب لسياسته الإمبراطورية، إلا أن هذه الضرائبَ أبطلتْ أيةَ إمكانية للنمو الاقتصادي. ولما كانت الجباية من الرسوم الجمركية وأراضي التاج لا تكفي لتغطية المصاريف الباهظة لنوع الحكومة التي كان يَنْشدها، فإن إحدى النتائج المترتبة على ذلك هي أن الجبايات الإقطاعيةَ أصبحت ضريبةً عامةً على المملتكات بدلاً من أن تكون ضريبةً يؤديها أصحاب الاقطاعات في حالات الطوارىء، وكانت تلك الضريبة تُجبى أحياناً أكثر من مرة في السنة. ولم يكن بالأمر الهيِّن تنسيقُ المصروفات مع الموارد المتوفرة. لقد كان فردريك يستهدف الصالح العام، إذ إن ريع الضرائب ساعد على حفظ القانون والنظام، وعاد ذلك بفائدة كبرى على الاقتصاد. كذلك كانت تنطوي على حسن النية محاولتُه إصلاح الأنظمة المتباينة للأوزان والمقاييس، فحتى القرى المتجاورة كانت لها أنظمة متعارضة للمقاييس نتيجة لأصولها التاريخية وتعدد أجناسها مما شكَّل عقبة كبرى في وجه التجارة. كما حاول فردريك الحدَّ من الربا الذي كان يشكِّل عبئاً كبيراً على الزراعة في صقلية. كما أنشأ دوراً لصناعة السفن، وأعاد العملَ بالالتزام الإقطاعي الخاص بتوفير الأخشاب والبحارة. ونصَّت لائحة أخرى من قوانينه على إقامة معارض سنوية تنشيطاً للتجارة الداخلية.

إن الاقتصاد الصقلِّيَّ لا بد وأنه توقف جزئياً في الفترة ما بين سنتي 1190 و1220م، وكان تشريع فردريك محاولةً لإحلال شيء من النظام محل الفوضى. ومع ذلك، فإن من باب التفاؤل الاعتقادَ بأن مثل هذه القوانين كان من الممكن تطبيقها، أو الاعتقاد بأن أرباح التجارة كان يمكن ببساطةٍ تحويلها إلى الدولة. وقد اعتُبرتْ كافةُ المناجم والمعادن في صقلية احتكاراً ملَكياً، وكان لا يُسمح ـ بدون إذن ملكي ـ لغير وكلاء التاج ببيع الحديد والفولاذ والقطران والكتان والحرير والقمح. كما أن صناعةَ الصباغة كانت امتيازاً ملكياً

محتكَراً آخر. وقد اشتهرت مَلّاحات صقلية، وكانت عاملاً رئيسياً في نمو مدينة أطرابنش Trapani، ولكن الملح ـ بدلاً من أن يكون تصديرُه حراً ـ أصبح احتكاراً للتاج، ونتيجة لذلك فإنه كان يُباع ـ كما قيل ـ بستة أمثال ثمنه السابق. ولعلَّ بعضَ لوائح واحتكارات فردريك لم تكن ضارَّةً على وجه الخصوص، وبالتأكيد فإن ايراداتِ الحكومة لا بد وأنها ازدادت، إلا أنه لم يكن باستطاعته أن يدفع بالناس نحو الرخاء، ولم تكن زيادةُ الضرائب مؤشراً تلقائياً إلى صحة الاقتصاد.

وقد لقيت الزراعةُ الكثيرَ من التوجيه من تفكير فردريك المهتمّ والمُحب للإطلاع. إن الملك نفسه كان مالكاً رئيسياً للأراضي، وكان يُصدِّر جانباً كبيراً من قمحه الخاص إلى شمال افريقيا، وكان على سلطات الموانىء أن تعطي الأولويةَ لسفنه في أعمال الوَسْق. وحتى أثناء انشغاله في حروبه في الخارج، كان يكتب إلى وكلائه بشأن أعمال البذر، وبشأن كروم عنبه، وللتأكد من أن الريش قد جُمع لصنع المفارش. وكان يوزِّع الأراضيَ البورَ على أساس الالتزام القاطع بوجوب تهيئتها وبذرها بالقمح، كما أصدر أمراً يقضي بمنع مصادرة حيوانات المزارعين وأدواتهم الزراعية بسبب الدَيْن. ولدى تلقّيه شكاوى المتظلمين، أصرَّ بأن لا يَحدَّ القيِّمون على غاباته من الحقوق الثابتة بشأن التحطيب، وبأن الحيواناتِ الضالَّةَ ينبغي أن لا تُحجز حتى ولو كان أصحابُها مسؤولين عن الضرر. وكان للرعاة حقوق خاصة عند الانتقال بقطعانهم، ولم يُسمح بأن ترعى الحيواناتُ في ممتلكات الآخرين إلا إذا كانت حوافُرها فوق الطريق العام. وحينما اجتاحت الريفَ أرجالُ الجراد، شكَّل فردريك لجنةً للطوارىء، وأمر الناسَ بجمع وزنٍ معلوم من الجراد أو دفع غرامة. إن كثيراً من هذه الأنظمة ورثها فردريك ـ دون شك ـ عمَّن سبقه في الجزيرة، ومجرد تكرارها يوحي بأن تطبيقها لابد وأنه كان أمراً شاقاً.

ومن بين الصناعات التي شجَّعها فردريك في صقلية صناعةُ المنسوجات

الحريرية. وقد كانت صقلية وقِلّوْريَّة أولَ مكانيْن في ايطاليا يُنتجان الحرير؛ ومما يُذكر أن ملك انجلترا ـ رتشارد قلب الأسد ـ استحوذ أثناء وجوده في صقلية سنة 1191م على سرادقٍ من الحرير من قِبَل الامبراطور. وكذلك كان الحال بالنسبة لصناعة السكر. وكان قصبُ السكر يُزرع على نطاق واسع في الحقول التي تُسقى بماء الري، وجَلَب فردريك خبراءَ لتدريب المبتدئين في فنٍ لعلَّه تدنَّى بعد نزوح الصُنَّاع العرب. لقد كان فردريك آخرَ ملك صقلِّي ـ ولقرونٍ عديدة ـ كانت تتوفر لديه السلطة والموارد وحبُّ المعرفة التقنية والمعلومات لتطوير وسائل الري التي كانت في وقتٍ ما مصدراً للرخاء. وقد كشفت التنقيباتُ الأثريةُ عن سدٍ لعلَّ فردريك كان قد أقامه لإنشاء بحيرة صناعية على بُعد بضعة أميال من مدينة أُوغسطة Augusta، ولا بد أن ذلك كان إنجازاً كبيراً في أوروبا في أوائل القرن الثالثَ عشرَ للميلاد.

إن مغامرةَ فردريك العنيدةَ ـ والقاسيةَ في الغالب ـ تظهر من الطريقة التي نقل فيها جماعاتٍ سُكَّانيةً بكاملها. فقد أعاد إسكانَ جزيرة مالطة، وجلَب جماعاتٍ من اللمبارد واليونان للاستيطان في المناطق القليلة السكان من صقلية. وأزال بعضَ القرى تنكيلاً بسكانها، كما بنى قرى جديدة. فمدينة تيرانوفا Terranova من تأسيسه في موقع جيلة Gela اليونانية القديمة. أما أكثر أعماله قَسْوةً فكان اجتثاثه لآلافٍ مؤلَّفة من المسلمين وتوطينهم في جنوب إيطاليا حيث أسكنهم في مستوطنة عسكرية ـ بالقرب من فوجيا Foggia ـ هي مستوطنة لوشيرة/ لوجارة Lucera التي أصبحت مقراً لجيشه المحترف. وبعد أن قمع فردريك الثاني ثورةَ المسلمين في سنة 1225م، لم تقابله متاعبُ ـ بعض الوقت ـ من جانب هؤلاء الرعايا صعبي المراس، والذين أصبحوا يعانون من الفقر. وكان كثيرٌ منهم رعاةً، وقد أجَّر فردريك لبعضهم قطعاناً كبيرةً من أغنامه، إلا أننا نعلم أنهم اضطُهدوا، ولعلَّ ذلك يفسِّر اندلاعَ ثورة أخرى للمسلمين في صقلية في سنة 1243م. وفضلاً عن الخلاف في العرق

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

والدين، فإنه لا بد أنهم عانَوْا من العداء الدائم بين الرعاة والمزارعين، وبين سكان الجبال وسكان الأودية، وبين الرحَّل وفالحي الأرض. وقد حاول فردريك أن يحمي المواطنين المسلمين المُراعين للقانون من الأذى أو الاعتداء، إلا أنه لم يستطع التسامحَ تجاه رفض الجماعات الإسلامية الباقية الاندماجَ ببقية السكان. وقد قاوم هؤلاء المسلمون مقاومةً يائسةً جيوشَ الملك لمدة ثلاث سنوات أخرى بعد سنة 1243م، إلا أنهم كانوا في نهاية الأمر يعتمدون على أهل السهول في طعامهم، ولذلك فإن معظمهم اضطُرَّ إلى الاستسلام ثانية. وحيثما أمكن ذلك، نُقل الباقون منهم على قَيْد الحياة ـ جُملةً ـ للالتحاق بفيلق أنكشارية فردريك في لوشيرة. ولا شك في أن آخرين ظلُّوا يعيشون في كهوف في مناطقَ نائيةٍ بالداخل يتعذَّر الوصولُ إليها.

لا شك في أن هذه السلسلةَ من الحملات ألحقتْ ضرراً كبيراً بصقلية. ومع أن المجتمعَ أصبح أكثرَ تجانساً، فإن ذلك لم يتحقَّق إلا بعد القضاء على طبقة من صغار التجار، وعلى عنصر في الزراعة كان من المستحيل تعويضه. ولعلَّ إنتاجَ القمح لم يستردَّ مكانتَه الأولى تماماً بعد هذه الضربة. ويكاد يكون من المؤكد أن معظمَ الحِرْفيين الصناعيين كانوا من المسلمين، وقد يكون كذلك أيضاً معظمُ أصحاب الأعمال والصناعات. وإذا كان الأمر كذلك، فإن نزوحهم يفسِّر ـ في حد ذاته ـ الهبوطَ الذي أصاب صناعتيْ المنسوجاتِ الحريرية والسكر. إلا أن هذه الحربَ الأهليةَ كان لها آثارٌ ضارةٌ أخرى: فإن إحراق المحاصيل كان دائماً أكثرَ الوسائلِ فعاليةً ضد مثل أولئك الثائرين المراوغين، ومن السهل أن يؤدي ذلك إلى شبوب حرائقَ مدمرةٍ تماماً في الغابات. وكان من نتيجة نزوح وذبح أولئك المسلمين ـ فيما بين سنتيْ 1160 و1246م ـ أن تُركتْ مساحات شاسعة من الأراضي بوراً وخاليةً من السكان. وقد قُدِّر بأن نصف المستوطنات القروية التي كانت قائمة في أوائل القرون الوسطى زالت من الوجود فيما بعد، ولا بد أن اختفاء الكثير منها

يـرجع إلى هـذا السبب بالـذات. ومن بين خمسين ضيعةً كـان يمتلكهـا دَيْـر مونريالِ في منطقة سكانها من المسلمين لم يَبْقَ اليوم سوى بضعَ عشرةَ ضيعةً كلُّها تقريباً تحمل أسماءَ تختلف عن أسمائها الأصلية، ممـا يوحي بـأنه أعيـد تأسيسها فيما بعد. وقد استُعملت الأدلَّةُ المستمـدَّةُ من شواهـد القبور وأسمـاء الأُسرَ للتأكيد بأنه ـ بحلول أواخر القرنِ الثالثَ عشرَ للميلاد ـ كـان الطـرد أو الاندماج قد قضيا ـ جُملةً ـ على شعبٍ كان إلى عهد قريب قبل ذلك التاريـخ يشكِّل معظمَ السكان.

لقد حمل فردريك على عرب صقلية لأنهم كانوا ثائرين لا بسبب ديـانتهم. ولم يَحُلْ عملُه دون استمرار العلاقات الـودية بينـه وبين الدول الإسـلامية في شمال افريقيا. وشكا دعاةُ البابا من أن فردريك كان يحتفظ في بلاطه بالغلمان والحريم، وأنه كان يستخدم راقصاتٍ شرقياتٍ للترفيـه عن ضيوفـه. وقد رافق مسلمون حاشيتـه حتى حينما زار الأراضي المقـدسة [فلسـطين]، وظل جنـده المسلمـون يشكِّلون نواةَ جيشـه، ومنهم كانت تتكـوَّن الحاميـةُ المتمركـزةُ في لوشيرة بمقاطعة بولية حيث كان نافخو الأبواق من العبيد السودان، وحيث كان المؤذن ينـادي علَناً للصـلاة. ولما تـوفي فردريـك، دُثِّر بـرداءٍ مزدانٍ بحـروف كوفيةٍ مطرَّزة، ولا شك في أن الرداء حيك في دار الطراز بالقصـر الملكي في بلرم.

لا عجب إذن أن يكـون البـابـاوات قـد أشـاروا إلى فـردريـك بـاسم البلطان المعمَّد، إذ كان بطبعه عِلْمانياً وعقلانياً إلى الحد الذي لم يَـرُقْ فيه لهم، كمـا أنه كان أخطرَ عدوٍ سياسي لهم لأن امبراطوريته كانت تحيط بالولايات البابوية. لذلك فقد تكرَّرتْ ضده قراراتُ البابا بالحرمان[2] والخلع عن العرش. ومـع ذلك، فـإن فردريك أسـدى للكنيسة خـدماتٍ لا يُستهـان بها. فقـد أنقص مما تبقَّى من سلطةٍ

(2) إن صدور قرار الحرمان أو التحريم ضد عضـو في الكنيسة كـان يقضي بإبعـاده عن جماعـة المؤمنين، وحرمانه من كافة مزايا الكنيسة وصلواتها العامة. (المترجم).

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

للمسلمين والبيزنطيين في جنوب ايطاليا. كما قاد حملةً صليبيةً ناجحة، وأصبح ملكاً على بيت المقدس. وشكّل في بلرمُ محكمةَ تفتيشٍ لمحاكمة الهراطقة والمارقين المنشقّين عن البابا. أما استياؤه من الهرطقة، فلأنها تمثّل ـ في المقام الأول ـ العصيان، ثم لأنها كانت ـ في بعض أشكالها الشائعة آنذاك ـ تهدد بإفساد النظام الاجتماعي. ولم يدَّع فردريك بأن له الحقَّ في عزل الباباوات، وكان أقلَّ من رجار تدخلاً في ادارة الكنيسة. ومع ذلك، فإنه قاوم ادعاءاتِ البابوية بحقها في التدخل في الشؤون الدنيوية، كما أنه رفض رفضاً مطلقاً ادعاءَ الباباوات بأن صقلية كانت اقطاعيةً بابوية. ولم يوقف فردريك ـ بخلاف أسلافه ـ أموالاً على الأديرة والأُسقفيات الجديدة، بل كان يفضِّل تشييدَ القلاع، كما أنه منع ـ وبشكلٍ فعَّال ـ الكنيسةَ من تكديس المزيد من الأراضي كأوقاف لها، إذ إن الكنيسة ـ بخلاف رؤساء الإقطاع ـ لا تموت، ولذلك فإن مثل هذا الوقف سيكون من شأنه إنقاصُ ما للملك من حقوق في مصادرة المِلْكيات الشخصية. وفضلاً عن ذلك، فإنه أصرَّ ـ بالرغم من قرار مجلس الكنيسة عام 1215م ـ بأن رجالَ الكنيسة ليسوا مُعفيْن من الضرائب، بل عليهم تأديتُها تماماً كغير رجال الكنيسة.

لا شك في أن التعليم الذي تلقاّه الإمبراطور في صباه في صقلية حباه فكراً محباً للاستطلاع، وجعله راغباً في الاستماع إلى أجوبة أكثر مما كان يسمعه من النصارى. وقد كان ملمَّاً بمصنَّفات ابن ميمون ـ الحاخام الأكبر الذي توفي في القاهرة سنة 1204م ـ كما أن سلطانَ مصر كان يختار ـ عَمْداً ـ علماءَ وشعراءَ من العرب ليكونوا سفراءه إلى صاحب صقلية. وكان فردريك يفضِّل مناقشةَ المسائل الدينية والفكرية مع الفلاسفة المسلمين واليهود، إذ إنه كان يعتبرهم ـ على وجه الخصوص ـ أهلَ دراية وعلم. وقد فزع المتدينون التقليديون من النصارى حينما بعث فردريك بقائمة من الأسئلة لمعرفة وجهة نظر غير النصارى في موضوع الخلود والروح. إن معتقداتِ فردريك وعاداتِه الغريبة أفزعتْ أولئك النصارى حتى إنه اتُّهم بأنه كان يحتفظ برهط من

السحَرة الذين كانوا يمارسون العباداتِ الشنيعةَ لعشتاروت Astaroth والشيطان بَعْلزبوب Beelzebub. وأذاع الرهبانُ ـ ولعلَّهم لفَّقوا ـ حكاياتٍ عنه تقول إنه كان يربِّي الأطفالَ في صمت منعزل، ليرى ما إذا كانوا سيتكلَّمون العبرية، وأنه كان يشرِّح أناساً أحياءَ لمراقبة عملية الهضم. وحتى استحمامُه المنتظَم أثار اشمئزازَ الكثيرين من الغربيين، الذين رأوا فيه عملاً غريباً يعجز المرء عن فهمه. ومع ذلك، فإن خروج فردريك عن الأنماط المعاصرة للسلوك يبيِّن البيئةَ الخاصةَ لبلرمُ النورمانية، حيث كان المجتمع متعدِّد الأجناس لم يتأصَّل فيه بعد التعصبُ الديني، وحيث كانت الحمَّامات العموميةُ ما تزال توفِّر خدمةً مرغوباً فيها للسكان، وإيراداً جيداً للدولة.

وكان الإمبراطور ـ في رعايته الشخصية ـ يميل إلى العلوم أكثرَ من ميله إلى الفن. فهو لم يقدِّم الكثيرَ من الحوافز للمعمار أو لأعمال النحت الخاصة بالتماثيل والفنون الزخرفية، إلا أنه كان توَّاقاً إلى المعرفة. وكانت الكتبُ النادرةُ والأدوات العلمية هي الهدايا التي كان يرحب بها أكثر من غيرها، فالبلانيتاريوم (نموذج يمثِّل النظامَ الشمسيَّ) الذي أهداه إياه سلطانُ دمشق كان أكثرَ ممتلكاته معزَّةً لديه. وكان يهتم بالأمور التقنية كتجفيف المستنقعات، وصنع آلات الحرب، كما أنه كان يولي المسائلَ الفيزيائيةَ المجرَّدة اهتماماً خاصاً. ولما شارك في حملة صليبية [1228-1229م] حاول أن يعرف من الخبراء العرب الأسبابَ التي من أجلها تبدو الأجسامُ المغطَّاةُ جزئياً في الماء منحنيةً. وكان الإمبراطور مولعاً بمرافقة علماء الفلك والرياضيات، فأصبح بلاطُه ـ لذلك ـ مع أكسفورد وباريس ـ أحدَ مراكز دراسة العلوم الرياضية في أوروبا اللاتينية.

إن مايكل سكوت Michael Scot ـ الطبيبَ والمنجِّمَ في بلاط فردريك ـ وضعه دانتي في الجحيم بين السَحَرة. وكان هذا الاسكتلندي فيلسوفاً وعالمَ حيوان ومترجماً مرموقاً من العربية واليونانية، كما كان متحمِّساً

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

لأرسطوطاليس وابن رشد. وكان يليه - بين كبار مفكري البلاط - ثيودور[3]، وهو يوناني من مصر كان يحضِّر الأدويةَ ويقرأ الطالع للإمبراطور. وكان ثيودور يشغل منصبَ كاتب، كما كان مترجماً وسفيراً وعالماً، ولم تكن ترجماتُه - وترجماتُ سكوت - دون تأثير على حركة النهضة الإيطالية.

وكان فردريك يهتم بالحيوانات اهتماماً خاصاً. وقد جلبَ أنواعاً جديدةً من الخيول لتهجينها مع الخيول المحلية. وفي جزيرة مالطة، كان يربِّي الإبلَ والصقور، وكان يربي الفهودَ في مستوطنة لوشيرة. وكانت حديقة حيواناته تشتمل على الأسود والنمور والقرود وزرافةٍ وفيل أهداه إياها سلطان مصر. وكانت حديقة الحيوانات هذه تنتقل معه أحياناً في أسفاره، مما كان يسبِّب إرباكاً لمضيفيه. وقيل إنه كان يضع علاماتٍ على الأسماك لتمكينه من دراسته حركاتها. وكانت الطيور تفتنُه، لاسيَّما تلك الطيور التي كان يستعملها في رياضة الصيد والقنص الأثيرة لديه. وقد قضَّى ثلاثين سنة يدرس الصقور (البيزان)، وكان يستضيف خبراءَها من الشرق بأموال طائلة، كما كان يستورد أنواعاً مختلفة منها من بلاد نائية كإرلندا وبلغاريا والهند، ثم ساعد على تصنيف رسالة باللغة اللاتينية حول أنواعها المختلفة، وتركيب أعضائها، وطريقة تعشيشها، وطرق صيدها وتدريبها. ويوحي الكتاب بأنه درسَ مراحلَ تحليق الطيور، وأوضاعَ الريش أثناء حركتها. ولما كان يؤمن بالملاحظة المباشرة، فإنه استطاع أن يُصحِّحَ أرسطوطاليس وبليني Pliny مستشهداً بما يقع عليه بصره.

إن هذه الاهتماماتِ المتعددةَ تؤكد أن فردريك كان قد تلقَّى معظمَ تعليمه

---

(3) ثيودور الأنطاكي عالم شهير بعث به إلى فردريك سلطان مصر الأيوبي الكامل في سنة 1236م. وكان قد درس في بغداد والمَوْصل، وكان متمكناً من العلوم العربية المشرقية تمكُّنَ مايكل سكوت من العلوم العربية الأندلسية. وكان يكتب رسائلَ الامبراطور العربية إلى أبي زكريا يحيى سلطان تونس الحفصي. كما ترجمَ - بطلبٍ من فردريك - كتباً عربيةً في علم الحيوان. (المترجم).

في صقلية لا في المانيا. وكان من الطبيعي كذلك أن يولي اهتمامَه بأدبٍ «قومي» وبلغةٍ صقلية شعرية. إن لهجة التخاطب في الجزيرة لم تكن تختلف عن اللهجة الصقلية اليوم. ومن الأمثلة الكتابية الأولى التي وصلتنا قائمةٌ بالممارسات السحرية المتصلة باختيار زوجة، بما فيها وصفةٌ لتركيب جرعة من النبيذ المحلَّى بالسكر وصفراء الدب. ولعلَّ لغة فردريك الأصلية كانت هذه اللهجة، إذ إنه كان في صقلية من سن الثانية إلى سن الثالثةَ عشرة. أما لغة البلاط فكانت الفرنسية ـ النورمانية، ولا بد أن الملك كان يعرف أيضاً اللغةَ اللاتينيةَ ولغةَ بروفنسال [جنوب فرنسا] والألمانية، ولعلَّه كان ملمَّاً بالعربية واليونانية. وقد تعلَّم من البروفنساليين فنَّ كتابة الشعر، وهو الفن الذي أصبح لذلك قدوةً لرجال بلاطه، وكان للُّغة الصقلية الجديدة الخاصة بشعر البلاط جذورُها في جنوب فرنسا.

كان للأدب البروفنسالي تأثيرٌ واسعُ النطاق في ايطاليا في هذه الفترة الحاسمة، التي شهدتْ صياغةَ اللغة والأدب الايطاليين، وكان البلاط في بلرمُ إحدى نقاط دخوله. وكان الكثيرون من الفرنسيين قد قَدِموا للعيش بصورة دائمة في صقلية، جالبين معهم تقاليدَ بلادهم الأدبية. وعن طريق مَلِكَتيْ وليام الأول ووليام الثاني كانت تقوم روابطُ مع بروفانس، كما أن كثيرين من شعراء التروبادور[4] ـ أصحابِ الشعر الغَزلي الخاصِّ بالبلاط ـ قَدِموا إلى مسِّينة صحبة جيش رتشارد قلب الأسد. وفي سنة 1209م، تزوج الشابُّ فردريك من كونستانس من مقاطعة بروفانس، والتي وصلتْ إلى بلرمُ يرافقها رهط قوامه خمسمائة من الفرسان. وقد ساعدت هذه المؤثراتُ على جعل بلاطه

(4) ازدهرت هذه الطبقة من أصحاب الشعر الغنائي على وجه الخصوص في مقاطعة بروفانس بجنوب فرنسا وفي شمال ايطاليا ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر للميلاد. وكانت أشعارهم بلغة بروفنسال تتناول في معظمها حبَّ البلاط والفروسية ببحور موزونة معقَّدة. ولعلَّهم ـ بحكم الجوار والصلات عبر قرون ـ تأثروا بالشعر العربي الأندلسي، وبخاصة الموشحات. (المترجم).

الطريق الى السنّة http://www.way2sunnah.net/books مكتبة شاملة

مـركزاً لـلإبداع الأدبي. وكـان من بين مرافقيـه في أسفاره جياكـومـو اللنتيني Giacomo of Lentini ـ صاحبُ مقطوعة غنائيـة على النمط البروفنسالي، وهي أول قصيدة وَصلتْنا باللغة الصقلية الأصلية ـ ونحن نعلم أنـه كان ثمـة كثيرون آخرون من الكتّاب في هذه الطبقة من بين الإداريين المحترفين. وقـد اعترف كلٌ من دانتي وبترارك بتفوق الشعر باللسان الصقلي الدارج وهذه اللغة الأدبية الايطالية الأولى. وقد كانت هـذه اللغة ـ إلى حـد ما ـ خَلْقـاً متعمَّداً من قِبَـلِ راعٍ ملكي لم يكتب الشعر لمتعته الخـاصة فحسب، بـل حاول ـ عـامداً ـ أن يجعل من المملكة جماعة واحدة، لها ثقافتها وأدبها الخاصان بها.

توفي فردريك في سنة 1250م. وكان قد قضَّى آخرَ أيامـه في إحدى قـلاعه بمقاطعة بولية، تحفُّ به بطانته من المسلمين، ثم نُقل جثمانه إلى بلرمُ ليدفنَ فيها. لقد كـان فردريـك ـ من بعض النواحي ـ أبـرزَ حاكم عـرفته أوروبـا في القرون الوسطى، ومع ذلك فإن ما أنجزه في صقلية كان إنجازاً شخصياً فَرَضه هو نفسه، فلم تَصُغْه قوىً باقيةٌ ثابتة، ولم تتقبَّلْه رعيتـه تقبلاً صـادقاً. ولم يَبْقَ إلا النـزرُ اليسيرُ من انجـازاته الإيجـابية بعـد وفاتـه. وقـد خلق لنفسـه أعـداءَ كثيـرين، وكان على صقليـة أن تعاني من جـراء ذلك. ولم تتكـون من فقهـاء القانون ـ الذين كانـوا يشكلون العمود الفقـري في إدارته ـ طبقـةٌ باقيـة. ولما كان في حاجة إلى مساندة جيش إقطاعي، فإنه لم يَتحـدَّ الأساسَ الاجتمـاعيَّ لسلطة الطبقة الارستقراطية. وكان أصحابُ الإقـطاعات يـرهبونـه ما بقي على قَيْد الحياة، إلا أنهم بعد وفاته استطاعوا أن يقوِّضوا منجزاتِه الشخصية.

كان فردريك يقول إنه يحب صقلية أكثرَ من كافـة ممتلكاتـه الأخرى، لكن مملكته الصقلية شهـدتْ في الواقـع انتقالَ مـركز الجـاذبية منهـا إلى ايطاليـا، وكان هو نفسه يؤثر الإقامة في قلاعِ الصيد الملكيـة في مقاطعـة بوليـة. ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أن القليلَ من وزرائه كان من أبنـاء الجزيرة. لقد كانت بلرم عاصمةً مفيدةً طالما كانت صقلية مرتبطةً ارتباطاً رئيساً بإفريقية والمشرق،

إلا أن هنري [السادس] وفردريك [الثاني] جلَبا معهما إلى الجزيرة سياسةً أوروبية ـ وأحياناً سياسةً ألمانية ـ وكان دَوْر جزيرة صقلية فيها دوراً ثانوياً. فثروتُها ـ أو ما بقي منها بعد أعمال السلب والنهب على أيدي بولدوين ملك بيت المقدس، وريتشارد ملك انجلترا، وهنري السوابي ـ بُدِّدتْ على مشاريعَ كانت مصلحةُ صقلية فيها ضئيلة جداً.

لقد كان هذا تغييراً جوهرياً حقاً. فإن صقلية كانت بلاداً غنيةً طالما انتمتْ إلى عالمَ شمال افريقيا والمشرق، ولكنها حينما أُرغمت على الارتباط بغرب أوروبا، فإنها فقدتْ مزايا اقتصاديةً كثيرة، وأصبح موقعُها الجغرافي نقمةً بدلاً من أن يكون نعمةً عليها. وكان مضيق مسِّينة ـ بالرغم من ضيقِه ـ يشكِّل عقبةً خطيرةً في وجه التجارة مع جنوب ايطاليا، وبدلاً من أن يكون البحرُ المتوسطُ طريقاً رئيسياً، فإنه أصبح يشكِّل حداً. وبعد سنة 1194م، كانت صقلية إقليماً صغيراً في الأطراف، ضمن عدد متتابع من الإمبراطوريات الكبيرة. فكان عليها أن تساندَ حملاتِ فردريك في المانيا، وان تعانيَ من جراء نزاعٍ مع البابوية كان ـ من وجهة نظرها ـ نزاعاً ضاراً لا داعيَ له. وبالمقارنة بذلك، فإن انقطاع فردريك عن زيارة بلرمُ كان ضربةً ثانوية، ومع ذلك، فإنه دلَّ على نهاية عصر. ويبدو أن عمال نسج الحرير والصاغة بدار الطراز بالقصر الملكي نُقلوا إلى مقاطعة بولية مع المسلمين الآخرين المُبعَدين، ومع معظم الموظفين الإداريين على ما يُحتمل. ولم يُستعمل مصنع الفسيفساء في بلرمُ إلاّ قليلاً بعد سنة 1225م ـ باستثناء أعمال الترميم ـ إذ لم يكن ثمة عمل في المصنع في غياب الملك. ولم تشهد المدينة في القرنِ الثالثَ عشرَ للميلاد مبانيَ جديدةً يمكن مقارنتها بالمباني التي شُيِّدت في القرن الثاني عشر للميلاد. لقد تُركت بلرمُ مدينةً ميتة. وبعد سنة 1250م، لم يكن الشعراءُ «الصقلِّيون» من أبناء الجزيرة حقاً، وحلَّت تسكانيا محل صقلية كأعظم مركز إبداعٍ للأدب الايطالي. وقُدِّر لأُسرٍ مالكةٍ أوروبية متنافسة بأن تقومَ بحسم منازعاتها بالقتال على حساب صقلية وفوق ترابها.

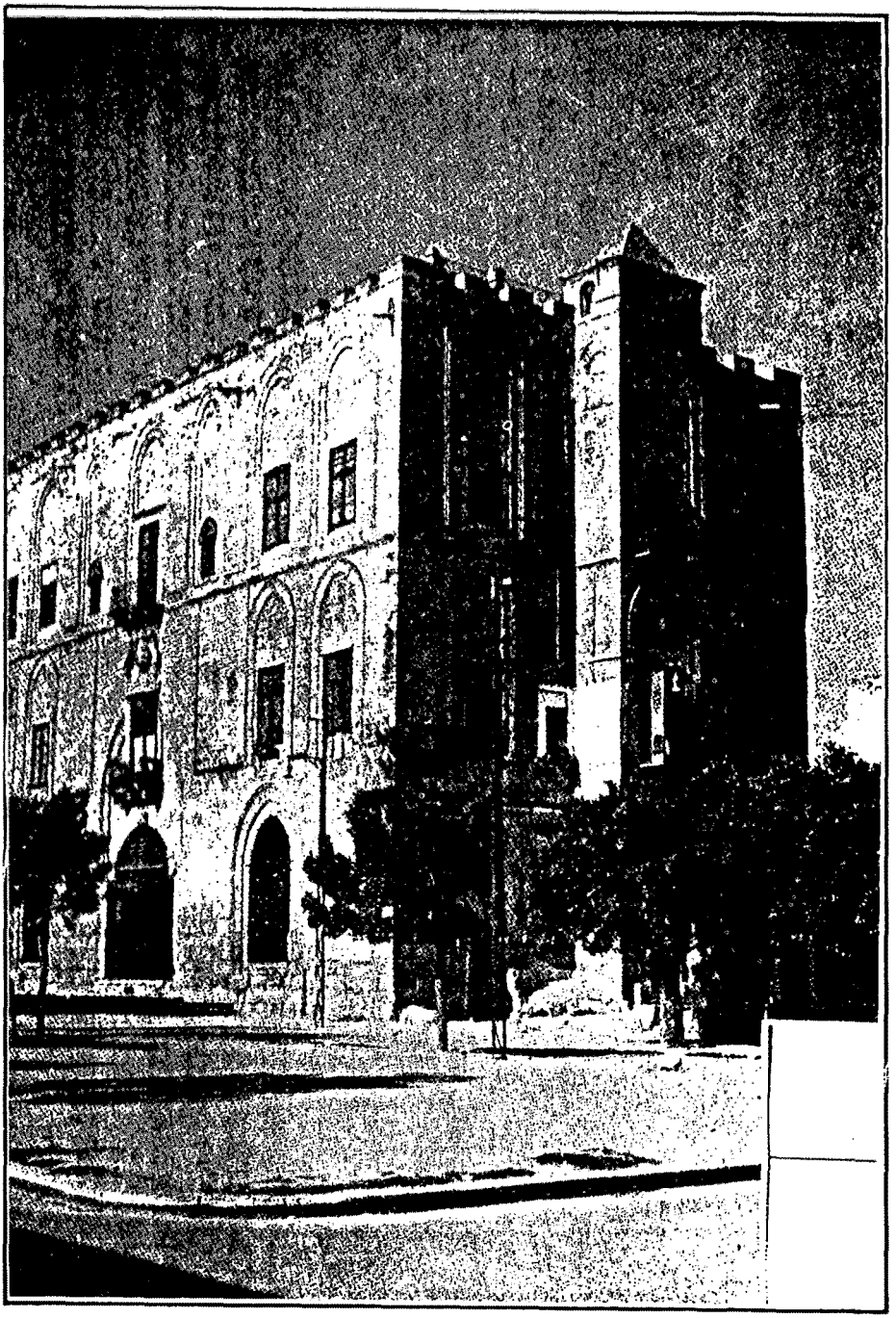

قصر العزيزة (La Ziza) ـ بلرم

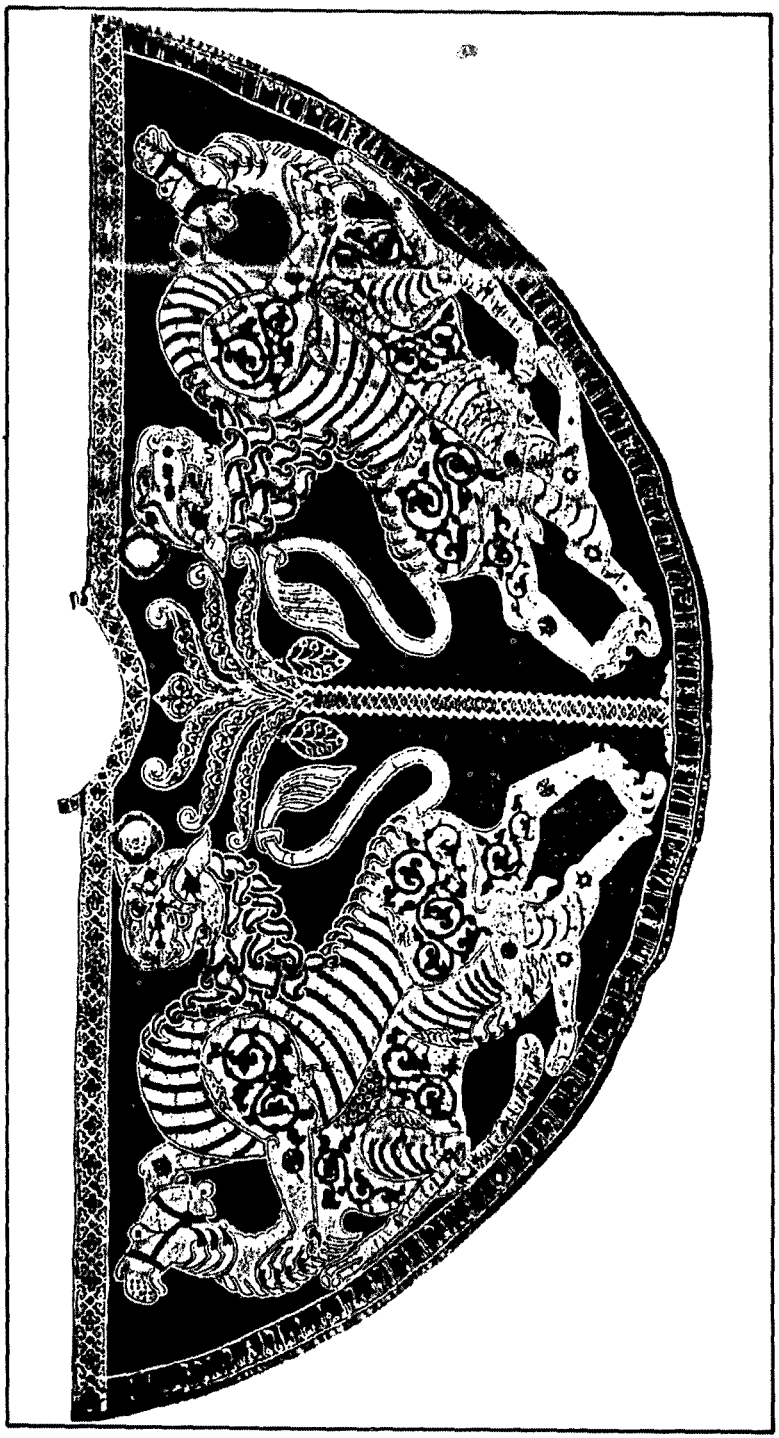

عباءة تتويج الملك رجار الثاني، وعلى وجهها الخارجي الطرز صورة أسدٍ يهاجم جملاً

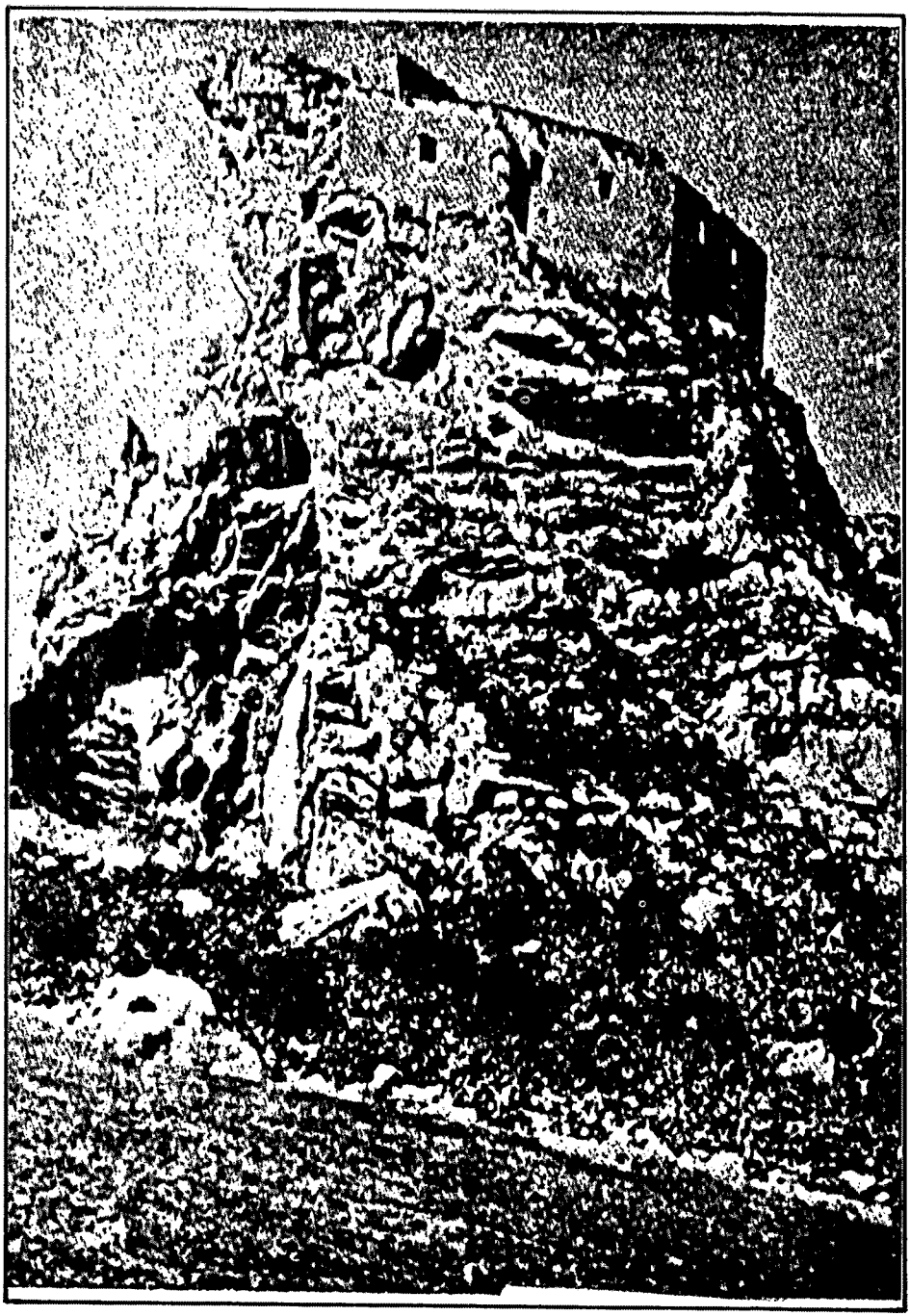

قصر (حصن) منزل الأمير (Misilmeri) قرب بلرم

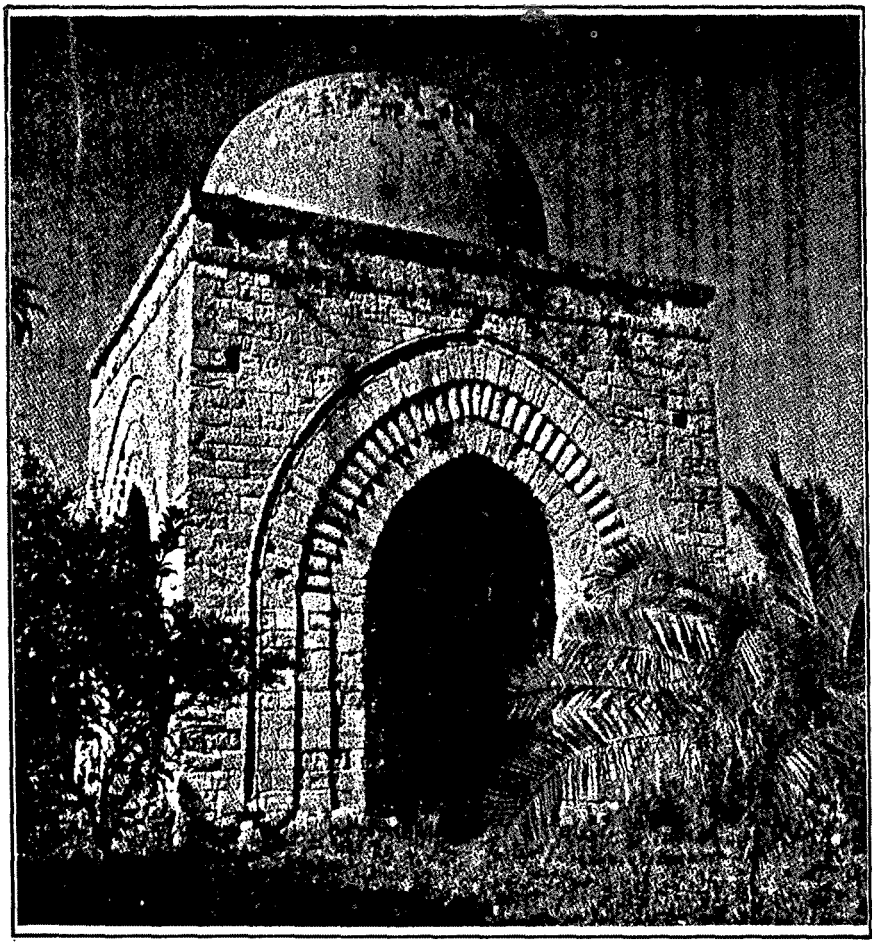

القبة الصغيرة في بلرم

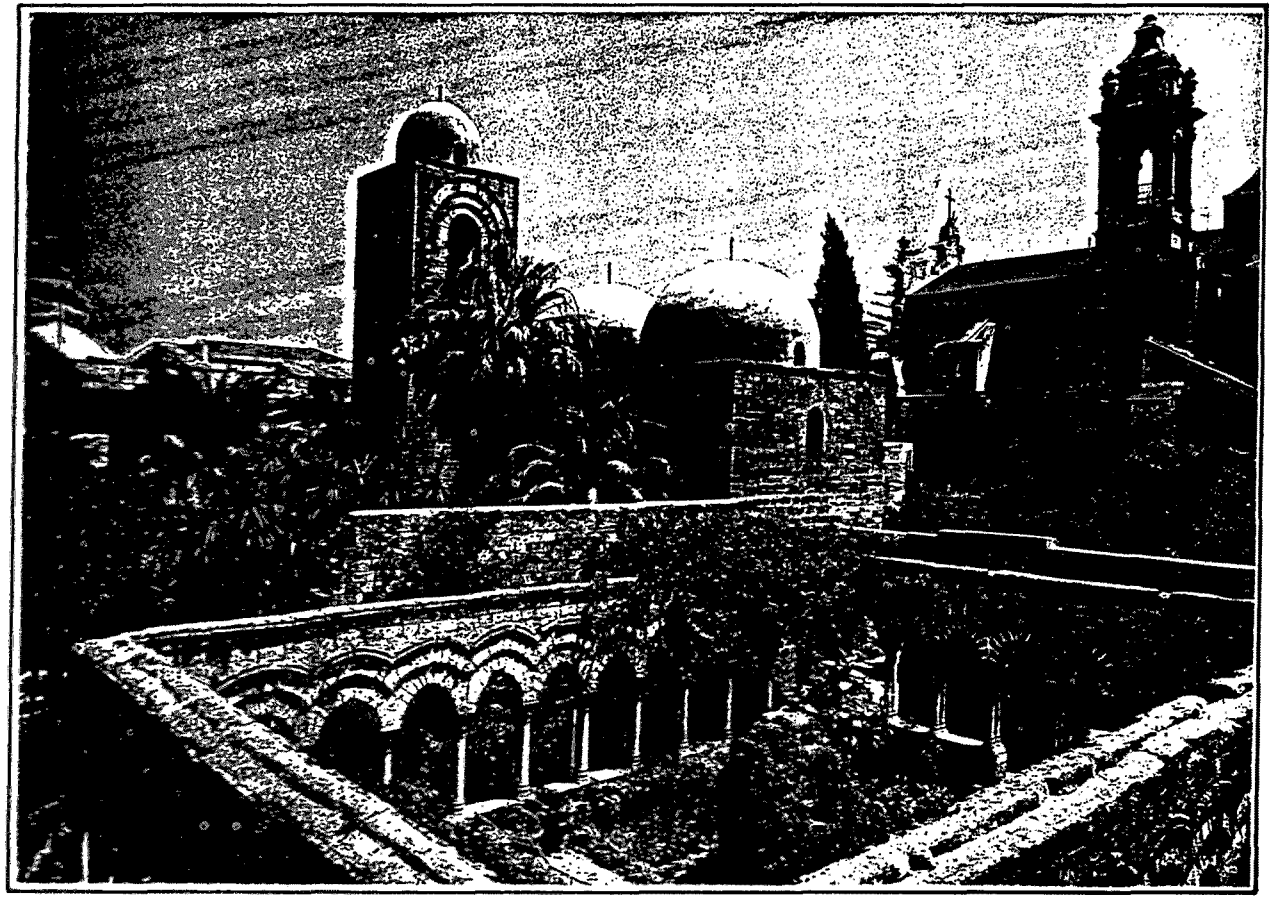

قباب كنيسة القديس يوحنا شفيع النُسّاك ببلرم، وكانت في الأصل مسجداً حُوِّل إلى كنيسة في القرن الثاني عشر

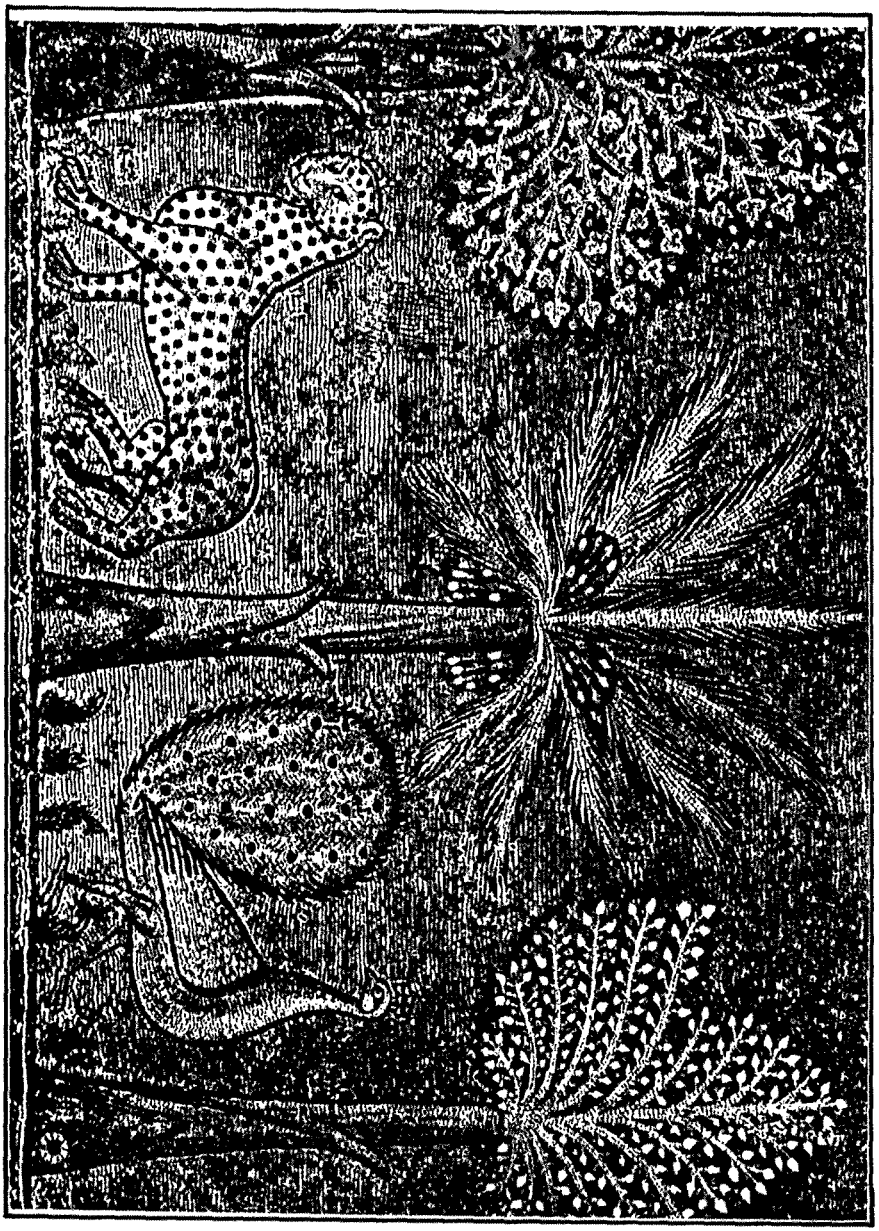

رسمٌ بالفسيفساء، من عمل فنيِّين مسلمين، في صالة رجار الثاني بالقصر الملكي ببلرم

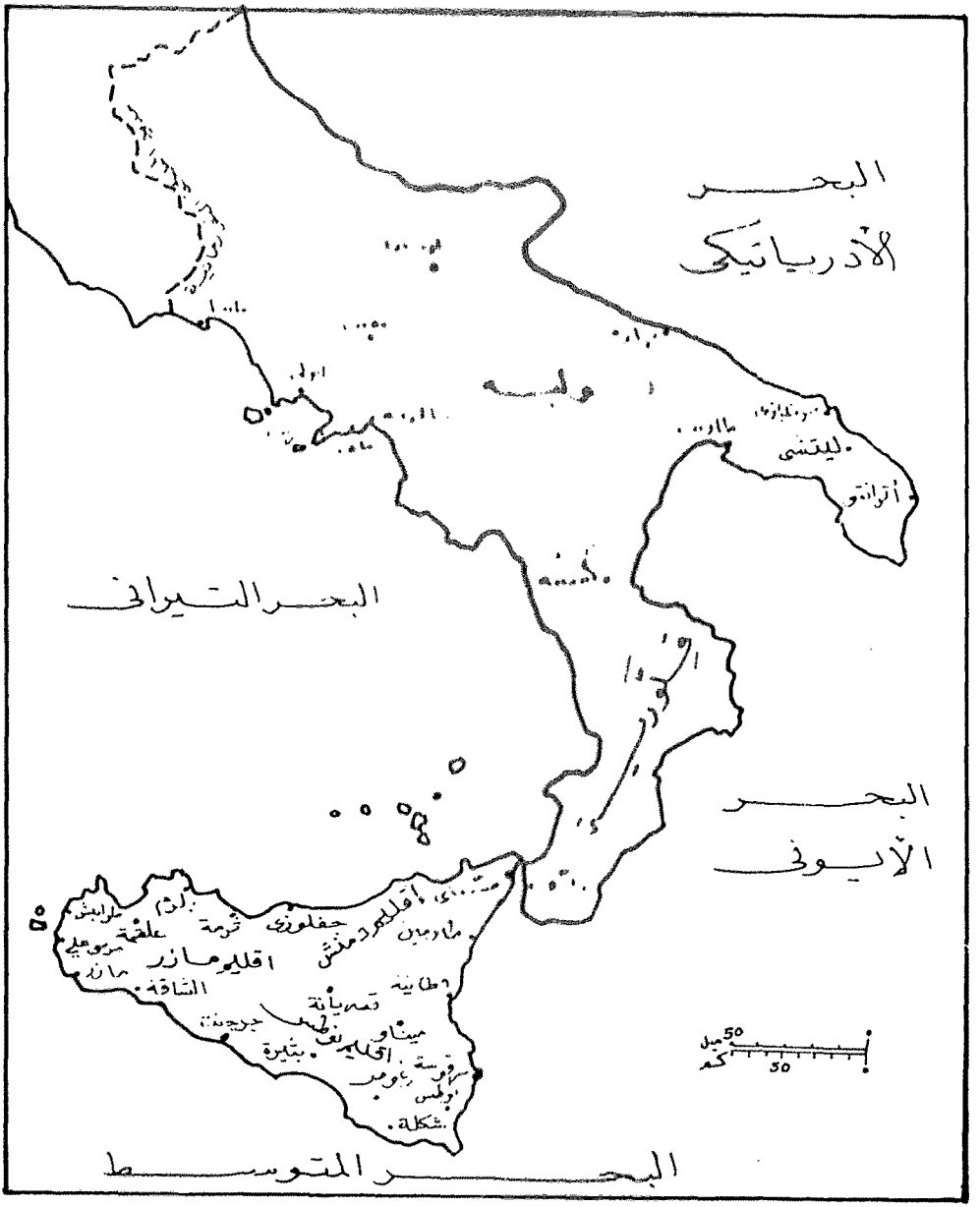

رسمها الأستاذ علي أبو زيد المدرس بقسم الجغرافيا بكلية التربية، جامعة الفاتح

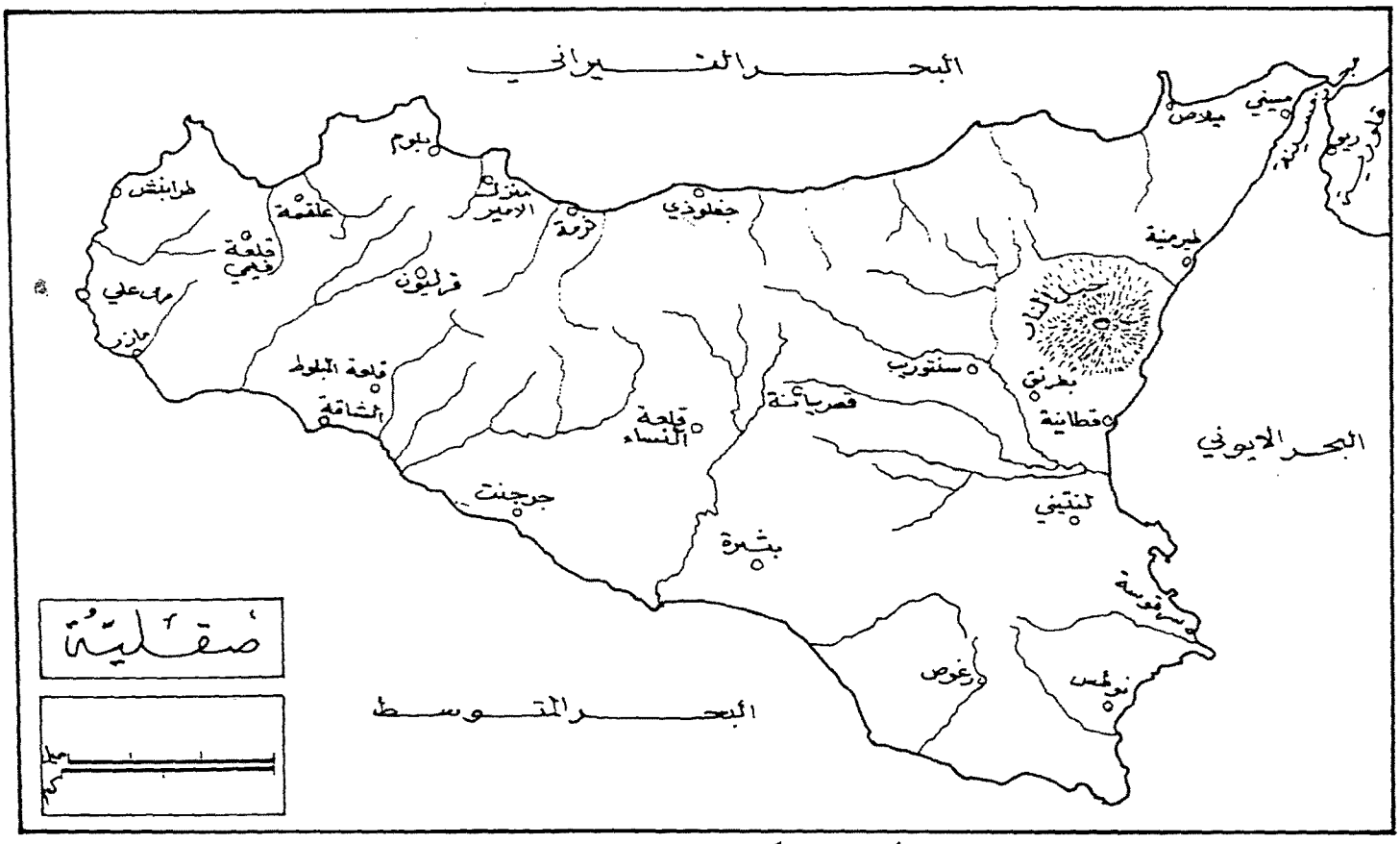

رسمها السيد علي أبو زيد المدرّس بقسم الجغرافيا، كلية التربية جامعة الفاتح

الطريق الى السنة
http://www.way2sunnah.net/books
مكتبة شاملة